

العلاقات الخارجية لدولة الإسلام بالحجاز

في عهد النبي صلى الله عليه وسلم

الأستاذ الدكتور
أحمد عبد الوهاب فتيح

دار القاهرة
١١٦ شارع محمد فريد - القاهرة
ت: ٣٩٢٩١٩٢


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

العلاقات الخارجية لدولة الإسلام بالحجاز
فى عهد النبى ﷺ

الأستاذ الدكتور
أحمد عبد الوهاب فتيح

الناشر
دار القاهرة
١١٦ شارع محمد فريد ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٩١٩٢

اسم الكتاب : العلاقات الخارجية لدولة الإسلام بالحجاز
اسم المؤلف : د. أحمد عبد الوهاب فتيح
رقم الطبعة : الأولى
السنة : ٢٠٠٦
رقم الإيداع : ١٧١٣٦
الترقيم الدولي : I.S.B.N
977 - 6048 - 32 - 3
اسم الناشر : دار القاهرة
العنوان : ١١٦ شارع محمد فريد
البلد : جمهورية مصر العربية
المحافظة : القاهرة
التليفون : ٠٠٢٠٢٣٩٢٩١٩٢ /٠٠٢٠٢٣٩٣٠٩٢٢
فاكس : ٠٠٢٠٢٣٩٢٩١٩٢
المحمول : ٠٠٢٠١٢٣١٧٧٥١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين $ الرحمن الرحيم $ مالك يوم الدين $ إياك نعبد وإياك نستعين $ اهدنا الصراط المستقيم $ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .... آمين .

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾(١).

كان المبدأ : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(٢).

وكان المنتهى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾(٣).

ومن المبدأ إلى المنتهى ، دوت فى صحراء جزيرة العرب صيحة رجل عربى كان سيد قوم أشداء يطيعونه إن أمر ، ويتبعونه حيث رغب ، ويقومون دونه بأرواحهم وابنائهم وأموالهم .

بل هو أول عربى فى تاريخ هؤلاء العرب الشداد ، استطاع أن يجمعهم من أقصى جزيرتهم إلى أدناها تحت راية واحدة ، ويدفعهم نحو غرض واحد ويلقى بهم إلى رحاب العالم الفسيح فيغيرون وجهه .

جاهد فى الله حق جهاده ، فأسمع الدنيا جميعا أن فى السماء إلها اسمه الله ، وأن فى الأرض نبيًا اسمه محمد ، وأن المسلمين أمة واحدة ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وهى الأمة الوسط ، خير أمة أخرجت للناس ؛ رحمك الله يا رسول الله على ما عانيت من جهد ، حتى تم نور الله .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٥٦ .

(٢) سورة العلق ، الآية ١ ـ ٥ .

(٣) سورة المائدة ، من الآية : ٣

أما بعد :

فإن موضوع هذا الكتاب : العلاقات الخارجية لدولة الإسلام بالحجاز فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

ونقصد بالعلاقات الخارجية لدولة الإسلام الأولى : الانتقال بالدعوة الإسلامية لتبليغها إلى الدول والجماعات خارج محيط الجماعة الإسلامية التى قامت بتأسيس تلك الدولة الناشئة على أرض المدينة .

إذ لم يكن من المتوقع أن تنتقل تلك الدول والجماعات من مواطنها إلى أرض تلك الدولة الإسلامية لتلقى تلك الدعوة ، والأخذ بها طواعية ومن تلقاء نفسها إذ كان أغلبها جماعات وثنية عاكفة منذ وقت سحيق على عبادة الأصنام والأوثان متخذة منها آلهة ، سكنوا إليها ، واطمأنوا لها ، لا لأنها وحسب آلهة آبائهم وأجداهم ، بل أيضا لأن هذه الالهة لا تكلفهم جهداً مضنيا فى التفكير ، فهى ليست صاحبة رسالة أو شريعة ذات صلة بحياتهم ، وهى فى نفس الوقت لا تملك نواهى ولا أوامر فى سلوكهم وأخلاقياتهم ، وان كل ما هو مطلوب منهم تجاهها هو تقديسها وإيمان مجرد بها ، وليست للقداسة ولا الإيمان بها تبعات أو مسئوليات ، ولم يكن الدين الحق أحد اهتماماتهم ، فنشأت لديهم رخاوة دينية ، كان لها أثر كبير فى استكانة عقولهم واستسلامها .

لذا واجه هؤلاء وغيرهم من أهل الكتاب ـ عربا وعجما ـ تلك الدعوة الجديدة الناشئة أشد مواجهة ، ووقفوا لصاحبها ، صلوات الله وسلامه عليه ، بكل سبيل ، ولكن محمدا ﷺ ، لم يكن بالذى ينخذل أمام باطلهم ، ويدعهم يعوقون مسار تلك الدعوة الإسلامية ويشلون حركتها ، بل حرص حرصًا بالغًا على أن يقر فى أذهان هؤلاء جميعًا أنه مبلغ وليس مبدعًا ، وأنه رسول من عند الله ، يحمل إلى قومه رسالة هداية ورحمة ، وأن دعوته تتطلب منهم أن يحل التوحيد محل الشرك والإيمان محل الكفر ، وفكرة البعث محل الجمود ، والعقل محل الجهل ، والأخلاق محل التقاليد .

وقد كان النبى ﷺ مأموراً من ربه سبحانه وتعالى بذلك التبليغ والصبر على عنادهم وكيدهم ، والله حاميه وكافيه ، إذ يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ

مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾[1] ويقول : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾[2]، فأدى ما عليه فى حراسة ربه سبحانه وتعالى.

وقد دفعنى إلى الكتابة فى هذا الموضوع :

* حبى لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

* ورغبتى التى لا تنتهى فى قراءة سييرته العطرة ، وحياته النضرة ، ومواقفه التى حررت الإنسان ، ورفعت عنه القيود والأغلال ، وجعلته يتفرغ للمهمة التى ألقاها المولى سبحانه على عاتقه ، وهى : خلافته فى الأرض ، وملؤه إياها عدلا وفضلا ورحمة.

* وسبب ثالث : وهو أن كتاب السيرة فى الماضى والحاضر قد وجهوا عنايتهم إلى تناول حياته قبل مبعثه وبعده حتى أتاه الله نوره ، وأكمل دينه ، ودخل الناس فى الحق الذى يدعو إليه زرافات ووحدانا ، أما دولته التى أقامها فى المدينة ، والروابط والصلات التى كانت بينها وبين الأمم القريبة من تخوم شبه الجزيرة العربية ، فإن هذا الموضوع على ثرائه وقيمته وآثاره التى لا حد لها فى الشرق والغرب جميعًا ، فإن الجهود التى كرست له كانت قليلة ، والأبحاث التى كتبت فيه لم تصل بعد إلى الهدف المنشود والغاية المطلوبة .

ولهذا فإنى أردت أن أتناول هذا الموضوع ، وأن أكرس له الوقت والجهد ، لعلى أميط النقاب عن جانب عظمة النبى ، ﷺ فيه ، وسياسته الكيسة الفطنة التى أدارت شئونه، ودبرت أموره، ووصلت إلى الغاية التى لم تصل إليها سياسة قبله .

* أضف إلى هذه الأسباب سببًا رابعًا لا سبيل إلى إغفاله ، وهو : أن الكثيرين من الباحثين لا يزالون يتطلعون إلى الأسباب الحقيقية التى من أجلها غزا المسلمون دولتى الفرس والروم ، وهل البطولة فى الفتوحات الإسلامية التى أذهلت علماء الشرق والغرب وعباقرتهما إنما تعود إلى الخليفتين الراشدين : أبى بكر الصديق ، وعمر ابن

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٦٧.

(٢) سورة الطور ، الآية : ٤٨ .

الخطاب ؟ أم أن الذى وضع خطة هذا الفتح ، ورسم له المنهج القويم ، هو محمد صلوات الله وسلامه عليه ؟ ولا سبيل إلى الإجابة الشافية الكافية إلا إذا كشفنا اللثام أولا عن العلاقة التى كانت بين دولة الإسلام وبين الأمم والدول المجاورة لها .

وهذا نفسه هو البحث الذى فرغت نفسى للكتابة فيه .

إن هذا الكتاب مقسم إلى ثلاثة فصول :

• أما الفصل الأول فهو :

« العلاقة بين الدولة الإسلامية والوثنيين فى الجزيرة العربية »

تناولت فيه : لمحة موجزة عن أديان العرب قبل الإسلام ، ومثلها عن موقف الدولة الإسلامية من الوثنيين ، ثم تناولت الحديث عن الغزوات التى غزاها النبى ، ﷺ بنفسه الكريمة لغزو الوثنيين ، وكذلك الغزوات والسرايا التى قادها أصحابه ، بجانب ما تخلل تلك الأحداث من دعوة ، ووفود ، وبعوث وكتب وغيرها .

• أما الفصل الثانى فهو :

« العلاقة بين الدولة الإسلامية وأهل الكتاب فى الجزيرة العربية »

تناولت فيه : موقف الإسلام من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) ، وتحدثت عن علاقة الدولة الإسلامية بكل منهما على حدة فبينت طبيعة تلك العلاقة وأحداثها من دعوة وغزوات ، وسرايا ، ووفود ، وبعوث ، وكتب ، وغيرها كذلك .

• أما الفصل الثالث فهو :

« العلاقة بين الدولة الإسلامية والدول والجماعات خارج الجزيرة العربية » .

تناولت فيه : علاقة الدولة الإسلامية بكل من دولة الروم ، ودولة الفرس ، ودولة الحبشة ، بجانب علاقتها بالدول والحكومات التى تقع تحت نفوذ تلك الدول ، وتدور فى فلكها ..

أسأل الله الهداية والتوفيق .

تمهيد

طوال ثلاثة عشر عاما بمكة ، قام النبى ﷺ يدعو الناس إلى توحيد الله وتزكية نفوسهم وتطهيرها ، واستمرت دعوته ثلاث سنين حتى نزل قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾[1] فأعلن دعوته .

وابتدرته قريش تظهر خصومتها لدعوته السمحاء ، وأخذت هذه الخصومة تشتد وتعنف ، فاستباحوا فى الحرم الآمن دماء المسلمين وأموالهم ، وحرضوا القبائل على الدعوة وصاحبها ، وقاطعوا المسلمين ومن يعطف عليهم ، لا يبعوهم ولا يبتاعون منهم شيئا ، ولا يزوجونهم أو يتزوجون منهم .

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم صمد صمود الجبال الرواسى ، لا يلين ولا يتردد ، ولا يخشى أحداً إلا الله ، وتحمل التعذيب والتكذيب ، والأذى والجوع والحرمان ، فى سبيل تحقيق أهدافه كاملة .

كان يذهب إلى الحجيج فى مجامعهم ، ويطلب منهم النصرة ، على مسمع ومرأى من جبابرة قريش وأحلافهم .

وتكللت إحدى محاولاته البطولية بالنجاح ، ذلك بانبثاق بيعة العقبة الأولى ، ثم تلتها بيعة العقبة الثانية ، فكانت بيعة العقبة الأولى أول انتصار له خارج مكة ، وكانت بيعة العقبة الثانية انتصاراً آخر له ، وأدى كل ذلك إلى انتشار الإسلام فى المدينة ، وأصبح له فيها جنود يعتمد عليهم فى الملمات ، وأمر النبى ﷺ مسلمى مكة ومن حولها بالهجرة إلى المدينة للانضمام إلى إخوانهم هناك ، فهاجر المسلمون تباعًا ، تاركين أموالهم وأهليهم ، ولحق بهم النبى ﷺ .

وما من شك فى أن الهجرة كانت انتصاراً مبينًا ، لأنها فراراً إلى الله ، والفرار إلى الله انتصار ، حتى لو انتهى بالموت أو القتل : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾[2].

---

(١) سورة الشعراء ، الآية : ٢١٤ .

(٢) سوة الحج ، الآية : ٥٨ .

ونحن مأمورون بالفرار إلى الله - أى بالهجرة إليه - ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [1].

وسيدنا إبراهيم عليه السلام قال ﴿ إني مهاجر إلى ربي سيهدين ﴾[2] والفرار إلى الله والهجرة إليه ، والذهاب إليه ، من صفات المؤمنين الصادقين ، انهم يفرون إليه يوميًا ، فهو هدفهم وغايتهم فى جميع أعمالهم ، فهجرة المؤمن إنما هى لله وحده خالصة لوجهه الكريم ، وإذا ما كانت كذلك كان الله معه ، يقول صلوات الله وسلامه عليه للصديق رضى الله عنه ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [3] فهجرتهما كانت خالصة لله تعالى .

استقر محمد ﷺ وأصحابه من المهاجرين فى المدينة بين ظهرانى الأنصار ، وأصبح الدين الإسلامى حقيقة يشعر بها العرب ، وبدأ المسلمون يحسون بقوتهم ، وأخذوا يقيمون شعائر الدين لأول مرة علنا ، وبلا خوف ولا تصد من أحد أيا كان ، واستسلمت المدينة عن بكرة أبيها بما فيها من مشركين ويهود إلى هذا الوضع الجديد ، وبدأت عندئذ حالة استقرار نسبى تقتضى تنظيمًا لشئون المسلمين وتتطلب النظر فى مختلف الأحوال والملابسات التى تكتنف هذه الدولة الناشئة حتى تستقر فيها الأوضاع على أساس متين .

وكان طبيعيًا أن يفكر قائد هذه الدولة ومؤسسها أول ما يفكر فى بناء دار للعبادة يجتمع فيها أنصاره للصلاة التى هى أكبر أركان الإسلام العملية ، فبنى مسجده وعمل فيه بيديه الكريمتين، وجد الأنصار والمهاجرون للعمل فيه ، وبنى مساكنه حول المسجد .

وكان النبى ﷺ يدرك أن هجرته من مكة إلى يثرب ليست نهاية الصراع بينه وبين قريش ، كلا فإنها كانت فى الحقيقة نهاية للصراع السلبى ، فقد آذانت ولا شك ببداية صراع ساخن تبدى فى الأفق واضحًا جليًا ، فمحمد ﷺ يدعو الناس للعودة إلى

---

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٥٠ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية : ٢٦ .

(٣) سورة التوبة ، الآية : ٤٠ .

دين أبيهم إبراهيم ، وهو دين العرب ، والدين القويم ، وإن كان العرب لبعد عهدهم به قد أدخلوا عليه من البدع والضلالات ما ليس منه، فجاء محمد ﷺ ليصححه ويطهره، وليعيده إلى صفاته الأولى .

أما مكة ففيها مقام إبراهيم ، البيت العتيق ، بيتهم المحجوج الذى لابد للمسلمين أن يهرعوا إليه كل عام ليقيموا شعائر الحج الذى نادى به إبراهيم ، إذن فقد أدرك محمد منذ البداية أن صراعًا عنيفًا سيحدث بين المسلمين وقريش ، لأن قريشًا على على التأكيد سوف تمنعهم من إقامة شعائر دينهم فى الكعبة ، كما منعتهم قبل ذلك ثلاثة عشر عاما .

ومن هنا كان لزاما على مؤسس الدولة الجديدة وقائدها قبل أن يواجه تلك الجبهة الخارجية ، أن يعمد أولا إلى تثبيت دعائم المجتمع الذى هو قوام الدولة وإعطائه قوة روحية واجتماعية يكون من شأنها حماية الجبهة الداخلية وصيانتها من عوامل التفتت إذا ما هبت عليها الأعاصير التى توقعها .

وأيقن النبى ﷺ ببصيرته أن حياة المسلمين فى يثرب سوف لا تمر هنيئة مريئة لا يعكر صفوها معكر ، إذا ما تركت بغير رادع أخلاقى متين ، وتنظيم اجتماعى روحى قوى ، إذ كان بين الأوس والخزرج خلافات وحزازات فرقتهم فى الماضى ومزقتهم شر ممزق ، وأقربها إلى الأذهان (وقعة بُعاث) التى قتل فيها كثير من أشراف الجانبين وسادتهم قبل ذلك بعدة سنين ، هذا من ناحية .

ثم أنه كان هناك شيء يشوب العلاقات الاجتماعية فى صفوف المسلمين ، وهو ذلك الفقر الشديد والعوز المضنى الذى أصاب معظم المهاجرين ، فقد هاجر كثير منهم وتركوا كل ما يملكون أو معظمه فى مكة ، عندئذ اقتضت الظروف السياسية والاجتماعية وروح الإسلام أن يتآخى المسلمون ، وأن يشعر كل فرد منهم أنه مكفول فى مجتمع المسملين كفالة تامة ، وأنه لا ضياع له فيه .

ثم إن هذه المشكلة لم تكن كل ما واجه النبى ﷺ فى أعقاب استقراره الأول بيثرب ، ذلك أنه كان بها قبائل يهودية قوية كان ينبغى تنظيم علاقة المسلمين بها ، فعمد النبى ﷺ إلى عقد المحالفات بين المهاجرين والأنصار واليهود ، وكتب بذلك صحيفة حققت تكافلا اجتماعيًا رائعًا بين سكان جميع المدينة ، وجعلت من المسلمين

أمة واحدة ، وقررت لليهود الذين يسالمون المسلمون كامل الحرية فى العبادات والمعاملات ، طالما حافظوا على البنود الواردة فيها .

وسارت حياة المسلمين آمنة مستقرة ، واستحكم أمر الإسلام ، وفرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود شيئًا بعد شيء ، وفرض الحلال والحرام ، وآذنت الأحداث بأن يتحول الإسلام ليصبح دينا ودولة لها شرائعها وقوانينها ، بعد أن ظل طوال ثلاثة عشر عاما ، دينا بلا وطن ، وشعبًا بلا دولة .

وانتصرت المبادئ التى نادى بها محمد ﷺ وأخذت جحافل البغى والظلام تتراجع رويداً رويداً أمام هذا النور الباهر الذى أشرق فى صحراء العرب .

ولكن ، هل تمضى حياة هؤلاء التقاة الورعين هانئة وادعة لا يعكر صفوها معكر ؟ كلا ، إذ كيف يتأتى ذلك وهناك فى الداخل ، بين ظهرانيهم ، وإلى جوارهم ، جماعات من اليهود العتاة المتعصبين الذى أنكروا بداهة صحة نبوة محمد ﷺ فإنهم وإن كانوا قد حالفوا محمداً وعاهدوه وعاهدوا المسلمين ، فإن ذلك لم يكن إلا لغرض فى أنفسهم : مهلة يتدبرون فيها أمرهم ، ويعدون فيها كيدهم ، حتى تحين الفرصة السانحة للانقضاض على المسلمين والقضاء عليهم ، وحتى تأتى هذه الفرصة ، فإن الفتنة والجدل والتشكيك كانت صواعق وحروبًا يشنونها حامية الوطيس على الإسلام ونبى الإسلام .

ثم هناك فى الخارج قريش التى عارضته أشد معارضة ، وانتهى صراعه معها باضطرار المسلمين إلى الهجرة .

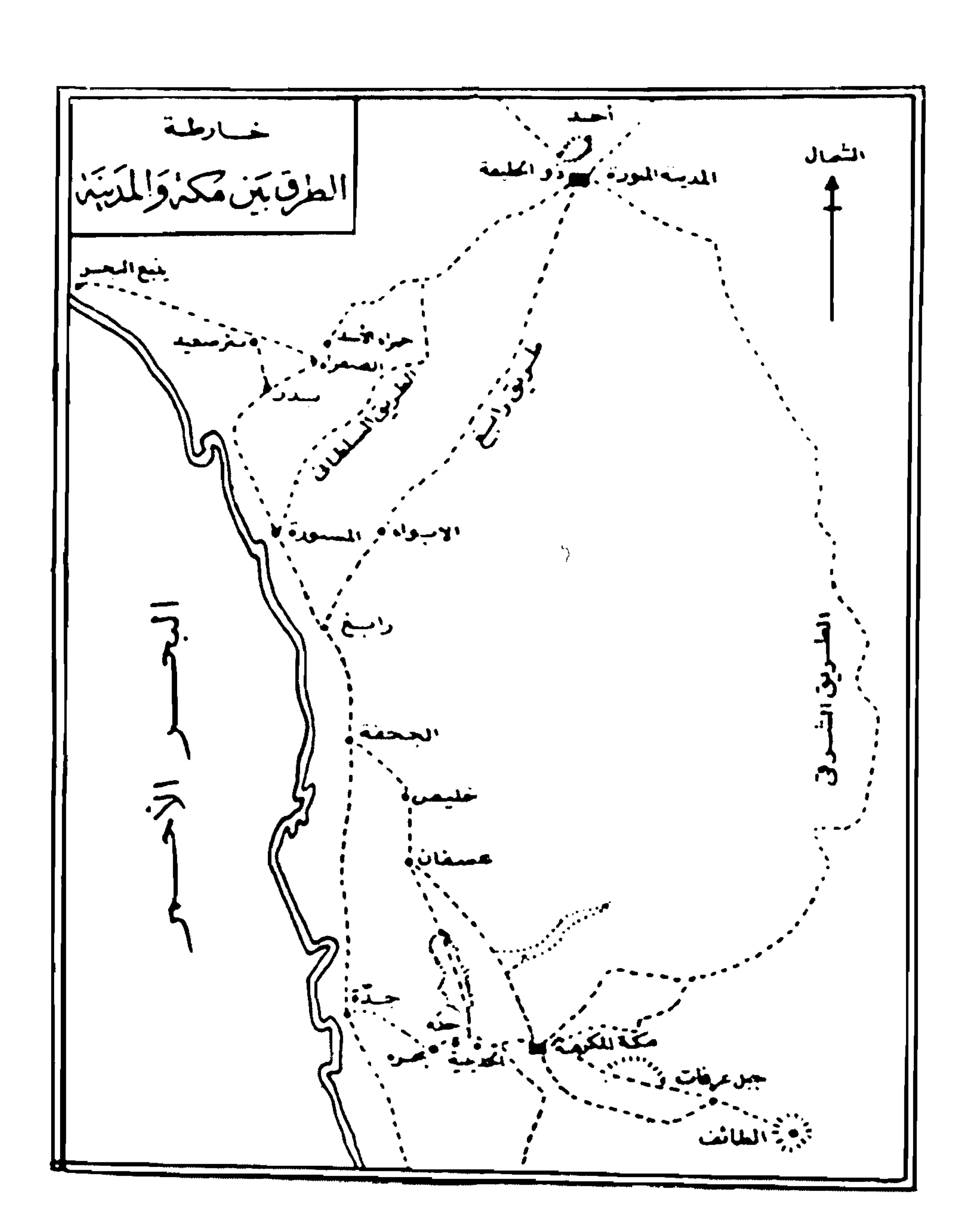
لذا فإنه لم تكد تمضى عدة أشهر على استقرار المسلمين فى يثرب ، حتى بدأ محمد ﷺ فى توجيه سرايا متتالية للاستطلاع والإغارة على قريش ، وتبدلت عندئذ المفاهيم التى نادى بها الإسلام فى مكة من مفاهيم سلام تام إلى مفاهيم تدعو إلى القتال ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾[١] .

---

(١) سورة النجم ، الآية : ٣١ .

الفصل الأول

أديانُ العرب قبل الإسلام



خارطة
الطرق بين مكة والمدينة
الشمال
أحد
ذو الحليفة
المدينة المنورة
ينبع البحر
حمراء الأسد
الصفراء
بدر
الطريق السلطاني
الطريق الرابع
الأبواء
المستورة
رابغ
الجحفة
خليص
عسفان
الطريق الشرقي
البحر الأحمر
جدة
مكة المكرمة
جبل عرفات
الطائف

بسم الله الرحمن الرحيم

• لمحة تاريخية :

لم يحفظ لنا التاريخ شيئا ذا غناء عن أديان العرب قبل الإسلام ، ولكن المتاح لنا من ذلك ، قد يمكننا ـ على قلته ـ من أن نصور هذا الموضوع تصويرًا أقرب إلى الحقيقة:

كان العرب بعد إسماعيل عليه السلام على بصيرة من أمرهم ، يعبدون الله على ملته وملة أبيه خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ، وهى الحنيفية التى جاء بها محمد ﷺ بعد ذلك .

فكانوا يعتقدون أن الله واحد لا شريك له ، وأنه تعالى موصوف بصفات الكمال التى أثبتها عز وجل لنفسه فى كتبه ، وجاءت على لسان رسله عليهم السلام ، وأنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[1] ، وأنه لا معبود بحق سواه ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾.

وقد آمنوا بكل ما أنزل على نبيهم من أصول ، وفروع ، وأحكام ، وكانوا يصلّون ويصومون ويحجون ويزكون ويصلون الأرحام : ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾[2] ، ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾[3] ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾[4] .

فلما طال الأمد ، وبعدوا عن زمن النبوة ، كثر فيهم الجهل ، وقلت معرفتهم بما جاءت به شريعتهم من الهدى والدين المبين ، وجروا على شهوات أنفسهم ، واتبعوا كل ناعق ، وانطلت عليهم الآراء الفاسدة ، والمذاهب الخبيثة الكاسدة ، فأدى ذلك بهم إلى

---

(١) سورة الشورى ، الآية : ١١.

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٢٥ .

(٣) سورة الحج ، الآية : ٢٦ .

(٤) سورة إبراهيم ، الآية : ٤٠ .

أن عبدوا ما أحبوا ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام غيرهما ، فعبدوا الأوثان ، ورجعوا إلى كانت عليه الأمم من قبلهم ، حتى افترقت كلمتهم كل الافتراق ، فانقسمت العرب فى التعبد إلى أقسام ، وافترقوا إلى أصناف حسبما أدت بهم الوساوس والأوهام .

إذ كان هناك الموحدون من العرب[1]:

وهم من عبد الله تعالى على ملة إبراهيم وإسماعيل ، وقرأوا الكتب السماوية النصرانية منها واليهودية ، وبعض هؤلاء الموحدين كانوا من ولد إسماعيل الذين نزحوا عن مكة وتفرقوا فى الحجاز بعد استيلاء جرهم على البيت الحرام وتوليهم أمر هذا البلد الأمين (مكة) .

وكان البعض الآخر من غيرهم الذين تأثروا بهم ونسجوا على منوالهم فى العبادة: وهؤلاء وأولئك كان يطلق عليهم اسم الحنفاء ـ نسبة إلى الحنيفية التى هى ملة الخليل عليه السلام ـ وقد ظلوا موجودين حتى بُعث النبى ﷺ ومنهم على سبيل المثال : قس بن ساعدة ، وزيد بن نفيل ، وأمية بن الصلت وورقة بن نوفل.

وقد جاء فى سيرة النبى ﷺ وغيرها أن ورقة قد استمع إلى النبى ﷺ حديث نزول الوحى عليه ، ومسح على يافوخه ، وقال له : هذا هو الناموس الذى نزل على موسى ، وسيخرجك قومك ، ولو كنت حيا أنذاك لنصرتك نصراً مؤزراً .

وأما أمية فإنه قد شهد هو الآخر بواكير الدعوة الإسلامية لكنه صُرف عنها ولم يدخل تحت لوائها ، لا لأنه كان يرى أنها غير صادقة ، ولكن لأنه كان يتطلع أن يكون هو النبى ، فلما فاته ذلك حسد الرسول ﷺ وناوأه حتى مات على الضلال والكفر .

على أن هؤلاء الحنفاء مختلف فيهم : أكانوا يعبدون الله على ملة إبراهيم عليه السلام ؟ أم كانوا نصارى يعبدونه على شريعة عيسى عليه السلام ؟

---

(١) راجع : بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب للألوسى (١٩٦/٢).

لكن من الثابت أن الموحدين من العرب انقسموا إلى فريقين : فمنهم من بقى على أصل التوحيد ـ وهم كثر ـ ومنهم من اتبع من بقيت شريعته .

فانتشرت اليهودية فى بلاد العرب قبل الإسلام ، ولا سيما فى اليمن ، كما انتشرت فى وادى القرى ، وخيبر ، وتيماء ، ويثرب حيث أقامت قبائل بنى قريظة وبنى النضير ، وبنى قينقاع .

كذلك انتشرت المسيحية فى قبائل تغلب وغسان وقضاعة وبلاد اليمن .

على أن هؤلاء وأولئك لم يكونوا إلا عددا معلوما فى كل عصر ، إلى زمن البعثة المحمدية .

وكان هناك عبدة الأصنام[1]:

وهم الذين أقروا بالخالق وابتداء الخلق : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[2]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[3].

وقد أنكر الجمهور منهم البعث والحشر والصراط المستقيم والميزان وغيرها ، ومنهم من كان يؤمن به على صورة قريبة أو بعيدة مما جاء به الإسلام .

وهؤلاء وأولئك كانوا يفرقون بين الألوهية والربوبية :

فبالنسبة للأولى : فإنه لا مانع لديهم من المشاركة فيها ، وكانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام أن يكونوا شفعاء ووسطاء ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[4].

وبالنسبة للربوبية : فإنهم كانوا يقصرونها على الله وحده ، ولهذا فإن آلهتهم

---

(١) راجع : كتاب الأصنام للكلبى (ص ٦).
(٢) سورة الزمر ، الآية : ٣٨ .
(٣) سورة لقمان ، الآية : ٢٥ .
(٤) سورة الزمر ، الآية : ٣ .

التى كانوا يلجأون إليها ويرجون النفع والضر منها كثيرة ، بعضها أرضى كالشجر والحجر ، وبعضها سماوى كالشمس والقمر[1] .

أما الرب : وهو البارئ الخالق المصور ، فهو واحد ، ولا يمكن عندهم الشركة فيه .

وكان أول من اتخذ الأصنام من ولد إسماعيل وغيرهم من الناس وسموها بأسمائها على ما بقى فيهم من ذكرها حين فارقوا دين إسماعيل : هذيل بن مدركة .

ويقال : إن الذى نقل الوثنية إلى بلاد العرب هو عمرو بن لحى الخزاعى ، إذ مرض مرضًا شديداً ، فقيل له : ان بالبلقاء من الشام حمة ، ان أتيتها برئت ، فأتاها فاستحم بها ، فبرأ ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : نستقى بها المطر، ونستنصر بها على العدو ؛ فسألهم أن يعطوه منها ، فنقلها فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة[2].

وكان لقريش أصنام فى جوف الكعبة وحولها ، وكان هُبل أعظمها شأنًا ، فقيل : إنه كان حول الكعبة ثلثمائة وستون صنما .

فانتشرت عبادة الأصنام فى أنحاء الجزيرة العربية على شكل بيوت ، وأحجار مصورة وغير مصورة ، وكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص بأهلها[3] فلخولان صنم اسمه (غم أنس) ولمالك صنم اسمه (سعد) وكانت (العزى) لقريش وكنانة ، و (اللات) للطائف ، (ومناة) ليثرب : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴾[4] وكان لدوس وخثعم وبجيلة صنم اسمه : (ذو الخلصة) ولقبائل طيئ ومن يليها صنم اسمع (الفلس)[5] ولقبائل بكر بن وائل صنم اسمه (ذو الكعبات)[6].

(١) الأصنام للكلبى (ص ٩).

(٢) الأصنام للكلبى (ص ١١).

(٣) السيرة النبوية : لابن هشام (١/ ٧٥).

(٤) سورة النجم ، الآيتان : ١٩ ، ٢٠.

(٥) الأصنام : الكلبى (ص ١٥).

(٦) عصر النبى ﷺ وبيئته قبل البعثة ـ دروزة (ص ٥٥٥).

وقد جاء فى القرآن الكريم اسماء خمسة معبودات ، ذُكرت فى سورة نوح : ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾[١] ، وكانت هناك صلات وثيقة بين العرب قبل البعثة ، وبين هذه الأصنام من حيث التسمية بعبوديتها واتخاذ مسميات لها معبودات معًا .

إذ ذكرت الروايات[٢]: أن قبيلة كلب بدومة الجندل اتخذت (ودا) واتخذت رهاط من أرض ينبع (سواعا) واتخذت مذجح وأهل جرش (يغوث) واتخذت خَيْوان (يعوق) واتخذت حمير (نَسرا) .

وكان هناك من العرب من يعبد الشمس[٣]: إذ زعموا أنها مَلَك من الملائكة ، وأنها أصل نور القمر والكواكب ، وتكون الموجودات السفلية كلها عندهم منها .

وطائفة عبدت القمر[٤] **واتخذته صنما :** وزعموا أنه يستحق التعظيم والعبادة ، وإليه تدبير هذا العالم السفلى ، فاتخذت له صنما يعبدونه من دون الله ويسجدون له ويصومون له أيامًا معلومة من كل شهر .

كما كان منهم من أقام هياكل وأصنامًا لكل الكواكب واعتقدوا أنها آلهة معبودة : ﴿ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[٥].

وكان هناك صنف من العرب دهريون : وهؤلاء عطلوا المصنوعات عن صانعها وقالوا : ﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾[٦].

وصنف من العرب يصبون إلى الصابئة : وهم من يعتقدون فى الأنواء ، حتى لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر إلا بنوء .

---

(١) سورة نوح ، الآية : ٢٣.

(٢) انظر : تفاسير سورة نوح فى القرآن الكريم ، كتاب الأصنام للكلبى (ص ٩) ، السيرة النبوية لابن هشام (٥٧٧/١)

(٣) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ـ الألوسى (٢١٥/٢).

(٤) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ـ الألوسى (١٦/٢).

(٥) سورة فصلت ، الآية : ٣٧ .

(٦) سورة الجاثية ، الآية : ٢٤ .

وكان هناك الصابئة : وهم الذين ذكرهم القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1]، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[2].

وكان هناك العرب الزنادقة : وهم طائفة من قريش أخذوها عن الحيرة[3] **وآخرون عبدوا الملائكة أو الجن ، أو النار** .

(١) سورة البقرة ، الآية ٦٢ .

(٢) سورة الحج ، الآية ١٧ .

(٣) راجع بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ـ الألوسى (١٨/٢).

• دولة الإسلام الأولى والوثنيين :

احتلت علاقة الدولة الإسلامية الأولى بالوثنيين فى شبه الجزيرة العربية ـ بلا ريب ـ مكان الصدارة لدى النبى ﷺ والفئة المؤمنة بالمدينة ، أرض تلك الدولة الإسلامية الناشئة ، وكانت تلك العلاقة هم المسلمين الأول .

فشبه الجزيرة العربية تضم بين جنباتها (مكة) ، الموطن الأول للدعوة الإسلامية، فيها ولد الرسول ﷺ وعلى أرضها خطا ، وهى منزل الوحى ، ومشرق النور ، كما هى كذلك موطن الشرك ، ومعقل الوثنية .

وكان المشركون فى مكة حانقين لهجرة النبى ﷺ وأصحابه وكانوا يتحينون الفرصة لاستئصال شأفتهم وتخضيض شوكتهم ، وجعلهم أحاديث وتمزيقهم كل ممزق .

وكانت القبائل الضاربة فى شبه الجزيرة العربية على مثل ما كان عليه مشركوا مكة فى محمد وأصحابه .

وقد كانت المواجهة بين الدعوة المحمدية والوثنية تمثل المعركة الأساسية التى انبنى عليها فيما بعد كل المعارك التى خاضتها الدعوة ، إذ يمثل أحد طرفيها الحق ويمثل الباطل الطرف الآخر ، فهى معركة بين دولة الإيمان ، ودولة الكفر .

فأهل مكة عاكفون منذ عهد سحيق على عبادة الأوثان ، متخذون من اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى آلهة ، سكنوا إليها واطمأنوا بها .

وكانت لهم تقاليد جامدة غير قابلة للتطور بحال من الأحوال ، لأنها تقاليد موروثة عن الآباء والأجداد ، لها فى نفوسهم قداسة ترفض أن تمس ، فهى غير قابلة للتغيير أو التبديل ، بل تصبح بعد ذلك جزءاً من شرفهم ومروءتهم .

حقيقة أن دعوة الإسلام ليست قاصرة على مكة ، وأن مهمة النبى ﷺ لم تكن تنحصر فى إقامة دولة ، وتأسيس مجتمع فوق أرض مكة أو الجزيرة العربية وحدها ، إنما هى دعوة عامة شاملة ، تهدف إلى خير البشرية والإنسانية فى كل زمان ومكان ، لكن عرب مكة وشبه الجزيرة العربية كانوا هم أول من واجه الدعوة الجديدة ، وتربصوا بها الدوائر ، ولاقى النبى ﷺ من عنتهم وبطشهم وجبروتهم ما تنوء عن حمله الجبال .

وقد أقام النبى ﷺ بمكة بعد نبوته بضع سنين يبشر وينذر بدين الله ، وبعد ثلاثة عشر عاما من التجربة القاسية ، والابتلاء المرير ، بات مؤكداً أن أمل الدعوة فى مكة ليس إلا سرابا ، وأن مكة لا تصلح بحال من الأحوال أن تكون نقطة انطلاق للدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، وأن الهجرة من مكة أصبحت ضرورة ملحة ، وحتما مقضيا لا مفر منه ، ولا مندوحة عنه ، إلى أن أذن له ربه بالهجرة .

فلما استقر النبى ﷺ بالمدينة ، وأيده الله سبحانه وتعالى بنصره ، وبعباده المؤمنين ، وألف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التى كانت بينهم ، منعته أنصار الله ، وكتيبة الإسلام : (الأوس والخزرج) من الأسود والأحمر وبذلوا أنفسهم دونه ، وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج ، وكان أولى بهم من أنفسهم ، أسس رسول الله ﷺ دولة الإسلام الأولى بالمدينة فعادته العرب والعجم واليهود ، وشمروا له عن ساق العداوة والمحاربة ، وصاحوا بالمسلمين من كل جانب ، حتى كان المسلمون لا يبيتون إلا فى السلاح ولا يصبحون إلا فيه .

وفى المدينة برز طور الدولة ، وتبدل حال الفئة المؤمنة ، من فئة قليلة مستضعفة فى الأرض ، تعيش فى فزع وروع ، خشية أن تتخطفها فئة الباطل القوية ، إلى جبهة قوية آمنة مطمئنة ، تملك إرادتها ، وقد استقر إيمانها فى أعماقها ، ورسخت عقيدتها ، واستعد رجالها للموت فى سبيل حمايتها ، والذود عنها ، وتأمين الدعوة ، بالاتجاه إلى إرهاب العدو ، ببناء القوة العسكرية ، وعقد المحالفات مع القبائل المجاورة للمدينة، كما وادع اليهود ، وجهز السرايا ، فكانت أول سرية لعمه حمزة بن عبد المطلب فى اعتراض عير قريش عند سيف البحر ، وبعث البعوث ، وكتب الكتب ، وأبرم المعاهدات .

ولم يشرع القتال فى الإسلام ليكون أساس العلاقة بين المسلمين وغيرهم ، بل كان السلم فى الإسلام هو القاعدة ، والحرب هى الاستثناء .

ولم يعدل النبى ﷺ عن السلم إلى الحرب إلا لأنه لم يكن مقدوراً له فى هذه الظروف أن يكون الصلح هو أول خطوة له على الطريق ، فإن المشركين فى مكة قد كانوا من الغيظ والحنق على محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه بحيث لا يمكن التفاهم معهم ، ولا الالتقاء وإياهم .

بجانب هذا فإن الشرط الذى كان مشركو مكة لا يقبلون غيره هو : أن يعدل الرسول صلوات الله وسلامه عليه ومعه أصحابه عن الإسلام إلى الشرك والوثنية ، وهيهات هيهات ، فليس إلى قبول هذا من سبيل ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا ﴾[1].

وقد مر جهاد النبى (صلى الله عليه وسلم) باطوار ثلاثة :

أولها : طور الدفاع عن العقيدة :

ويبدأ هذا الطور من مرحلة إرسال النبى ﷺ سراياه وقواته للقتال .

وينتهى بمرحلة انسحاب الأحزاب من المدينة بعد غزوة الخندق .

ويهذا الدور ازداد عدد المسلمين ، فاستطاعوا الدفاع عن عقيدتهم ضد أعدائهم الأقوياء .

ثانيها : طور الهجوم :

وهى المرحلة التى تبدأ من بعد غزو الخندق وتنتهى بانتهاء غزوة حنين .

وآخرها : من بعد غزوة حنين إلى أن التحق الرسول ﷺ بالرفييق الأعلى .

وهو ما يمكن أن يسمى : (طور التكامل) إذ تكاملت قوة المسلمين بهذا الدور فكانت غزوة تبوك بشيراً بمولد الدولة الإسلامية الكبرى .

ويذكر الرواة أن عدد مغازى رسول الله ﷺ التى غزا فيها بنفسه سبعا وعشرين غزوة[1].

وعند الطبرى : أنها ست وعشرون غزوة ، على اعتبار أن غزوة النبى ﷺ خيبر ، وغزوته من خيبر إلى وادى القرى غزوة واحدة[2].

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٨٩ ، وقد وردت الآية فى سياق إخبار القرآن الكريم عن قصة النبى شعيب عليه السلام الذى أرسله الله تعالى إلى أهل مدين ، وذلك بعد قوله تعالى : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ﴾ صفوة التفاسير الآية ٨٨ من سورة الأعراف .

كما يذكر الرواة أنه قد كان ما قاتل فيه النبى ﷺ من المغازى تسع غزوات هى : بدر القتال ، وأحد ، والمريسيع ، والخندق ، وقريظة ، وخيبر ، وفتح مكة ، وحنين ، والطائف .

ويقال : أنه قد قاتل أيضًا فى بنى النضير ، ولكن الله جعلها له نفلا خاصة[٣] وقاتل فى وداى القرى منصرفه من خيبر ، وقُتل بعض أصحابه[٤]، وقاتل فى الغابة[٥] وهى غزاة ذى قرد[٦].

وقال ابن عقبة : قاتل فى ثمانى مواطن ، وأهمل عد قريظة لأنه ضمها إلى الخندق ، لكونها كانت فى أثرها ، وأفردها غيره ، لوقوعها منفردة بعد هزيمة الأحزاب[٧].

وكذا وقع لغيره ، عد الطائف وحنينا واحدة لكونها كانت فى أثرها .

وروى مسلم عن بريدة بن الحصيب قال :

« قاتل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فى ثمانى غزوات »[٨].

قال النووى : لعل بريدة أسقط غزوة الفتح ، ويكون مذهبه أنها فتحت صلحا[٩].

والغزوات الكبار الأمهات : بدر ، وأحد ، والخندق ، وخيبر ، والفتح ، وحنين ، وتبوك .

وفى شأن هذه الغزوات نزل القرآن الكريم .

ففى بدر : كثير من سورة الأنفال .

---

(١) راجع : الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/٥) .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : الطبرى (٤/١٧٥٧).

(٣) تاريخ الرسل والملوك - الطبرى (٤/١٧٥٨).

(٤) نفس المسدر السابق (٤/١٧٥٨).

(٥) الغابة : موضع ناحية المدينة من ناحية الشام ، فيه أموال لأهل المدينة (٤/١٨٣).

(٦) معجم البلدان - ياقوت الحموى (٤/١٨٤).

(٧) تاريخ الرسل والملوك للطبرى (٤/١٧٥٨).

(٨) صحيح مسلم ، باب الجهاد والسير (٥/٢٠٠).

(٩) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد (للصالحى) (٤/١٧).

وفى أحد : آخر سورة آل عمران ، من قوله تعالى : { وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال) إلى : قبيل آخرها بيسير .

وفى قصة الخندق وقريظة : صدر سورة الأحزاب .

وفى بنى النضير : سورة الحشر[1] .

وفى قصة الحديبية وخيبر : سورة الفتح ، وقد أشير فيها إلى الفتح الأعظم (فتح مكة) .

وتبوك : فى سورة براءة .

وقد جُرح رسول الله ﷺ فى غزوة أحد وحدها .

فكان الفتح فى زوتين : بدر وحنين .

وقاتل بالمنجنيق فى غزوة واحدة : هى غزوة الأحزاب بإشارة سلمان الفارسى[2] .

وقد كان لغزوات النبى ﷺ وسرايا الدعوة الإسلامية ، أعظم الأثر فى مسيرة تلك الدعوة المباركة وبناء مستقبلها ، ونشر عقيدة التوحيد ، إذ أرسل النبى ﷺ عيونه لاستجلاء أنباء المشركين فى مكة وبعث سراياه لاختبار قوتهم ، وخرج هو إلى القبائل الضاربة على الطريق بينه وبين أعدائه فهادنهم ، وحالفهم .

ونظر فى العير ، وهى القوافل التى كانت تحمل تجارة المشركين فى كل عام إلى اليمن والشام ، فعقد الخناصر على مهاجمتها ، وأخْذ ما يمكن أخذه منها ، وذلك لتعويض ما أخذ منه هو وأصحابه ، كذا تعويق المشركين عن التهيئ للحرب والاستعداد للقتال .

فأثبت المسلمون أنهم أقوياء يستطيعون الدفاع عن أنفسهم تجاه المشركين من قريش والقبائل المجاورة ، وأهل المدينة ، وتجاه اليهود ، وأن بإمكانهم الدفاع عن عقيدتهم عند الحاجة .

كما كان لذلك اسوأ الأثر على تجارة قريش التى تعيش عليها ، مما هدد مكة بالحصار الاقتصادى ، بمحاولة حرمانها من سلوك طرقها التجارية بأمان .

---

(١) صفوة التفاسير : الصابونى .

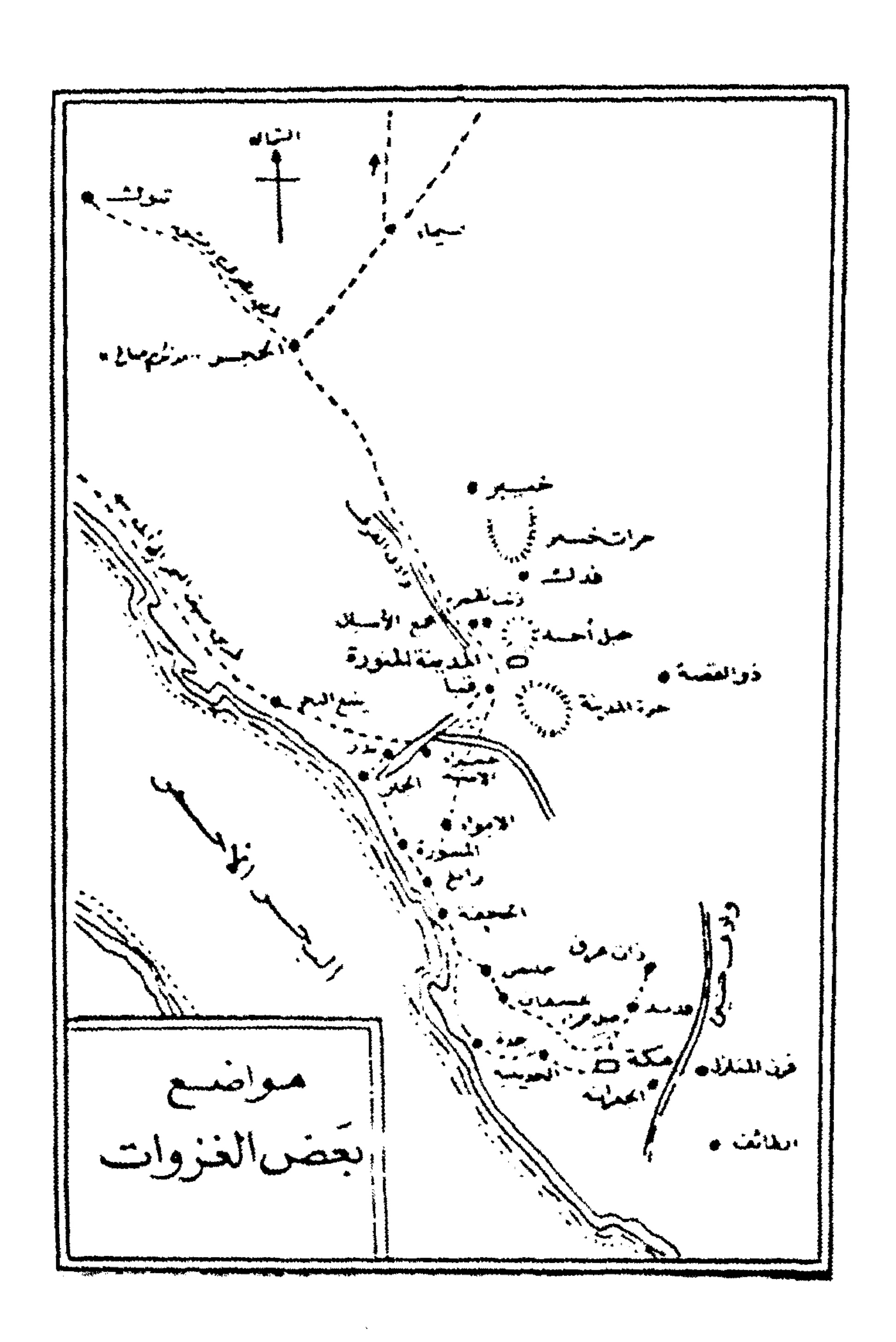
(٢) راجع : باب الجهاد والسير صحيح البخارى ، الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/٤٤) ، سبيل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد (الصالحى) (٤/٣٠٣).

قـريش والقبـائل المجـاورة ، وأهل المـدينة ، وتجـاه اليـهـود ، وأن بإمكانـهم الدفـاع عن عقيدتهم عند الحاجة .

كـمـا كـان لذلك اسـوأ الأثر على تجـارة قـريش التى تعـيش عليـهـا ، مما هدد مكة بالحصار الاقتصادى ، بمحاولة حرمانها من سلوك طرقها التجارية بأمان .



إنتشار الإسلام
في عهد النبي صلى الله عليه وسلم
البحر الأبيض
دمشق
بصرى
القدس
مؤتة
معان
قادسية
عين التمر
مدائن
أهواز
الحيرة
دومة الجندل
المدينة
مكة
حضرموت
البحر العربي
بلاد الحبشة



مواضع
بعض الغزوات
خيبر
فدك
المدينة المنورة
ذو القصة
قباء
مكة
الطائف

• أولى سرايا الدعوة الإسلامية :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [١].

بعد أن استقر المهاجرون فى المدينة وتوطدت أوضاع المسلمين عامة ، واستتب لهم الأمر ، وأمنوا على أنفسهم ، ونزلت الآية الكريمة ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾[٢] عندئذ بدأ القتال ، وقد سميت تلك الفرق المقاتلة بالسرايا ، وسميت تلك التى خرج النبى ﷺ بنفسه على رأسها : غزوات .

ولقد بدأت هذه السرايا والغزوات التصدى للمشركين حول المدينة بعد ستة أشهر من مقام المهاجرين بالمدينة ، ثم توالت ضد مشركى العرب ، ثم ضد اليهود والنصارى، ثم إلى خارج الجزيرة العربية ، بدأت بارسال سرايا للاستطلاع وجس النبض ، أو للإغارة إن أمكن ، أو لاعتراض قوافل قريش فى ذهابها للشام ، وفى إيابها منه .

ثم أن هذه السرايا الأولى التى لم يخرج فيها أحد من الأنصار ، ولم يستكره فيها أحد على الخروج، ربما تحمل معنى له مغزاه ، وهو ترويض الأنصار على فكرة الحرب ، وعلى أن بيعة العقبة الثانية التى عاهدوا فيها النبى ﷺ على حرب الأحمر والأسود من الناس ، وما عاهدهم عليه يومئذ إذ يقول : « بل الدم الدم ، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم »[٣] ، هذه البيعة ، قد تنقلب الآن هجوما على أهل مكة لانتزاع الكعبة - بيتهم المحجوج - منهم ، وهى موضع ركن من أركان الدين لا ينبغى أن تظل فى أيدى المشركين يدنسونه بأصنامهم ، وإن كان الحج لم يفرض بعد[٤].

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١١١.

(٢) سورة الحج ، الآيتان : ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) امتاع الأسماع - للمقريزى : (١/ ٥٥) .

(٤) فرض الحج فى السنة السادسة للهجرة على ما اختار جمهور العلماء ، لأنه نزل فيه قوله تعالى : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ وهذا مبنى على أن الاتمام يراد به ابتداء الفرض ، ورجح ابن القيم أن يكون افتراض الحج كان سنة تسع أو عشر .

فكانت سرية حمزة بن عبد المطلب بن هاشم ، عم النبى ﷺ أول لواء عقد رسول الله ﷺ على رأس سبعة أشهر[1] من الهجرة ، بقيادة عمه حمزة ، وبذلك تكون أول مواجهة للنبى ﷺ مع الجبهة الخارجية .

وعند ابن إسحاق : أن سرية عبيدة بن الحارث هى أول راية عقدها رسول الله ﷺ[2]، لواء أبيض ، كان الذى حمله أبو مرثد الغنوى حليف حمزة بن عبد المطلب.

وقد بعثه رسول الله ﷺ فى ثلاثين رجلا من المهاجرين ، لاعتراض قافلة تجارية لقريش ، قوامها ثلثمائة راكب ، بقيادة أبى جهل بن هشام .

وقد وصل المسلمون إلى ساحل البحر الأحمر ، ناحية العيص[3]، علي الطريق التجارى بين مكة والشام ، لكن مجدى بن عمرو الجهينى وقف بين الطرفين ، فعاد المسلمون بلا قتال .

ومن بعد تلك السرية إلى أن كانت غزوة الإيواء - أولى غزوات النبى ﷺ - فقد خرجت سريتان أخريان ، لملاقاة عير قريش التجارية .

أولاهما : سرية عبيدة بن الحارث - أو عكرمة بن أبى جهل[4] - إلى وادى رابغ[5]، وقد جرى فيها مناوشات ورمى بالسهام ، إذ رمى سعد بن أبى وقاص يومئذ بسهم ، فكان أول سهم رُمى فى الإسلام .

وثانيتهما : سرية سعد بن أبى وقاص إلى الخرار[6]، فى ذى القعدة سنة اثنين ، ولم يقع فيهما قتال[7].

---

(١) الطبقات الكبرى - لابن سعد (٦/١) .

(٢) راجع : السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٤٥) وتاريخ الرسل والملوك للطبرى (٤/١٧٥).

(٣) العيص : موضع فى بلاد بنى سليم ، به ماء اسمه : ذينان العيص ، من ناحية ذى المروة على البحر الأحمر ، بطريق قريش إلى الشام (معجم البلدان ، ياقوت) .

(٤) إنظر الطبقات الكبرى - لابن سعد (٧/٢).

(٥) وادى رابغ : واد يقطعه الحاج بين الجحفة وودان . (معجم البلدان : ياقوت ٢/ ٢٢٠) .

(٦) الخرار : قيل : موضع بالحجاز قرب الجحفة ، وقيل : ماء بالمدينة ، وقيل : موضع بخيبر . (معجم البلدان - ياقوت ٢/ ٣٥٠).

(٧) راجع : الطبقات الكبرى : لابن سعد (١١/٢).

وقد جعل الواقدى هذه السرايا جميعها فى السنة الأولى من الهجرة ، وجعلها محمد بن إسحاق فى السنة الثانية ، وجعل غزوة ودان بعد سرية سعد بن أبى وقاص[1].

وقد أدت تلك السرايا أغراضها فى جس قوة العدو ، وتعرف أخباره ، وتنبيه القبائل الضاربة بين مكة والمدينة إلى قوة المسلمين ، وعزمهم على الجهاد لنصرة دعوتهم .

• غزوة الابواء :

ثم كانت غزوة الأبواء ـ أو ودان[2] ـ وهى أول غزوة قادها النبى ﷺ بنفسه الكريمة ، فى صفر سنة اثنين من الهجرة . إذ خرج النبى ﷺ فى مائتى راكب وراجل لاعتراض عير لقريش[3].

ومتى علمنا أن لواء النبى ﷺ فى تلك الغزوة كان يحمله عمه حمزة بن عبد المطلب ، لأدركنا أثر تلك السرايا الأولى فى إعداد القادة والمقاتلة المسلمين ، كهدف سعى إليه النبى ﷺ ينافذ بصيرته وحنكته السياسية ، فى تربية جيل قادر على حمل أمانة الدعوة الإسلامية بكفاءة مكنت لها أن تحقق هدفها ، وهو ما كان ، فحمزة الذى قائد السرية الأولى بالأمس ، هو حامل الراية لجيش الإسلام اليوم ، وسيد الشهداء غدا فى أحد .

على أية حال : استخلف رسول الله ﷺ على المدينة عند خروجه: سعد بن عبادة[4] ووصل إلى ودان ، إلا أنه لم يلق قريشا ، بل لاقى بنى ضمرة ، وعلى رأسهم مخشى بن عمرو الضمرى[5] ـ سيد بنى ضمرة ـ وقيل : عمارة بن

---

(١) امتاع الأسماع ـ للمقريزى (١/٦٧).

(٢) ودان : قرية قريبة من الجحفة بين مكة والمدينة ، وهى لضمرة وغفار وكنانة بينها وبين الابواء ستة أميال (معجم البلدان : ياقوت الحموى ٥/ ٣٦٥).

(٣) امتاع الأسماع ـ للمقريزى (١/٦٧).

(٤) نفس المصدر السابق .

(٥) امتاع الأسماع ـ للمقريزى (١/٦٧).

مخشى[١]، فوادعه النبى ﷺ على ألا يغزو بنو ضمرة، ولا يغزوه، ولا يكثروا عليه جميعا ، ولا يعينوا عليه عدوا ، وكتب بينه وبينهم كتابا .

ثم رجع ﷺ إلى المدينة بعد خمس عشر ليلة[٢].

$ غزوة العشيرة :[٣]

ثم تلاها غزوة ذى العشيرة ، وكانت هى الأخرى بقيادة النبى ﷺ فى جمادى الآخرة على رأس سبعة أشهر من الهجرة[٤]، أو فى جمادى الأولى سنة اثنين[٥] لاعتراض عير قريش التى أبدت[٦] إلى الشام ، بقيادة أبى سفيان ابن حرب ، وذلك فى خمسين ومائة رجل من المسلمين ، وقيل : فى مائتين من المهاجرين ممن انتدب ، ولم يُكره أحدا على الخروج[٧].

فوصل النبى ﷺ إلى ذى العشيرة بينبع ، على الطريق التجارية لقريش بين مكة والشام، للتفاهم مع القبائل وإظهار قوة المسلمين للمشركين .

وقد أقام المسلمون شهراً فى العشيرة ، فوادعوا بها بنى مدلج وحلفائهم من بنى ضمرة ، ثم عادوا إلى المدينة بعد أن زرعوا الخوف والرعب فى قلوب القرشيين وأفهموهم أن محمدا وأصحابه قادرون على توهينهم والنيل منهم ، إذا هم فكروا فى الزحف إليهم ، وجمعوا الجموع لحربهم وقتالهم .

ولأن أموال قريش كلها قد كانت فى هذه القافلة ، فقد أصر النبى ﷺ على التعرض لها وهى فى طريق عودتها من الشام إلى مكة ، ولبث فى المدينة ينتظر الوقت الذى تؤوب فيه .

---

(١) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ـ الصالحى (٤/ ٢٥).

(٢) امتاع الأسماع للمقريزى (١/ ٦٧).

(٣) ذى العشيرة : موضع من ناحية ينبع بين مكة والمدينة (معجم البلدان : ياقوت الحموى ٤/ ١٢٧).

(٤) الطبقات الكبرى : ابن سعد (٢/ ٩) ، سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ـ الصالحى (٤/ ٢٩).

(٥) امتاع الأسماع ـ للمقريزى (١/ ٦٨).

(٧) ابدت : بمعنى خرجت من أرض إلى غيرها ، واللفظ للمقريزى (نفس المصدر السابق).

لذا يمكن القول بأن هذه الغزوة وثيقة الصلة بأحداث بدر ، وإن لم تكن من مسبباتها .

• غزوة بواط[1] :

وكانت تلك الغزوة بقيادة النبى ﷺ فى ربيع الأول ، على رأس ثلاثة عشر شهراً من الهجرة[2].

وكان معه ﷺ من المسلمين مائتا راكب وراجل .

وقد حمل لواءه سعد بن أبى وقاص ، وذلك لاعتراض قافلة تجارية لقريش قوامها مائة راكب وراجل ، وألفان وتسعمائة بعير ، بقيادة أمية بن خلف الجمحى .

واستعمل النبى ﷺ على المدينة سعد بن معاذ[3]، وقيل السائب بن مظعون[4].

فسار النبى ﷺ من المدينة إلى بواط ، لكن عيون قريش علمت بخروج النبى ﷺ فاسرعوا بالحركة ، وسلكوا طريقًا غير مألوفة ففات على النبى ﷺ ملاقاتهم ، فرجع بمن معه إلى المدينة بعد أن أقام المسلمون فى بواط ما يقارب الشهر ، ثم عادوا دون قتال ، لكنهم أظهروا للمشركين إصرارهم على ملاحقتهم أينما كانوا ، ومدى كفاءتهم لإطالة زمن التربص بهم ، وإدخال الرعب فى نفوسهم ، مما صعب أمر تجارة قريش ، وزعزع أمن اقتصادها وتجارتها التى هى عصب حياتهم وعماد قوتهم ، وجلَدِهم أمام وقوف المسلمين لهم بكل سبيل ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ؟

ولم تقف غزوات وسرايا الجهاد والدعوة عند هذا الحد ، بل تتالت وتلاحقت ومن ذلك :

---

(١) بواط : جبل من جبال جهينة ، بناحية رضوى (٥٠٣/١ معجم البلدان : ياقوت الحموى) .

(٢) السيرة النبوية ، ابن هشام (٢٤٨/٢).

(٣) امتاع الأسماع ـ للمقريزى : (٦٨/١) .

(٤) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٢٤٨/٢).

• غزوة سفوان[1] (أو بدر الأولى) :

وكانت فى حقيقتها مطاردة ، وهجوما مضاداً ، قاده النبى ﷺ ومعه ما يقرب من مائتى راكب ، وراجل من المسلمين ، للحاق بمعتد آثم اجترأ على الاعتداء على أموال المسلمين .

ففى جمادى الثانية سنة اثنين من الهجرة[2]، أو ربيع الأول سنة ثلاث[3]، خرج إليهم النبى ﷺ ويقال إن سفوان بعد العشيرة بنحو عشر ليال[4].

وقد كان ذلك المعتدى هو كرز بن جابر الفهرى ، الذى أغار على لقاح رسول الله ﷺ وعلى سرح المدينة ، فخرج رسول الله ﷺ يتعقبه ، فلما بلغ سفوان فاته كرز ولم يدركه ، فعاد إلى المدينة دون قتال ، وكان على لوائه على بن أبى طالب ، وخلفه على المدينة زيد بن حارثة .

ما قبل بدر :

وقعت فى الفترة التى تسبق غزوة بدر ببضعة أشهر عدة أحداث هامة أفاض فيها المؤرخون العرب ورواة السيرة النبوية الشريفة ، إذ كان لتلك الأحداث أثر لا يخفى على مسار الدعوة الإسلامية وكيانها الداخلى والخارجى ، لما حظيت به من جهاد وتشريع ، مما كان له أهميته فى مسيرة تلك الدولة الإسلامية الناشئة .

أما عن الجهاد :

فقد بعث النبى ﷺ سرية عبد الله بن جحش الأسدى ، إلى نخلة[5] فى اثنى

---

(١) سفوان : واد من ناحية بدر (معجم البلدان ـ ابن سعد ٣/ ٢٢٥).

(٢) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/ ١١).

(٣) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/ ٦٨).

(٤) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/ ٦٨).

(٥) نخلة : واد يصب باليمامة ، على بستان بن عامر ، قرب مكة (معجم البلدان ، ياقوت الحموى ٥/ ٢٧٧).

عشر رجلا من المهاجرين[1] ، وقيل : فى ثمانية رهط من المهاجرين[2] ، وكل اثنين يتعقبان بعيراً .

وكان ذلك على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة . وقد أمر رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش أن يرصد بنخلة عير قريش ، وكتب معه كتابا ، أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين من المدينة .

فلما قرأ عبد الله كتاب رسول الله ﷺ وجد فيه :

« إذا نظرت فى كتابى هذا ، فامض حتى تنزل بين نخلة والطائف ، فترصد لنا قريشا وتعلم لنا من أخبارهم » .

فلما نظر عبد الله فى الكتاب قال لأصحابه :

قد أمرنى رسول الله ﷺ أن أمضى إلى بطن نخلة ، ونهانى أن استكره أحداً منكم ، فمن كان يريد الشهادة فلينطلق معى ، ومن كره الموت فليرجع ، أما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ فمضى ، ومضى معه الثمانية وهم[3]:

أبو حذيفة بن عتبة ، وعكاشة بن محصن ، وعتبة بن غزوان ، وسعد بن أبى وقاص ، وعامر بن ربيعة ، وواقد بن عبد الله التميمى ، وسهيل بن بيضاء الفهرى ، وخالد بن البكير .

فسلك بهم عبد الله بن جحش على الحجاز ، حتى إذا بلغ بحران[4] أضل سعد ابن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما ، فتخلفا فى طلبه ، فأسرتهما قريش .

ومضى عبد الله بمن بقى حتى نزل نخلة ، فمرت بهم عير لقريش تحمل زبيبا وأدما[5] وفيها عمرو بن الحضرمى وجماعة ، فلما رآهم القوم هابوهم ، فأشرف لهم

(١) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/ ١٠) .

(٢) السيرة النبوية : ابن هشام (٢/ ٢٥٢) والتاريخ الكبير للذهبى (١/ ٨٨) .

(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٥٢) والتاريخ الكبير للذهبى (١/ ٨٩).

(٣) بحران : موضع بناحية الفرُع ، وبين الفرُع والمدينة تسعة أبرد ، وقال ابن إسحاق : هو معدن الحجاز فى٤ناحية الفرع للحجاج بن عِلاط البهرى (معجم البلدان ، ياقوت ١/ ٣٤١).

(٥) الادم : الجلد .

عكاشة بن محصن ـ وكان قد حلق رأسه ، فلما رأوه أمنوا ، وقالوا : عُمَّار ، لا بأس عليكم منهم .

وتشاور المسلمون فيهم ، وذلك فى آخر جمادى الآخرة ، فقالوا : « والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم ، فليمتنعن منكم به ، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام » وترددوا ، ثم أجمعوا على قتلهم وأخذ تجارتهم .

فرمى واقد بن عبد الله عمرو بن الحضرمى فقتله ، واستأسروا عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، وأفلت نوفل بن عبد الله[١] .

وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا المدينة ، وعزلوا خُمْس ما غنموا للنبى ﷺ وذلك قبل أن يفرض الله تعالى الخُمْس[٢] فنزل القرآن كذلك[٣] .

وأنكر النبى ﷺ قتل ابن الحضرمى ، وقال : « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » فوقف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا .

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سقط فى أيدى القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ، وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وتفاءل يهود بذلك على رسول الله ﷺ .

فلما أكثر الناس فى ذلك أنزل الله سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٢/٢٥٤) (والسيرة النبوية ، ابن كثير (٢/٢٤٩) والتاريخ الكبير ـ الذهبى (١/٩٠).

(٢) السيرة النبوية ، ابن هشام (٢/٢٥٤).

(٣) نزل فى ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ سورة الأنفال ، الآية : ٤١ .

وقد جاءت الآية فى تلك السورة بعد أن ذكر الله تعالى طرفا من غزوة بدر ، ثم جاء بعد تلك الآية السرد الجليل لبقية الأحداث الهامة فى تلك الغزوة الجليلة غزوة بدر (صفوة التفاسير) .

﴿الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾[1].

فلما نزل القرآن الكريم بهذا الأمر ، وفرج الله على المسلمين ما كانوا فيه من الشفق[2] قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين ، ففدا بهما سعد بن أبى وقاص ، وعتبة بن غزوان .

ويقال : ودى رسول الله عمرو بن الحضرمى ، والصحيح أنه لم يده [3].

ويقول الرواة : إن ما وقع فى تلك الغزوة كان أول خُمّس فى الإسلام ، وأول غنيمة، وأول قتيل ، وأول أسير كان فى الإسلام[4].

ويقال : أن النبى وقف غنائم أهل نخلة حتى رجع من بدر فقسمها مع غنائم أهل بدر ، وأعطى كل قوم حقهم ، وأنه فى هذه السرية سُمِّى عبد الله بن جحش أمير المؤمنين ، فكان أول من سمى أمير المؤمنين فى الإسلام[5].

• وأحداث أخرى :

إن أهم تلك الأحداث التى وقعت قبل بدر - كما سبق أن ألمحنا - نزول آية الخُمْس ، فى قوله : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾[6] فكان أول تشريع للخُمْس فى الإسلام .

ومن ذلك : أن أول ما نُسخ من الشريعة : تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة فى شعبان على رأس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً[7] ، إذ نزل قوله تعالى :

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢١٧ .

(٢) الشفق : الخوف .

(٣) إمتاع الأسماع - المقريزى (١/ ٧٠).

(٤) إمتاع الأسماع - المقريزى (١/ ٧٠).

(٥) نفس المصدر السابق .

(٦) سورة الأنفال : الآية ٤١ .

(٧) إمتاع الأسماع - المقريزى (١/ ٧١).



البلادُ العربيَّة
عند ظهور الإسلام
البحر الأبيض
دمشق
المدائن
الحيرة
الكوفة
البصرة
الأبلة
فدك
تبوك
تيماء
نجد
خيبر
المدينة
هوازن
كندة
اليمامة
عمان
مكة
اليمن
مأرب
صنعاء
حضرموت
عدن
البحر العربي

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾[1] فطعن اليهود فى ذلك وقالوا : ما ولاّهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ فأجابهم الله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2].

وقبل غزوة بدر كذلك ، وفى شعبان هذا ، فرض صوم رمضان وزكاة الفطر ، قبل العيد بيومين[3].

وقال ابن سعد : إن ذلك كان قبل فرض زكاة الأموال[4].

وقيل : إن الزكاة فُرضت وقتها كذلك ، وقيل : قبل الهجرة[5].

وكان المسلمون يصومون عاشوراء ، فلما فُرض صوم رمضان لم يؤمروا بصيام عاشوراء ، ولم يُنْهوا عنه .

وفى رمضان هذا من السنة الثانية للهجرة ، وقعت تلك الوقعة العظيمة التى فرق الله بها بين الحق والباطل ، وأعز بها الإسلام وأهله ، ودفع الكفر وأهله ، تلك هى غزوة بد الكبرى .

غزوة بدر العظمى[6]

يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان

وهى الوقعة العظيمة التى أعز الله تبارك وتعالى بها الإسلام ، ودفع الكفر وأهله ليحقق الله تعالى للمسلمين ما وعدهم ، من إحدى الطائفتين ، وما أخبرهم به من

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٤٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٤٢.

(٣) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (٧٢/١).

(٤) نفس المصدر السابق .

(٥) نفس المصدر السابق .

(٦) بدر : ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادى الصفراء ، بينه وبين ساحل البحر الأحمر مسيرة ليلة (راجع معجم البلدان ـ ياقوت الحموى ٨٨/٢) .

ميلهم إلى العير دون الجيش ، ومجيء المطر عند الالتقاء ، وقد كان المطر للمسلين نعمة وقوة ، وعلى الكفار بلاء ونقمة ، وإمداد الله تعالى المؤمنين بجند من السماء حتى سمعوا أصواتهم حين قالوا : (أقدم حيزوم) ورأوا الرؤوس تتساقط من الكواهل من غير قطع ولا ضرب ، وأثر السياط فى أبى جهل وغيره[١] .

وفى هذه الغزوة من دلائل النبوة الآيات الكثيرة ، والبراهين الشهيرة :

إذ رمى النبى ﷺ المشركين بالحصى والتراب حتى عمت رميته الجمع .

وتقليل الله للمشركين فى عيون المسلمين ليزيل عنهم الخوف ويشجعهم على القتال .

وإشارة المصطفى ﷺ إلى مصارع المشركين بقوله : هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان ، فرأى المسلمون ذلك على ما أشار إليه وذكره .

وقول النبى ﷺ لعقبة بن أبى معيط : « إن وجدتك خارج جبال مكة قتلتك صبرا »[٢] . فحقق الله ذلك .. إلى غير هذا من الآيات والمعجزات التى أعطاها الله تعالى لرسوله ﷺ[٣] .

على أن من الخطأ الإدعاء بأن انتصار الرسول ﷺ إنما كان بالخوارق والمعجزات فحسب ، وقائل هذا القول إنما يدلل على جهله بروح الإسلام ، تلك الروح العملية الواقعية التى تقوم على مبدأ الشجاعة والحق الواضح والعقل السليم من جهة ، وعلى الأمور الإلهية الروحية من جهة أخرى .

إذ كانت شجاعة الرسول ﷺ الشخصية بارزة فى كل معاركه التى خاضها وفى كل أعماله على حد سواء ، فالمصطفى ﷺ هو الذى أنذر وبشر وكافح ووحد أمة ، تحدوه العقيدة الراسخة ، والإيمان القوى ، والهدف الواضح الذى كان يسعى إليه ، من

---

(١) انظر : سبل الهدى والرشاد ـ الصالحى (٤/٠) وإمتاع الأسماع ـ المقريزى (٧٢/١) وتاريخ الطبرى (١٣٢٨/٢).

(٢) قتله صبرا : حبسه حتى مات . (المعجم الوسيط ٥٠٦/١).

(٣) راجع : إمتاع الأسماع ـ للمقريزى (٧٢/١).

إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾[١] كل ذلك فى مواجهة من لا عقيدة لهم إلا أهواء الجاهلية ، وعصبية الأنانية ، وحب الفخر والظهور .

وقد أظهر النبى ﷺ كفاءة واقتدار فى مواجهة أعدائه وقيادة جنده ، لما يتمتع به من حنكة سياسية نادرة وعبقرية فذة .

إذ كان النبى ﷺ شجاعًا مقدامًا ثابتا لا يبرح ، مقبلا لا يُدبر ، صاحب صولة ونجدة ، أول من يقتحم الصفوف ، وآخر من يرتد عن ميدان القتال .

وفى رمضان من السنة الثانية للهجرة تحين النبى ﷺ انصراف العير التى خرج من أجلها إلى العشيرة وإقبالها من الشام بصحبة أبى سفيان بن حرب ، وعمرو بن العاص ، ومخرمة بن نوفل[٢] وكانت نحو ألف بعير ، فيها أموال عظام ولم يبق بمكة قرشى ولا قرشية له مثقال فصاعداً إلا بعث به فى العير ، إلا حويطب بن عبد العزى ، فلهذا تخلف عن بدر[٣] ، فيقال : إنها كانت خمسين ألف دينار ، وسبعين رجلا[٤]. وقيل : كانوا نحو أربعين رجلا[٥]. وقيل : ثلاثة وأربعون رجلا[٦] وقيل : ثلاثون رجلا[٧].

فندب النبى ﷺ أصحابه للخروج إلى العير ، وأمر من كان ظهره[٨] حاضرا بالنهوض ، ولم يحفل لها احتفالا كبيراً[٩] ، وقال : هذه عير قريش فيها أموالهم ،

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٥٢ .
(٢) تاريخ ابن خلدون (٢/١٩٤).
(٣) البداية والنهاية - ابن كثير (٣/٢٥٥).
(٤) سبل الهدى والرشاد - الصالحى (٢/١٩٤).
(٥) زاد المعاد - ابن القيم الجوزى (٢/٨٥).
(٦) سيرة النبى - ابن إسحاق (١/٨٦) .
(٧) تاريخ ابن خلدون (٢/١٩٤).
(٨) الظهر : ما يركب .
(٩) إمتاع الأسماع - المقريزى (١/٧٣).

فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكوها »[1] فخف بعضهم وثقل بعض ، وذلك أنهم ظنوا أن النبى ﷺ لن يلق حربا[2].

وكان النبى ﷺ قد بعث طلحة بن عبيد الله القرشى التميمى وسعيد بن زيد القرشى العدوى[3] قبل خروجه لتلك الغزوة بأربعة أيام أو عشرا[4] يتحسسانِ الأخبار فنزلا على أرض الحوراء[5] على كشد الجهنى ، فأجارهما وكتم عليهما حتى مرت العير فعادا إلى المدينة ليخبرا النبى ﷺ فوجداه قد خرج بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ولم يكن قد غزا بأحد من الأنصار قبل ذلك[6].

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار ويسأل من لقى من الركبان تخوفا على أموال الناس ، حتى أصاب خبرا من بعض الركبان أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك ، فأخذ حذره عندئذ ، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتى قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها فى أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة بذلك ، وأخبرهم الخبر فنهض أهل مكة مسرعين ، وأوعبوا فى الخروج فلم يتخلف من أشرافهم أحد ، سوى أبى لهب ، فإنه عوض عنه رجلا كان له عليه دين ، وحشدوا مَنْ حولهم من قبائل العرب ، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بنى عدى ، فلم يخرج منهم أحد .

خرجت قريش فى تسعمائة وخمسين مقاتلا معهم مائتا فرس يقودونها ، ومعهم القيان يضربن بالدفوف ، ويغنين بهجاء المسلمين[7] .

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٢٦/٣) والسيرة النبوية ـ ابن هشام (٢٥٧/٢).

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) إمتاع الأسماع للمقريزى (٧٣/١).

(٤) نفس المصدر السابق .

(٥) الحوراء مرفأ سفن مصر إلى المدينة ، وفى قول الأصمعى : ماء لبنى نبهان من طيئ (معجم البلدان ـ ياقوت الحموى ٣١٦/٢).

(٦) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (٧٣/١).

(٧) البداية والنهاية : ابن كثير (٢٥٩/٣).

وقيل : كان من المشركين ستون فرسا ، وستمائة درع [١].

فخرج النبى صلى الله عليه وسلم مسرعا فى ثلثمائة وبضعة عشر رجلا ، لم يكن معهم من الخيل إلا فرسان : فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود الكندى.

وكان معه سبعون بعيرا ، يتعاقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد ، فكان الرسول ﷺ وعلى بن أبى طالب ، ومرثد بن أبى مرثد الغنوى يتعقبون بعيرا ؛ وكان عليه درعه : ذات الفضول ، وتوشح بسيف أهداه له سعد ابن عبادة ، يقال له : العضْب، وقيل : كان معه ستون درعا[٢].

واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم ، فلما كان بالروحاء رد أبا لبابة ابن عبد المنذر ، واستعمله على المدينة .

ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، والراية الواحدة إلى على بن أبى طالب والأخرى التى للأنصار إلى سعد بن معاذ ، وجعل على الساقة قيس بن أبى صعصعة[٣].

وسار رسول الله ﷺ فى أصحابه لاثنتى عشر ليلة خلت من شهر رمضان[٤]، وقيل : لثمان ليال خلون من شهر رمضان[٥]، فسلك طريقا من المدينة إلى مكة على نقب المدينة ، ثم على العقيق ، ثم على ذى الحليفة ، ثم على أولات الجيش[٦].

فلما قرب من الصفراء[٧]، بعث بسيس بن عمرو الجهنى ، وعدى بن الرعباء إلى بدر يتحسسان الأخبار فمضيا حتى نزلا بدراً ، فأناخا إلى تل قريب من الماء ثم أخذا شنا[٨] لهما يستقيان فيه ، ومجدى بن عمرو الجهنى على الماء .

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٢/ ٢٦٠).

(٤) راجع سبل الهدى والرشاد ـ الصالحى (٣٨/٤) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (٧٣/١).

(٥) زاد المعاد ـ الجوزى (٢/ ٨٥).

(٦) السيرة النبوية : ابن هشام ٢٦٤/٢.

(٧) الصفراء : واد قريب من المدينة (معجم البلدان ـ ياقوت ٩٦/٥) .

(٨) الشن : قبة الماء .

فسمع عدى وبسيس جاريتين تختصمان على الماء ، تقول أحداهما لصاحبتها : إنما تأتى العير غدا أو بعد غد ، فأعمل لهم ، ثم أقضيك الذى لك .

قال مجدى : صدقت ثم خلص بينهما .

وسمع ذلك عدى وبسيس ، فجلسا على بعيريهما ، ثم انطلقا حتى أتيا رسول اللهﷺ فأخبراه بما سمعا[١].

وجاء أبو سفيان بعدهما يتحسس الخبر ، فقال لمجدى : هل أحسست أحدا ؟ فأجابه : لم أر إلا راكبين أناخا إلى هذا التل ـ وأشار إلى حيث أناخ الرجلين المسلمين ـ فحص أبو سفيان روث بعيرهما ، فوجد فيه نوى عرفه فى علائف يثرب ، فأدرك أن الرجلين من أصحاب محمد ، وأن جيشه منه قريب ، فعاد إلى القافلة ليغير طريقها نحو الساحل ، تاركا بدراً إلى يساره ، واسرع فى طريقه حتى بعدت القافلة عن جيش المسلمين ، فأرسل إلى قريش يطلب منهم أن يعودوا أدراجهم إلى مكة لنجاة قافلتهم من المسلمين .

وتضاربت آراء قريش ، منهم من يريد الرجوع كبنى زهرة[٢]، وقد عادوا ، ومنهم من يريد البقاء ، يتزعمهم أبو جهل ، الذى قال : والله لا أرجع حتى نرد بدرا فنقيم عليه ثلاثًا ، ننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، وبمسيرنا ، وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها .

ولما علم النبى ﷺ بخروج قريش من مكة أخبر أصحابه بما بلغه من أمرهم طالبا مشورتهم ، فأدلى أبو بكر وعمر والمقداد بن عمرو بآرائهم وسكت الناس ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « أشيروا على أيها الناس » ، وفهمت الأنصار أن النبى ﷺ يعنيهم ، فقال سعد بن معاذ للنبى ﷺ : لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله .

وارتحلوا جميعا ، حتى إذا كانوا على مقربة من بدر ، أرسل النبى ﷺ عيونا

---

(١) سبل الهدى والرشاد (٤/٤٥).

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٣/٢٦٥).

لتعرف قوة قريش ومواضعها . ومضت قريش إلى غرضها حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادى خلف العقنقل وبطن الوادى ، وهو يليل ، ونزل المسلمون بين بدر والعقنقل ـ الكثيب ـ الذى خلفه قريش ، والقليب ببدر فى العدوة الدنيا من بطن يليل إلى المدينة[1]، وفى هذا قال تعالى : ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾[2]، أى من ناحية الساحل ، ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾[3].

وبعث الله السماء ، وكان الوادى دهما ، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ماء لبّد لهم الأرض ، ولم يمنعهم من السير ، وأصاب قريشا منها ماء لم يقدوا على أن يرتحلوا معه ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾[4].

فخرج الرسول ﷺ يبادرهم إلى الماء ، حتى نزل أدنى ماء من بدر، لكن الحباب بن المنذر بن الجموح ـ وكان عليما بالمكان ـ قال : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل ، امنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . قال : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، فامض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما وراءه من القُلب ، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى ، وانتقل بالناس حتى نزل حيث أشار الحباب بن المنذر، فأقاموا معسكرهم ، وامتلكوا مواقع الماء ، وانجزوا بناء الحوض ، وملأوه ماء ، ثم غوروا ماعداه من الماء ، وبنو للنبى ﷺ عريشا يكون فيه ، حتى يأتيه من ربه النصر، بإشارة سعد بن معاذ على النبى ﷺ بذلك . ومشى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريهم مصارع القوم واحدا واحدا[5].

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٣/ ٢٦٥).

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٤٢ .

(٣) سورة الأنفال ، الآية : ٤٢ .

(٤) سورة الأنفال ، الآية : ١١ .

(٥) تاريخ الرسل والملوك ـ الطبرى (٣/ ١٦٥).

ولما نزلت قريش مما يليهم ، بعثوا عمير بن وهب الجحى يحرز أصحاب رسول الله ﷺ فحرزهم وانصرف ، وخبرهم الخبر .

ورام حكيم بن حزام ، وعتبة بن ربيعة أن يرجعا بقريش ، ولا تكون الحرب ، فأبى أبو جهل ، ووافقه المشركون .

وتواقفت الفئتان وعدل رسول الله ﷺ الصفوف بيده ، ورجع إلى العريش ومعه أبو بكر وحده ، وطفق يدعو ربه : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد فى الأرض ، اللهم انجز لى ما وعدتنى » ، وسعد بن معاذ وقومه من الأنصار على باب العريش يحمونه .

وأخفق[(١)] رسول الله ﷺ ثم انتبه ، فقال : « أبشر يا أبا بكر فقد أتى نصر الله »[(٢)] وبشر أصحابه بالجنة ونزول الملائكة لتحارب معهم .

ثم خرج يحرض الناس ، وأخذ كفا من الحصى بيده ، فاستقبل القوم الكافرين وقال: « شاهت الوجوه »[(٣)] ، وأمر أصحابه بالهجوم ، فاندفع المسلمون يضربون ضربا لا هوادة فيه ، ويشتتون هذا الجمع الكبير بخيله وخيلائه ، حتى انفرط عقد المشركين ، وجندلت سيوف الله طواغيت قريش الواحد إثر الآخر ، وأصحابهم فى ذهول ، وكأن تواها أخذهم، لا يملكون دفعا عن سادتهم ولا عن أنفسهم وهم الأكثر عدة وعددا ، وصدق الله القائل : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[(٤)] ، ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[(٥)]، ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾[(٦)].

---

(١) أخفق : حرك رأسه وهو ناعس .

(٢) تاريخ ابن خلدون (١٩٧/٢).

(٣) تاريخ ابن خلدون (١٩٧/٢).

(٤) سورة الأنفال الآيتان ٩ ، ١٠.

(٥) سورة الأنفال ، الآية : ١٢.

(٦) سورة الأنفال ، الآية : ١٧ .

وجال المسلمون وصالوا فى صفوف المشركين ، يضربون أعناق طائفة منهم ضربا لا هوادة فيه ولا رحمة ، ويأسرون طائفة أخرى بالمعروف ، حتى جاء نصر الله ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1] فقتلوا من المشركين سبعين، وأسروا منهم سبعين[2].

واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا ، ستة من المهاجرين ، وثمانية من الأنصار[3].

ثم انجلت الحرب ، وأمر رسول الله ﷺ بقتلى المشركين فسحبوا إلى القليب[4]، وطم عليهم التراب ، ثم انصرف إلى المدينة عن بدر فى اليوم الثالث بعد النصر .

فلما نزل الصفراء ، قسم الغنائم ، كما أمر الله ، وضرب عنق النضر بن الحرث ابن كلدة من بنى عبد الدار ، ثم نزل عرق الظبية ، فضرب عنق عقبة بن أبى معيط ابن أمية ، وكان فى الأسارى ، لشدة عداوته لرسول الله ﷺ.

وفدى رسول الله ﷺ أكثر أسارى بدر بعد ما خير أصحابه فى أمرهم ، وكان فى الأسرى من يكتب ، ولم يكن فى الأنصار من يحسن الكتابة ، وكان منهم من لا مال له ، فيقبل منه أن يعلم عشرة من الغلمان الكتابة ويخلى سبيله[5].

سار الجيش الظافر المنتصر ، وعلى رأسه رسول الله ﷺ ومن خلفه رجال لا يثنيهم عن إيمانهم قوة أو بطش أو ظلم ، ومعهم الأسرى والغنائم الكثيرة ميممين شطر المدينة .

لقد حققت هذه الفئة القليلة نصرا اهتزت له جنبات جزيرة العرب ، بل اهتزت له

---

(١) زاد المعاد ـ ابن قيم الجوزى (٨٨/٢) .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٢٣ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك ـ الطبرى (١٣٥٨/٢).

(٤) القليب : البئر قبل أن تطوى ـ أى قبل أن تبنى بالحجارة ونحوها ـ وقال أبو عبيدة : هى البئر العادية القديمة (مختار الصحاح ص ٢٢٨).

(٥) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١٠٠/١).

جنبات الدنيا ، ومضى عن المسلمين عهد حزين كانوا فيه مستضعفين مغلوبين على أمرهم ، لا يملكون رد الظلم والعدوان ، صابرين على الأذى ، هائبين القوة الغاشمة العمياء ، وانتقلوا إلى عهد تلألأ فيه نور الإسلام ، واثبتوا لأنفسهم وللدنيا جميعا أن الإيمان بالله وبنصره أقوى أسلحة الإنسان ، وأنهم دخلوا تاريخ البشرية الناصع ، ليظلوا هناك ، ما شاءت لهم الأقدار أن يظلوا .

بعث النبي ﷺ بشيرين إلى المدينة ، ثم دخلوها ظافرين والحقد والحسد يغلي في قلوب المشركين والكافرين واليهود ، أن لم يتحقق ما كانوا يأملون من نصر قريش ، حتى لقد قال كعب بن الأشرف اليهودي : بطن الأرض اليوم خير من ظهرها ، بعد أن أصيب أشراف الناس وسادتهم ، وملوك العرب وأهل الحرم والأمن .

وفي تلك الأثناء كانت أخبار الهزيمة قد وصلت مكة ، فقام النساء فقطعن شعورهن ، وعقرت خيول كثيرة ورواحل ، وناحت قريش على قتلاها ، لكنهم سرعان ما كفوا عن النواح حتى لا يشمت فيهم محمد وأصحابه ، وكانت هند بن عتبة أشدهن حزنا ، وأكثرهن طلبا للثأر ، فقد قتل أبوها وعمها وأخوها ورفضت البكاء واعتزلت فراش زوجها أبي سفيان ، وظلت تحرض الناس حتى بلغت ثأرها يوم أحد ؛ أما أبو سفيان فنذر ألا يمس رأسه ماء جنابة حتى يغزو محمداً ، وينال منه ومن أصحابه .

لقد كانت معركة بدر الكبرى أول معركة حاسمة خاضها المسلمون بشجاعة نادرة ، واضعين في اعتبارهم أن فشلهم في هذه المعركة قد يقضي على مستقبل الإسلام ، لذا كان النبي ﷺ يكثر الابتهال والتضرع والدعاء ويقول فيما يدعو به : « اللهم أنجز ما وعدتي ، اللهم نصرك ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض »[١] .

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير (١/ ٢٧١).

بين بدر وأحد

لم يكن انتصار المسلمين فى بدر كافيا وحده فى كسر شوكة المشركين ، بل أن هذا النصر قد أوجد للمشركين ثأراً ، لابد أنهم غير ساكتين عن طلبه وأخذه عندما تحين الفرصة لهم .

لذا لم يركن النبى ﷺ إلى الراحة والدعة بعد بدر ، بل خرج فى أربع غزوات ، كانت ثلاث منها هجومية ، وواحدة دفاعية ، وكان يهدف من وراء ذلك إلى :.

١ ـ ضرب اقتصاد المشركين الذى هو عصب الحرب ، وعصب حياتهم ليضعف استعدادهم ، وتخور عزائمهم عن لقاء المسلمين .

٢ ـ فك الارتباط بين قريش وحلفائها ، مما يضيق الجبهة أمام المسلمين ويجعلهم في مواجهة عدو واحد ، يكون لقاؤه أمكن لهم .

٣ ـ تهيئة الميدان عسكريا لحرب قريش والتى هى قادمة لا محالة وبما يضمن للمسلمين عنصر الخبرة والتفوق ، وبث الهيبة فى قلوب أعدائهم .

فقام النبى صلى الله عليه وسلم بهذا النشاط المكثف بين بدر وأحد ، لتحقيق هذه الأهداف ، من ذلك :

● غزوة قرقرة الكدر:

بلغ النبى ﷺ أن جمعا من غطفان وبنى سليم اعتزم الاعتداء عليهم ، فخرج النبى ﷺ إليهم ، وبإمرته مائتا راكب وراجل من المسلمين إلى ديارهم ، فى ماء لهم يقال له: قرقرة الكدر.

فأقام النبى ﷺ عليه ثلاثة أيام ، ثم انصرف إلى المدينة دون حرب ، إذ فرت جموع بنى سليم وغطفان لما سمعت بقدوم المسلمين .

وقيل : أنه أصاب من نعمهم ، ورجع إلى المدينة بالغنيمة ، وأنه بعث غالب ابن عبد الله الليثى فى سرية ، فنالوا منهم ، وانصرفوا بالغنيمة(١).

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ابن خلدون (٢/١٩٩).

• غزوة السويق :

ثم كانت غزوة السويق فى ذى الحجة ، بعد بدر بشهرين ، إذ أن أبا سفيان لما انصرف من بدر ، نذر أن يغزو المدينة .

فخرج فى مائتى راكب ، حتى أتى بنى النضير ليلا ، فتوارى عنه حيي بن أخطب ولقيه سلام بن مشكم ، وقراه ، وأعلمه بخبر الناس ، ثم رجع ، فمر بأطراف المدينة فخرق نخلا ، وقتل رجلين مسلمين فى حرث لهما[١].

فنفر رسول الله ﷺ والمسلمون ، واستعمل على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر، وبلغ الكدر ، وفاته أبو سفيان والمشركون ، وقد طرحوا السويق من أزوادهم لتخففوا من أحمالهم، فأخذه المسلمون ، فسميت لذلك : (غزوة السويق).

وقد يكون سبب حمل السويق هو أن أبا سفيان أراد بحمله أن يدفعه رشوة أو عطية لرؤساء اليهود ليضمهم إلى صفه ، فلما لم يجد عونا عاد به ولما أحسن بالنبى ﷺ يطارده ، ألقى بالسويق ، ليتخفف من أحماله ، فيكون ذلك أمكن له من الفرار .

• غزوة ذى أمر[٢]:

ثم خرج رسول الله ﷺ فى شهر المحرم من السنة الثالثة للهجرة غازيا نجدا ، يريد غطفان ، لما بلغه أن جمعا من غطفان من بنى ثعلبة أبن محارب تجمعوا لحربه[٣]، فخرج إليهم واستعمل على المدينة عثمان بن عفان فأقام بنجد شهر صفر كله ، ثم عاد إلى المدينة ولم يلق حربا ، ونزل فى ذلك قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾[٤].

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) ذى امر : موضع بنجد من ديار عطفان (معجم البلدان ، ياقوت ١٦٧/٥).

(٣) انظر : البداية والنهاية ـ ابن كثير (٣/٤).

(٤) سورة المائدة ، الآية : ١١ .

• غزوة بحران :

ولم يكد النبى ﷺ يعود إلى المدينة ويقيم بها أياما ، حتى خرج فى آخر ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة يريد قريشا ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، فبلغ نجران ، لكنه عاد إلى المدينة دون قتال ، بعد أن بقى فى ديار بنى سليم ربيعا الآخر ، وجمادى الأولى .

وكان آخر بعث أرسله النبى ﷺ قبل غزوة أحد ، هو سرية زيد بن حارثة فى مائة راكب من المسلمين ، لاعتراض قافلة تجارية لقريش بقيادة صفوان ابن أمية ، مجهزة بما يقارب المائة ألف درهم من الفضة والبضائع ، فتعرض لها زيد عند ماء يقال له : القردة[1] ، فأصابوا القافلة ، وأسروا دليلها فرات بن حيان ، فلما جيء به إلى المدينة دخل الإسلام .

غزوة أحد[2]

كان لغزوة بدر آثار عميقة جداً على المسلمين والمشركين ، إذ لم يكن هناك بين المسلمين وكفار قريش حتى بدر من ثأر غير دم ابن الحضرمى ، أما بعدها فلم يعد هناك يد لقريش أن تنازل محمداً وأصحابه فى جولة أخرى ، أو فى جولات ، دفاعا عن هيبتها المفقودة ، وتجارتها الممهدة ، وحفاظا على سمعتها بين العرب .

وقد حددت أحداث بدر وما بعدها المسار الذى كان لابد أن يسير فيه محمد وأصحابه من ناحية ، ومشركو قريش من ناحية أخرى ، فمحمد لن يكف عن قريش ولن يترك طريق تجارتها آمنا ، ولن يتنازل عن أقل من تحرير الكعبة من أوثانها ، وقريش لن يهدأ لها بال حتى تأخذ بثأر أشرافها وسادتها أصحاب القليب الذين جندلتهم سيوف المسلمين فى ساحة بدر ، ولن تتراجع عن العمل لاستعادة هيبتها ومكانتها المفقودة ، إذ ما وقع من مناوشات منذ وقعة بدر حتى الآن لم يغن قريشا شيئا ، ولا يزال يحز فى نفوسهم ذلك الألم المبرح لفقد الآباء والأبناء والإخوة والصحاب الذين تركوهم من خلفهم صرعى فى ساحة بدر .

---

(١) القردة : ماء من مياه نجد فى الرمة (معجم البلدان ، ياقوت ٣/١٧).

(٢) أحد : جبل شمال المدينة بينه وبينها قرابة ميل واحد (معجم البلدان) ياقوت الحموى ١/١٣٣).

فمشى عبد الله بن أبى ربيعة وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية فى رجال من قريش ممن أصيب أباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ، وكلموا أبا سفيان وأهل مكة ممن كان له فى القافلة تجارة أن يجهزوا من تلك التجارة جيشا كثيفا لقتال رسول الله ﷺ[1] ، إذ أنه لما عاد المشركون من بدر إلى مكة وجدوا العير التى قدم بها أبو سفيان ابن حرب موقوفة فى دار الندوة لم يحركها ولم يفرقها . فباعوها ، وكانت ألف بعير ، والمال خمسون ألف دينار ، وكانوا يربحون فى الدينار ديناراً[2] ، فخصصت أرباحها ، وكانت مماثلة لرأس مالها ـ أى خمسين ألف دينار ـ لتجهيز ذلك الجيش ، وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾[3] .

فاجتمعت قريش لحرب محمد وأصحابه ، وأخذت تحرض قبائل كنانة وأهل تهامة على الخروج معهم ، واجتمع فى النهاية ثلاثة آلاف مقاتل ـ معهم مائتا فرس وسبعمائة بعير ـ من قريش وقبائل كنانة وأهل تهامة وبنى المصطلق المسمون بالأحابيش ـ وهم حلفاء قريش ـ وأبو عامر بن عمرو بن صيفى ومعه خمسون رجلا من الأوس كانوا قد خرجوا من المدينة كراهية لمحمد ﷺ[4] ، وكان أبو عامر هذا رأس الأوس فى الجاهلية ، وكان مترهبا ، فلما جاء الإسلام خذل فلم يدخل فيه .

وخرجت معهم جماعة من شريفات نساء قريش التماس الحمية ، وتشجيع المقاتلين على الدفاع عن المحارم ، وألا يفروا[5] ، فخرجت هند بن عتبة مع زوجها أبى سفيان ابن حرب ، وهو قائد الناس يومئذ ، وخرجت أم حكيم بنت الحارث مع زوجها عكرمة ابن أبى جهل ، وخرجت فاطمة بنت الوليد بن المغيرة مع زوجها الحارث بن هشام ، وخرجت غيرهن ، فبلغن جميعا حوالى خمس عشرة امرأة وخرجت معهن القيان يحملن الدفوف والمعازف ، والغلمان يحملون الخمور .

---

(١) إمتاع الأسماع المقريزى (١/١٠٩).
(٢) نفس المصدر السابق .
(٣) سورة الأنفال ، الآية : ٣٦.
(٤) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/١٠٩).
(٥) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٤/١٣) والطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/١٧٠).

وفى تلك الأثناء كان رسول من مكة أرسله العباس بن عبد المطلب قد وصل بكتاب إلى المدينة يخبر النبى ﷺ بذلك ـ وكان العباس قد امتنع عن الخروج مع قريش ذلك اليوم ، محتجا بما أصابه يوم بدر ـ ومما لا شك فيه أن العباس ما كان ليقاتل ابن أخيه ، وهو الذى منعه طوال حياته ، وكان ليفديه بدمه وماله ، وهو الذى حضر معه بيعة العقبة الثانية ليستوثق له من الأنصار ، ويتأكد من حمايتهم له ، ولقد كفته تجربة بدر إذ خرج مستكرها مع قومه يومئذ فلقى فيها ما لقى مما تكره نفسه .

قدم رسول العباس بكتابه إلى النبى ﷺ وهو بقباء[١] فقرأه عليه أبى بن كعب ، واستكتم أبيا ، ونزل رسول الله على سعد بن الربيع فأخبره بكتاب العباس وقد أجفت اليهود والمنافقون وشاع الخبر ، وقدم عمرو بن سالم الخزاعى فى نفر ، وقد فارقوا قريشا بذى طوى ، فأخبر النبى ﷺ الخبر ، وانصرفوا .

وبعث رسول الله ﷺ أنسا ومؤنسا لبنى فضالة ليستطلعا له أخبار قريش ، فوجداها قد نزلت ببطن الوادى المقابل للمدينة قبلى جبل أحد[٢] وأطلقت خيلها وإبلها ترعى زروع المدينة القريبة منها ، وذلك يوم الأربعاء رابع شوال من سنة ثلاث ، فبعث رسول الله ﷺ الحباب بن المنذر بن الجموح فنظر إليهم ، وعاد وقد حرز عددهم ، وما معهم ، فقال ﷺ : « لا تذكروا من شأنهم حرفا ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، اللهم بك أصول وبك أجول »[٣].

وخرج من المشركين سلمة بن سلامة الأرقش يوم الجمعة ، فلقى عشرة أفراس طليعة ، فراشقهم بالنبل والحجارة حتى انكشفوا عنه ، وعاد إلى قومه بنى عبد الأشهل ، فأخبرهم ما لقى .

وباتت جموع الأوس والخزرج ليلة الجمعة لست مضين من شوال عليهم السلاح فى

---

(١) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/٩) .
(٢) انظر : تاريخ الرسل والملوك ـ ابن جرير الطبرى (٢/١٣٨٧).
(٣) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/١١٠).

المسجد خوفا على النبى ﷺ أن يدهم الكفار المدينة فى أثناء الليل ، وحرست المدينة حتى أصبحوا .

فلما جمع النبى ﷺ أهل الرأى من المسلمين للتشاور كان من رأيه التحصن بالمدينة ، وقال لأصحابه : « إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدَعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها »[1].

وكان رأى عبد الله بن أبى بن سلول مع رأى رسول الله ﷺ فقال رجال من المسلمين ممن كان فاتهم بدر : يا رسول الله ، اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا .

فقال عبد الله بن أبى سلول : يا رسول الله ، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله ، فإن أقاموا بشر مجلس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين .

فلم يزل الناس برسول الله ﷺ الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم ، حتى دخل رسول الله ﷺ بيته ، فلبس لامته ـ وكان ذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة ـ ثم خرج عليهم ، وقد ندم الناس وقالوا : استكرهنا رسول الله . فقالوا : يا رسول الله : استكرهناك ، ولم يكن ذلك لنا ، فاقعد صلى الله عليك .

فقال رسول الله ﷺ : « ما ينبغى لنبى لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل »[2].

وخرج رسول الله ، ﷺ ، بألف رجل من أصحابه ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم للصلاة ، فنزل الشيخين (٢) ، وهناك رأى مع المسلمين جماعة لايعرف أهلها

---

(١) تاريخ ابن خلدون (٢/٢٠٤١).

(٢) راجع : تاريخ الرسل والملوك ـ الطبرى (١٣٨٨/٢).

(٣) الشيخين : موضع بالمدينة ، كان فيه عسكر رسول الله ﷺ ليلة خرج لقتال المشركين بأحد . (معجم البلدان ـ ياقوت ٣١٩/٥).

فلما سأل عنها علم أن أفرادها من اليهود حلفاء عبد الله أبن أبى ، فأبى أن يعاونوه إلا أن يسلموا ، أو يعودوا أدراجهم ، وقال ﷺ: « لا تنتصروا بأهل الشرك على أهل الشرك » لأنهم كانوا حلفاء ابن سلول ، فخشى النبى ﷺ أن يحدثوا فتنة فعادوا إلى المدينة .

حتى إذا كانوا بين المدينة وأحد ، انخزل عنه عبد الله بن أبى بثلث الناس مغاضبا لمخالفته رأيه فى المقام بالمدينة لملاقاة العدو ، وقال : أطاعهم وعصانى ، ما ندرى علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ؟ فرجع بمن تبعه من قومه من أهل النفاق والريب[١].

ونَفَذ رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب من أحد ، فى عدوة الوادى ، وجعل ظهره إلى أحد ، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم .

فلما كان يوم السبت تعبى للقتال ، وهو فى سبعمائة[٢] فيهم خمسون فارسا واستعمل على الرماة ـ وكانوا خمسين ـ عبد الله بن جبير ، وقال له : انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك » ونظم الصفوف ، فجعل الجيش ميمنة ، وميسرة ، والقلب ، والساقة ؛ ودفع رسول الله ﷺ اللواء إلى مصعب بن عمير[٣].

والتقى الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، وهتف حمزة بن عبد المطلب بشعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم أحد : « أمت أمت » ثم اندفع إلى قلب جيش المشركين يهد[٤] الناس بسيفه .

واندفعت قريش للقتال ، يثور فى عروقهم طلب الثأر لمن قُتل من سادتها وأشرافها منذ عام بدر ، ومن ورائهم نساؤهم ، وقد أعدت واحدة منهن مولى وعدته بالخير الوفير ، لينتقم لها ممن فجعها فى بدر ، فى أب أو أخ أو زوج أو عزيز .

وكانت هند بن عتبة قد وعدت وحشيا الحبشى مولى جبير خيراً كثيراً إن هو قتل

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ـ الطبرى (٢/ ١٣٩٠) .

(٢) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٢٠٤) وزاد المعاد ـ الجوزى (٢/ ٩٢).

(٣) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٣/ ٧١).

(٤) يهد : يهلك .

حمزة ، كما قال له جبير بن مطعم مولاه ـ وكان عمه قد قتل ببدر ـ قال له : اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمى طعيمة بن عدى ، فأنت عتيق[1].

فتربص وحشى بين الصفوف يترصد حمزة ، فصوب عليه حربته ، وقذفه بها فاستشهد رحمه الله على أثرها .

وبرغم خسارة المسلمين باستشهاد حمزة ، فإن لواء المشركين قد أخذ يسقط بين حين وآخر على أيدى المسلمين ، إذ تعاقب حملة لواء المشركين من بنى عبد الدار ، حتى قُتل منهم تسعة ، فحملته امرأة منهم ، لتَفَرُّق المشركين عنه ، ويقال لها : عمرة بنت علقمة الحارثية[2] ، فلما قُتل أصحاب اللواء صاروا كتائب متفرقة فجاس المسلمون فيهم ضربا حتى اجهضوهم وأزالوهم عن أمكنتهم[3] ، فانهزمو المشركون ، حتى أحاط المسلمون بنسائهم ، وطاردوا المشركين حتى أبعدوهم عن عسكرهم ، ثم عادوا يجمعون الغنائم واشتغلوا عن الحرب .

وظن أصحاب عبد الله بن جبير ـ وهم الرماة ـ أن الحرب قد ولّت ، وأن قريشا قد هُزمت ، فنزلوا ليصيبوا من الغنائم ، وثبت عبد الله بن جبير مكانه ، وثبت معه دون العشرة ، ونظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل الذى كان عليه الرماة وقلة أهله ، فكرّ بالجبل ، وتبعه عكرمة بن أبى جهل ، فحملوا على الرماة فقتلوهم وقتلوا أميرهم عبد الله بن جبير ، ومثلوا به .

فانكشف المسلمون وأصاب منهم العدو ، وكان يوم بلاء وتمحيص ، أكرم الله فيه من أكرم بالشهادة ، حتى خلص المشركون إلى رسول الله ﷺ فدُث بالحجارة ، وكُسرت رباعيته ، وشُجّ فى وجهه ، فجعل ﷺ يقول : « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ »[4] فأنزل الله فى ذلك : ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾[5].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٦٥/٣) .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) السيرة النبوية لابن كثير (١٤٣/٣).

(٤) السيرة النبوية لابن كثير (٤٤/٣).

(٥) سورة آل عمران ، الآية (١٢٨).

وتفرق عن النبى ﷺ أصحابه ، فدخل بعضهم المدينة وذهب آخرون إلى الصخرة فوق الجبل ، وجعل رسول الله ﷺ يدعو الناس : « إلى عباد الله ، إلى عباد الله » فاجتمع إليه ثلاثون رجلا فجعلوا يسيرون بين يديه، فلم يقف أحد إلا طلحة وسهل بن حنيف ، فحماه طلحة ، فرُمى بسهم فى يده فيبست يده، وترس دون رسول الله ﷺ أبو دجانة بنفسه ، يقع النبل فى ظهره ، وهو منحن عليه حتى كثر فيه النبل . ورمى سعد ابن أبى وقاص دون رسول الله ﷺ .

وفشا فى الناس أن محمدا قد قُتل ، فقال بعض أصحاب الصخرة : ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبىّ ، فيأخذ لنا أمنة من أبى سفيان ، يا قوم ، إن محمدا قد قُتل ، فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم .

وقال بعضهم : لو كان نبيا ما قُتل ! فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ [١].

وكان أول من عرف رسول الله ﷺ بعد الهزيمة، وقول الناس : قُتل رسول الله هو كعب بن مالك ، فنادى بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أبشروا، هذا رسول الله[٢]، فأشار إليه رسول الله ﷺ أن أنصت.

فلما عرف المسلمون رسول الله ﷺ نهضوا به ، فتوجه معهم نحو الشعب ، فإذا بأبى بن خلف يقول : أين محمد ؟ لا نجوت إن نجا ؛ فقال القوم : يا رسول الله ، أيعطف عليه رجل منا ؟ فقال ﷺ : « دعوه » فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة ، ثم استقبله فطعنه فى عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مرار[٣] فعاد أدراجه ليموت وهم قافلون به إلى مكة ، وهو أول قتيل قتل بيد النبى ﷺ .

وصلى رسول الله ﷺ يوم أحد قاعدا ، من الجراح التى أصابته ، وصلى خلفه المسلمون قعودا .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٤.

(٢) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٣/٨٨).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٣/٨٩).

وقد بلغ جميع من استشهد من المسلمين بأحد من المهاجرين والأنصار : خمسة وستين رجلا فيهم حمزة بن عبد المطلب ، وعبد الله بن جحش ، مصعب بن عمير ، وشماس بن عثمان من المهاجرين[١].

وجميع من قتل من المشركين اثنان وعشرون رجلا .

وقد أنزل الله تعالى من القرآن فى غزوة أحد ستين آية فى سورة آل عمران[٢] وقد عالجت تلك الآيات أموراً كبيرة مما كان من أمر تلك الغزوة ، وما أصاب المسلمين فيها من أحداث كانت شديدة الوقع على نفوسهم ، إذ أن ما حل بالمسلمين فى أحد من تغلب المشركين عليهم كاد أن يضعف الروح المعنوية لديهم ، بعد أن علت تلك الروح وارتفعت إثر نصرهم المؤزر فى بدر ، فتولى الله سبحانه وتعالى علاجهم وارضاءهم لرأب الصدع الذى اصابهم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾[٣] وأخبرهم الله تعالى أن ذلك كان امتحانا لإيمانهم ، إذ عصوا أمر الرسول ﷺ وترك الرماة مواقعهم، ففشلوا ، بعد أن كان النصر حليفهم ، فابتلاهم الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٤]. على أن الله قد عفا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١٣٣/٢).

(٢) محمد رسول الله ـ محمد رضا (ص ١٩٤).

(٣) سورة آل عمران ، الآيات : (١٤٠ ـ ١٤٢).

(٤) سورة آل عمران ، الآيتان : ١٥٢ ، ١٥٣ .

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[1]، وبشرهم الله تعالى : ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[2]، كما وسعهم عليه الصلاة والسلام بلطفه ولينه : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾[3]. ووبخ الله المنافقين : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات التى كشفت عن كل شيء ، فثمرات أحد عظمية رغم ما انتهت إليه فى ميدان القتال .

ولكن ، أكان هذا بسبب ضعف التخطيط لتلك الغزوة ، وأنها لم تدرس جيداً ؟ نقول :

كلا ، إن السبب وراء ما وقع كان تسرع الرماة بترك مواقعهم دون أن يتأكدوا من فرار المشركين التام ، وخالفوا أمر الرسول ﷺ لهم بألا يبرحوا أماكنهم ، والأغلب - فى رأيي - أن ذلك تم عن تراخ منهم ، أو ممن برح مكانه على وجه الخصوص ، إذ لم يكن نزول من نزل بإجماع منهم ، وإنما تنازعوا واختلفوا فى ذلك، وثبت قائدهم ومعه قلة لم تكن كافية لدرء ما أصابهم .

أما ما أجمع عليه المفسرون وكتاب السيرة إذ قالوا : إن المسلمين ما كادوا يهزمون المشركين حتى راحوا يجمعون الغنائم ، حتى الرماة تركوا أماكنهم من أجل ذلك ، فلا أدرى كيف هذا ؟ !

وفى رأيي أن الغنائم لم تكن هدفا يخرج إليه المسلمون للقتال ، كما هى كذلك لا يأخذها من جمعها بل تقسم أخماسا بنص القرآن الكريم ، مما هم يعرفونه ، فلم إذا تكون عجلتهم ؟!

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٥ .

(٢) سورة آل عمران ، الأية : ١٥٧.

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٩ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية : ١٦٧ .

بل المعقول القول : إن المسلمين قد فرحوا بهزيمة المشركين ، فاسترخوا وألقوا السلاح ، ونزل حراس الجبل ، فكر المشركون ، على من بقى منهم فوقه ـ وكانوا قلة ـ ثم كروا على جيش المسلمين فوقع ما وقع ، والله أعلم به .

على أنه على أية حال ، فإن أثار هذه الغزوة لم تقتصر على ميدان القتال بل امتدت لتلقى بظلالها على حياة المسلمين ، ونظامهم السياسى ، والاجتماعى فبعدما استطاع النبى ﷺ أن يجعل من المدينة قاعدة قوية للإسلام بعد بدر وقبل أحد ، فإن هذه الغزوة قد سببت للمسلمين العديد من المتاعب والمشاكل ، داخليا وخارجيا .

ففي الداخل :

كان هناك اليهود ، الذين هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا فى السراء والضراء .

وإن كانت السراء تدفعهم إلى إخفاء نواياهم ، بينما يعلنون هذه النوايا صريحة فى الضراء ، فأخذوا يبثون الفزع ، ويختلقون المشاكل للمسلمين .

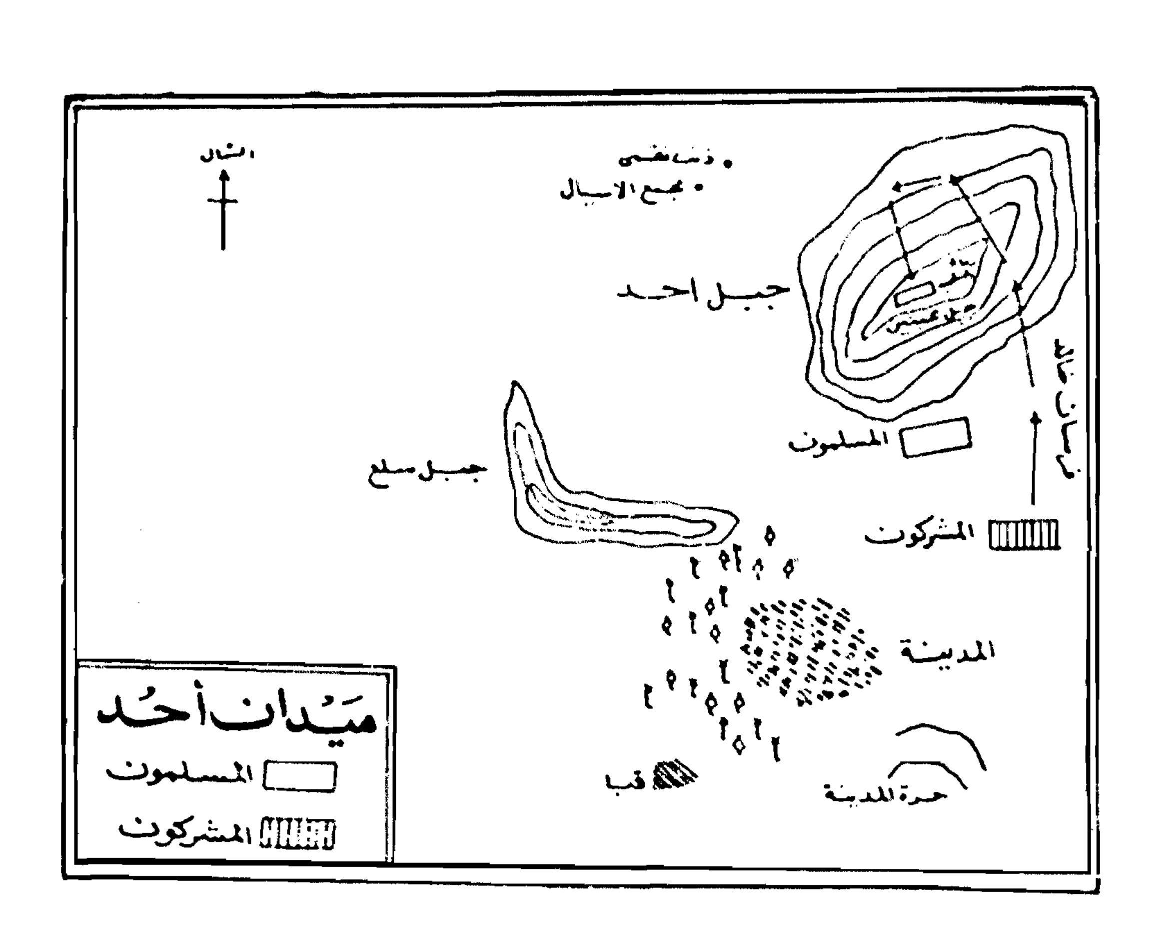
كما كان هناك المنافقون الذين تظاهروا بالإسلام ، فانكشفت نوايا نفوسهم قبيل غزوة أحد وبعدها عندما رأوا الخطر محدقا بالمسلمين .

وفي الخارج :

كانت هناك قريش بالدرجة الأولى ، إذ أخذت من انتصار أحد وسيلة لشن حرب دعائية ضد المسلمين بين القبائل العربية وغيرها ، لتظهر نتائج تلك الغزوة بما يرفع من قيمتها ، ويحط من قيمة المسلمين .

وكان هناك القبائل المجاورة من الأعراب ، الذين يظاهرون الأقوياء بمظهر المسالم الموادع ، ويبطشون بالضعفاء بطشا لا هوادة فيه ولا رحمة . فكان على المسلمين أن يعيدوا النظام إلى صفوفهم ، وأن يقوّموا ما اختل من بنيانهم ليعودوا أقوياء بما يمكنهم من بسط سيطرتهم على المدينة وما حولها ، واستعادتهم هيبتهم بين المشركين من قريش ، وبقية القبائل والجماعات الأخرى .

لذا سارع النبى ﷺ فى اليوم التالى لغزوة أحد بالخروج إلى حمراء الأسد ، ليعلم هؤلاء وأولئك أن المسلمين لم يهنوا ولم يضعفوا ، وإن ما كان فى أحد لم يكن نصراً كاملا ولا هزيمة كاملة ، وكل ما كان هو أن كلا من الفريقين قد كسب جولة وخسر


ميدان أحد
المسلمون
المشركون
الشمال
ذنب نقمى
مجمع الاسيال
جبل احد
فرسان خالد
المسلمون
المشركون
جبل سلع
المدينة
قبا
حرة المدينة

أخرى ، ولو أن المسلمين كانت قد عضتهم الحرب وانهكت قواهم الجراح ، لما خرجوا على الفور وفى اليوم التالى من أحد لتحدى قريش ، ولطمعت فيهم القبائل الضارية بين مكة والمدينة ولما ترددت فى غزوهم .

• غزوة حمراء الأسد :

ولما كان الغد من يوم أحد ، لست عشرة ليلة خلت من شوال ، وقيل : لثمان خلوان من شوال[1] ، أذن مؤذن رسول الله ﷺ فى الناس بطلب العدو ، وأذن مؤذنه: « ألا يخرجن معنا أحد إلا أحد حضر يومنا بالأمس » .

وإنما خرج رسول الله ﷺ مرهبا العدو ، وليبلغهم أنه خرج فى طلبهم ، ليظنوا أن به قوة ، وأن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم .

فدعا رسول الله ﷺ بلوائه وهو معقود لم يحل فدفعه إلى على بن أبى طالب ، وقيل : دفعه إلى أبى بكر الصديق[2].

فخرج ، صلى الله عليه وسلم ، وهو مشجوج فى جبهته ، فى أصول الشعر ورباعيته قد كسرت ، وشفته السفلى قد كلمت فى باطنها ، وهو متوهن كتفه الأيمن وركبتاه مخدوشتان ، فكب فرسه وخرج الناس معه .

فبعث ﷺ ثلاثة نفر من أسلم طليعة فى آثار القوم[3] فلحق اثنان منهم القوم بحمراء الأسد ، ولهم زجل[4] ، وهم يأتمرون بالرجوع إلى المدينة وصفوان بن أمية ينهاهم، فبصروا بالرجلين المسلمين فعطفوا عليهما فأصابوهما ومضوا ، فانتهى المسلمون إلى مصرعهما بحمراء الأسد ، وقبروهما فى قبر واحد[5] .

ومضى رسول الله ﷺ فى أصحابه ، حتى عسكروا بحمراء الأسد .

---

(١) راجع : عيون الأثر ـ ابن سيد الناس (٣٧/٢).

(٢) راجع : المغازى للواقدى (٣٣٦/١).

(٣) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس (٣٨/٢).

(٤) الزجل : الصوت .

(٥) المغازى ـ للواقدى (٣٣٧/١).

يقول ابن هشام[1] :

إن أبا سفيان بن حرب لما انصرف يوم أحد أراد الرجوع إلى المدينة ليستأصل بقية أصحاب رسول الله ﷺ فقال لهم صفوان بن أمية : لا تفعلوا فإن القوم قد حربوا[2]، وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذى كان ، فارجعوا ؛ فرجعوا .

فقال النبى ﷺ وهو بحمراء الأسد حين بلغه أنهم هموا بالرجعة : « أرشدهم صفوان ، وما كان برشيد ، والذى نفسى بيده لقد سُوّمت لهم حجارة لو صُبّحوا بها لكانوا كأمس الذاهب »[3].

وقد أقام رسول الله ﷺ بحمراء الأسد ثلاث ليال ، وكان ﷺ يأمر فى النهار بجمع الحطب ، فإذا أمسوا أمر أن توقد النيران فيوقد كل رجل نارا ، فقد أوقدوا خمسمائة نار[4] حتى رُؤيتْ من مكان بعيد .

وذهب كل معسكر المسلمين ونيرانهم فى كل وجه ، فكان ذلك مما كبت الله به عدوهم .

ثم انصرف ﷺ بعد ثلاث ليال راجعا إلى المدينة .

---

(١) السيرة النبوية : لابن هشام (١٣٣/٣).

(٢) حربوا : غضبوا وتغيظوا .

(٣) السية النبوية ـ لابن هشام (٣/ ١١٠).

(٤) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١٤٤/١).

من أحد إلى الخندق

اختلفت ظروف المسلمين بعد أحد عنها بعد بدر ، فالهزيمة التى منى بها المسلون فى موقعة أحد كانت سببا فى ضعضعة منزلتهم التى اكتسبوها بعد نصرهم فى بدر ، ولا مرية فى أنهم هم أنفسهم قد شعروا بعد الهزيمة بشيء كثير من الحرج والضيق إزاء ما لاقوه من استهزاء اليهود والمنافقين بهم ، ومع أن الكلمة العليا فى المدينة كانت لا تزال لهم ، إلا أن أسهمهم كانت قد انخفضت كثيراً ، إذ أن قريشا قد عادت تملؤها الثقة بنفسها ، وبأن ما حدث فى بدر كان استثناء .

كما تشجع تلك الهزيمة العرب على المسلمين ، وتحول خوفهم منهم إلى أمن واستقرار ، فحاولت بعض قبائلهم الإغارة على المسلمين ، وكان ذلك أمراً لا يفكر فيه أحد بعد انتصار المسلمين فى بدر ، تفكيرا جديا ، إلا بعد أن يحسب ألف حساب .

فاختلفت ـ على الجملة ـ الظروف فى كل من دولتى الإسلام والشرك بعد أحد ، وبالتالى اختلفت خطة المسلمين لمواجهة تلك المستجدات ، واتجهت همة المسلمين لتحقيق عدة أهداف :

١ ـ تأمين الدولة الإسلامية من العرب المحيطين بالمدينة ، فارسلت السرايا لأجل ذلك .

٢ ـ تخويف قريش ، وإظهار جبنها وهيبتها من المسلمين أمام العرب عامة فخرجت الغزوات لتحقيق هذا الغرض .

٣ ـ نشر الدعوة الإسلامية ، وإبلاغ مبادئ الإسلام لمن لم تصل إليه فكانت البعوث من أجل هذا[١].

● يوم الرجيع[٢] :

فكان بعث الرجيع فى صفر على رأس ستة وثلاثين شهرا من الهجرة[٣]، إذ قدم

---

(١) عيون الاثر ـ ابن سيد الناس (٣٨/٢).

(٢) الرجيع :ماء لهذيل بين مكة والطائف (معجم البلدان ـ ياقوت ٢٩/٣).

(٣) المغازى ـ للواقدى (٣٥٤/١) .

على رسول الله ﷺ بعد أحد رهط من عضل والقارة فقالوا : يا رسول الله ، إن فينا اسلاما ، فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهوننا فى الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام .

فبعث رسول الله ﷺ معهم نفرا من أصحابه ، وكانوا ستة[١] هم : مرثد الغنوى، وخالد بن أبى البكير الليثى ، وعاصم بن ثابت ، وخبيب أبن عدى، وزيد بن الدثنة ، وعبد الله بن طارق البلوى ، وأمر عليهم رسول الله ﷺ مرثدا الغنوى ، فخرج على القوم ، حتى إذا كانوا على الرجيع غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هذيلا ، فلم يُرع القوم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم ، فقالوا لهم : إنا والله ما نريد قتلكم ، ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم .

فأما مرثد ، وخالد بن البكير ، وعاصم بن ثابت ، فقالوا : والله لا نقبل من مشرك عهدا ولا عقدا أبدا ، وقاتل عاصم حتى قُتل وقُتل صاحباه .

فلما قُتل عاصم ، أرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه لسلافة بنت سعد وكانت قد جعلت لمن جاء برأسه مائة ناقة[٢]، إذ نذرت حين أصاب عاصم ابنيها يوم أحد لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن فيه الخمر ، فمنعته الدبر عنهم ، فلم يدن إليه أحد إلا لدغت وجهه[٣].

وأما زيد بن الدثنة ، وخُبَيب بن عدى ، وعبد الله بن طارق ، فلانوا ورقوا ، ورغبوا فى الحياة ، فأعطوا بأيديهم ، فأسروهم[٤]، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها ، حتى إذا كانوا بالظهران انتزع عبد الله بن طارق يده من القران ، ثم أخذ سيفه ، واستأخر عن القوم ، فرموه بالحجارة حتى قتلوه ، فدفن بالظهران .

وأما خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة ، فقدموا بهما مكة ، فباعوهما من قريش

---

(١) وفى معجم البلدان انهم كانوا سبعة (معجم البلدان ـ ياقوت ٣/٢٩) .
(٢) تاريخ الطبرى : (٣/٤٨٨) .
(٣) راجع : المغازى للواقدى (١/٣٥٦) .
(٤) عيون الاثر ـ ابن سيد الناس (ص ٤٢) .

بأسيرين من هذيل كانا بمكة ، فابتاع خبيبا سُجير بن أهاب التميمى ليقتله بأبيه ، وابتاع صفوان بن أمية زيد بن الدثنة ليقتله بأبيه أمية بن خلف وأخرجوه من الحرم إلى التنعيم ليُقتل .

وأما خُبيب بن عدى ، فقد خرجوا به إلى التنعيم ليصلبوه ، ثم رفعوه على خشبة، وقتلوه[1].

• حديث بئر معونة[2] :

وسببها أن أبا براء عامر بن جعفر ـ مُلاعب الأسنة[3] ـ قدم على النبى ﷺ المدينة وكان ذلك فى صفر على رأس سبعة وثلاثين[4] أو أربعين شهرا من الهجرة[5] فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ودعاه إليه ، فلم يسلم ولم يبعد عن الإسلام ، وقال : يا محمد ، لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد ، فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك .

فقال رسول الله ﷺ : « إنى أخشى عليهم أهل نجد » فقال أبو براء : أنا لهم جار أن يعرض لهم أحد من أهل نجد .

وكان من الأنصار سبعون رجلا يسمون القراء ، فأرسلهم النبى ﷺ[6] ، وأمر عليهم المنذر بن عمرو الأنصارى[7].

---

(١) عيون الاثر ـ ابن سيد الناس (ص٤٣) .

(٢) بئر معونة : بئر بين أرض بنى عامر ، وحرة بنى سليم (معجم البلدان ـ ياقوت ١/ ٣٠٢).

(٣) سمى ملاعب الأسنة يوم ثوبان ، وهو يوم كانت فيه وقيعة بين قيس وتميم ، وقد فر عنه أخوه يومئذ فقال الشاعر :

فررت وأسلمت ابن أمك عامرا   يلاعب أطراف الوشيح المزعزع

(عيون الأثر ـ ابن سيد الناس ٢/ ١٤٧).

(٤) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/ ١٤٥).

(٥) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/ ٤٧).

(٦) المغازى للواقدى (١/ ٣٤٧) وإمتاع الأسماع ـ المقريزى (٢/ ٤٧).

(٧) إمتاع الأسماع ـ للمقريزى (١/ ١٤٥).

ويروى ابن كثير عن البخارى : أن رعلا وذكوان وعصية وبنى لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدوهم ، فأمدهم بسبعين من الأنصار كنا نسميهم القراء فى زمانهم[1].

وعلى أية حال فقد بعث رسول الله ﷺ معهم كتابا فساروا حتى نزلوا معونة ، فلما نزلوا بعثوا بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل ، فلما أتاه لم ينظر فى كتابه ، حتى عدا على الرجل الذى جاء بالكتاب فقتله .

ثم استصرخ عليهم بنى عامر ، فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم ، فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم ، فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا حتى عشوا القوم فأحاطوا بهم فى رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ، ثم قاتلوا ، حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب ابن يزيد ، فإنهم تركوه وبه رمق ، فعاش حتى قُتل يوم الخندق شهيدا .

وكان فى سرح القوم عمرو بن أمية الضمرى ، ورجل من الأنصار ، فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم حول العسكر ، فأقبلا لينظرا ، فإذا القوم فى دمائهم، وإذا الخيل التى أصابتهم واقفة .

فقال الأنصارى لعمرو بن أمية : ما ترى ؟ قال : أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره بالخبر ، فقال الأنصارى : لكنى ما كنت أرغب بنفسى عن موضع قتل فيه المنذر بن عمرو ، ثم قاتل القوم حتى قُتل ، وأخذوا عمرو بن أمية أسيرا، فلما أخبرهم أنه من مضر ، أطلقه لعمرو بن الطفيل .

فخرج عمرو بن أمية ، حتى إذا كان بالقرقرة[2]، أقبل رجلان من بنى عامر حتى نزلا معه فى ظل هو فيه ، وكان مع العامريين عقد من رسول الله ﷺ لم يعلم هو به ، وقد سألهما حين نزلا : ممن انتما ، فقالا : من بنى عامر ، فأمهلهما ، حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما ، وهو يرى أنه قد أصاب ثأره من بنى عامر ، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ .

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٤/٧٣).

(٢) قرقرة : اسم موضع يقال له : قرقرة الكدر (معجم البلدان ـ ياقوت ٤/٣٢٦).

فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ وأخبره الخبر ، قال ﷺ : « بئس ما صنعْتَ ! قتلت قتيلين قد كان لهما منى أمان وجوار ،لأدينهما »[١] وأخرج ديتهما ، دية حُرّيْن مسلمين ، فبعث بهما وبسلبهما إلى عامر بن الطفيل[٢].

• بدر الموعد (الأخيرة)[٣] :

قبل أن ينسحب المشركون من أحد ويعودوا أدراجهم إلى مكة أغراهم الصلف والغرور ، فظنوا أن النصر معقود على لوائهم ، حتى هتفوا (اعل هبل)، وسمع النبى ﷺ أبو سفيان ينادى بعد معركة أحد وهو يهم بالانصراف : موعد بيننا وبينكم بدر الصفراء ، رأس الحول ، نلتقى فيه فنقتتل ، فقال عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، وقد أمره رسول الله ﷺ : نعم ، إن شاء الله .

وكانت بدر الصفراء مجمعا للعرب فى سوق يقام لهلال ذى القعدة إلى ثمان منه[٤]، فلما دنا الموعد كره أبو سفيان الخروج ، وأحب ألا يوافى رسول الله ﷺ الموعد ، وكان يظهر أنه يريد الغزو فى جمع كثيف فيبلغ أهل المدينة عنه أنه يجمع الجموع ويسير فى العرب ، فتأهب المسلمون له .

وقدم نعيم بن مسعود الأشجعى مكة ، فأخبر أبا سفيان وقريشا بتهيؤ المسلمين لحربهم ، وكان عاما جدبا ، فأعلمه أبو سفيان أنه كاره للخروج إلى لقاء المسلمين واعتل بجدب الأرض ، وجعل له عشرين فريضة على أن يخذل جيش المسلمين عن المسير لموعده[٥]، فقدم نعيم المدينة وارجف بكثرة جموع أبى سفيان ، حتى رعب المسلمين ، ولم تبق لهم نية فى الخروج ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ حتى خشى ألا يخرج معه أحد ، غير أن محمدا ﷺ ما كان ليحجم وما كان ليتراجع، بل أنه نادى فى

---

(١) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١٤٧/١).

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) كانت بدر الأولى فى ربيع الأول سنة اثنين من الهجرة وهى غزوة سفوان ، ثم بدر القتال فى رمضان سنة اثنين ، وهذه بدر الأخيرة .

(٤) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١٥٣/١).

(٥) نفس المصدر السابق .

أصحابه مغضبا : « والذى نفسى بيده لأخرجن وإن لم يخرج معى أحد »[1].

فخرج ﷺ لهلال ذى القعدة[2] أو شعبان[3] سنة أربع على رأس ألف وخمسمائة من أصحابه بدراً ، واستخلف على المدينة عبد الله بن أبى سلول[4] أو عبد الله بن رواحة[5]، ونزل رسول الله ﷺ بدراً ، وأقام عليها ثمانيا ينتظر أبا سفيان .

وخرج أبو سفيان من مكة فى ألفين ، معهم خمسون فرسا ، حتى نزل مجنة من أسفل الظهران[6]، أو عسفان[7]، ثم بدا له الرجوع فقال : يا معشر قريش ، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن ، فإن عامكم هذا جدب ، إنى راجع فارجعوا .

فرجع الناس ، فسماهم أهل مكة جيش السويق يقولون : إنما خرجتم تشربون السويق .

وانتظر المسلمون قريشا فلم تُقْدم ، فأقاموا فى بدر مدة الموسم التى كان يعقد فيها ، ثمانية أيام ، ثم ربحوا ربحا وفيراً من بضاعة حملوها معهم وتاجروا فيها : ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[8].

وهكذا بات واضحًا - الآن - ضعف حماس المشركين للقاء النبى ﷺ الذى استعد نفسيا لملاقاة المشركين بضعْف جيش أحد ، وكان المسلمون على ثقة بالنصر ، لأنهم استوعبوا الدروس التى لقنها لهم النبى ﷺ بعد أحد ؛ عكس القرشيين إذ أن النصر

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) إمتاع الأسماع - للمقريزى (١/١٥٤) والطبقات الكبرى - لابن سعد (٢/٩٥) المغازى - للواقدى (١/٣٨٤).

(٣) راجع السيرة النبوية - ابن كثير (٤/ ٩٠) وعيون الأثر - ابن سيد الناس (٢/٥٣).

(٤) نفس المصدر السابق .

(٥) إمتاع الأسماع - المقريزى (١/٥٤).

(٦) نفس المصدر السابق .

(٧) البداية والنهاية - ابن كثير ١/٨٩ .

(٨) سورة آل عمران ، الآية : ١٧٤.

كان صدفة لهم ، ولهذا كره أبو سفيان الخروج فى ألفين من أصحابه ، وآثر أن يحتفظ بسمعة النصر ، كذلك تعلل بالجدب فكان خوفهم من المسلمين قد بدأ يظهر ويؤتى ثماره .

وقد كسب المسلمون الجولة بتخاذل قريش ، وتحصيل السلامة ، والربح الذى انتفع به المسلمون تجاريا ، واستعادة هيبتهم التى قلّت بعد أحد .

• غزوة ذات الرقاع[1] :

لم ينس النبى ﷺ شهداء بئر معونة ، وكان ينتظر الفرصة للثأر ، ليعيد إلى هذه القبائل خوفهم من المسلمين ، فخرج عليه الصلاة والسلام إلى غزوة ذات الرقاع فى المحرم من السنة الرابعة للهجرة .

وسببها : أن قادما من نجد إلى المدينة أخبر النبى ﷺ أن جموعا من بنى أنمار سعد بن ثعلبة قد جمعوا لحرب المسلمين ، فخرج إليهم النبى ﷺ فى أربعمائة ، أو سبعمائة ، أو ثمانمائة[2].

واستخلف على المدينة عثمان بن عفان ، وبث السرايا فى طريقه فلم يروا أحدا ، ثم قدم محالهم ، وقد ذهبوا إلى رؤوس الجبال ، واطلقوا السهام على المسلمين ، فخاف الفريقان بعضهم بعضا ، وقد صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف ، فكان أول ما صلاها ـ على الخلاف فى ذلك[3] ـ ، وأخيراً تباعد الجمعان ، ولم تقع حرب ، فعاد النبى ﷺ إلى المدينة بعد أن غاب خمسة عشر ليلة[4].

---

(١) الرقاع : شجرة فى موضع الغزوة سميت بها . وقيل : إنما سميت بذلك لأن أقدام الصحابة قد تشققت فى تلك الغزوة من كثرة المشى ، فلفوا عليها الخرق ، وقيل : إنما سميت بهذا لأنهم رفعوا فيها ألويتهم (معجم البلدان : ياقوت الحموى ٥٦/٣).

وعند الواقدى : أنها سميت بهذا الاسم لأنها وقعت بجبل فيه بقع حمراء وسوداء وبيضاء (المغازى للواقدى ٣٩٥/١).

(٢) انظر : مغازى الواقدى (٣٩٦/١) ، الطبقات الكبرى ، ابن سعد ٦٣/٢ ، إمتاع الأسماع ـ للمقريزى (١٥٧/١).

(٣) أورد ابن سعد فى طبقاته (٦٣/٢) أنها كانت أول صلاة الخوف ، وأورد المقريزى خلافا واسعا فى ذلك ليس هنا متسع له ولكن فليرجع إليه من شاء فى كتابه (إمتاع الأسماع ١٥٧/١).

(٤) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١٥٧/١).

• غزوة دومة الجندل[1] :

لقد كانت هذه الغزوة أول غزوة فيها النبى ﷺ أطراف الشام ، ويبتعد عن المدينة هذه المسافة الكبيرة ، وفى هذا ولا شك دليل كبير على أن المسلمين كانوا فى ذلك الوقت - وقد انقضى على معركة أحد أكثر من سنة ونصف - قد استعادوا قوتهم وقدرتهم على القتال بصورة كبيرة جداً ، وفيه دلالة على إصرار النبى ﷺ على ملاحقة أعداء الإسلام أينما كانوا .

وقد خرجت تلك الغزوة لسببين : أولهما : تأديب قطاع الطرق ، وثانيهما القضاء على أفكارهم - وهو الأهم - لئلا يعودوا للتعرض للمسلمين مستقبلا .

ففى ربيع الأول من سنة خمس[2] بلغ النبى ﷺ أن بدومة الجندل جمعا كبيراً ، وأنهم يظلمون من مر بهم ، وكان لها سوق عظيم ، وهم يريدون أن يدنوا من المدينة[3] فندب رسول الله ﷺ الناس وخرج فى ألف من المسلمين ، متجاهلا قول القائلين : إن ذلك مما يُفزع قيصر ، فكان يسير الليل ويكمن النهار ، فلما كان بينه وبين دومة الجندل يوم ، أو ليلة ، هجم على ماشيتهم ورعاتهم ، فأصاب منها ما أصاب ، وفر باقيهم ، فتفرق أهل دومة الجندل ، لما بلغهم الخبر ، ونزل النبى ﷺ بساحتهم - فلم يجد بها أحدا - وأسر رجلا منهم فأسلم[4]، وعاد النبى ﷺ إلى المدينة دون قتال فى العشرين من ربيع الآخر .

---

(١) دومة الجندل : حصن وعدة قرى تقع على الحدود بين الشام والمدينة قرب جبل طيئ . (معجم البلدان - يا قوت ٢/٤٨٧).

(٢) البداية والنهاية - ابن كثير (٤/٩٣).

(٣) إمتاع الأسماع - المقريزى (١/ ١٦٠).

(٤) الطبقات الكبرى - ابن سعد (٢/٦٣).

غزوة المريسيع (بنى المصطلق)[1]

أدت الأعمال التى قام بها النبى ﷺ بعد أحد إلى ازدياد هيبة المسلمين فى قلوب العرب ، ومثل سلطانهم للجميع ، وأصبحوا بذلك يهددون جماعات كبيرة من قبائل العرب تهديدا مباشرا فى كل مكان ، وربما يكون هذا هو السبب الذى ألب عليهم كثيراً من العرب ، فاجتمعوا فى خندق واحد لاستئصال المسلمين والقضاء عليهم، كما كان ذعر المنافقين من ظهور المسلمين على أعدائهم أهل الشرك قد بلغ ذروته ، ولم يبق إلا أن ينكشف أمرهم وتفتضح طويتهم .

وقد دللت غزوة المريسيع على ما ذهبنا إليه توا ، إذ قام الحارث بن ضرار ابن خزاعة سيد بنى المصطلق - أبو جويرية بنت الحارث ، زوج النبى ﷺ بعد هذا - يحشد جموعا كبيرة من قومه ومن العرب جميعا ، لحرب رسول الله ﷺ فتهيأوا ليسيروا إليه ، وكانوا ينزلون ناحية الفُرْع ، فبلغ خبرهم رسول الله ﷺ فبعث بريدة بن الحصيب الأسلمى[2] يعلم علم ذلك ، فأتاه بخبرهم ، فندب الناس وأخبرهم خبر عدوهم ، فأسرعوا الخروج فى ألف مقاتل ، وقادوا ثلاثين فرسا ، منها : عشرة للمهاجرين ، وعشرون للأنصار ، ولرسول الله ﷺ فرسان ، وخرج كثير من المنافقين ليصيبوا من عَرَض الدنيا ولقرب السفر عليهم[3] .

وكان خروجه ﷺ لتلك الغزوة فى شعبان سنة خمس أو ست ، دون ترجيح لأحدهما على الآخر ، فلكل منهما ما يرجحه ، لتعدد الأدلة وتباينها[4].

واستخلف النبى ﷺ على المدينة زيد بن حارثة[5] أو أبو ذر الغفارى[6] أو نميلة ابن عبد الله الليثى[7] .

---

(١) بنو المصطلق : هم بنو جزيمة بن كعب ، من خزاعة ، فجذيمة هو المصطلق والصلق : رفع الصوت . (سبل الهدى والرشاد - الصالحى ٤/٢٠٥).

(٢) البداية والنهاية - ابن كثير (١٥٨/١).

(٣) إمتاع الأسماع - المقريزى (١٦١/١).

(٤) ارجع إلى الطبقات الكبرى - ابن سعد (٦٣/٢)، إمتاع الأسماع المقريزى (١٧٣/١) البداية والنهاية - ابن كثير (١٥٧/٤).

(٥) الطبقات الكبرى - ابن سعد (٦٣/٢).

(٦) البداية والنهاية - ابن كثير (١٥٨/٤) وزاد المعاد - ابن قيم الجوزى (١١٢/١).

(٧) سبل الهدى والرشاد - الصالحى (٤٨٦/٤) والبداية والنهاية - ابن كثير (١٥٨/٤).

وجعل النبى ﷺ لواء المهاجرين لأبى بكر الصديق أو عمارا بن ياسر[1]، ولواء الأنصار لسعد بن عبادة[2].

فلقى النبى ﷺ فى طريقه رجلا من بنى عبد القيس فأسلم ، كما أصاب عينا من المشركين فضرب عنقه بعد أن عرض عليه الإسلام فأبى[3].

وانتهى النبى ﷺ إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له : المريسيع ، وقد بلغ الناس مسير رسول الله ﷺ إليهم ، فتفرق عن الحارث من كان قد اجتمع إليه من أفناء العرب ، وضرب النبى صلى الله عليه وسلم ، قبة من أدم ، وكان معه من نسائه عائشة وأم سلمة ، رضى الله عنهما .

فصف النبى ﷺ أصحابه ، وقد تهيأ الحارث للحرب ، فلما دنا منهم نادى عمر بن الخطاب فى المشركين : قولوا : لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم ؛ فأبوا ، فتراموا بالسهام ، ثم أمر النبى ﷺ أصحابه فحملوا حملة شديدة ، فانهزموا ، ما أفلت منهم إنسان ، وقُتل منهم عشرة ، وأُسر سائرهم ، وسُبِيَتْ النساء والذرية ، وغُنمت الإبل والشاه ، ولم يُقتل من المسلمين إلا رجل واحد هو هشام بن صبابة ، أصابه رجل من الأنصار فقتله خطأ[4] ، ويُذكر أن أخاه مقبس بن صبابة قدم من مكة مظهراً للإسلام فطلب دية أخيه هشام من رسول الله ﷺ فأمر له النبى ﷺ بالدية فقبضها ، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله ، ثم ارتد ولحق بقريش ، وقال شعرا ، منه :

حللت به وترى وادركت ثؤرتى ∴ وكنت إلى الأوثان أول راجع

ثأرت به فهرا[5] وحملت عقله ∴ سراة بنى النجار أرباب فارع[6]

ولهذا كان قيس هذا من الأربعة الذين أهدر رسول الله ﷺ دمائهم يوم الفتح ،

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ١٥٨/١.

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١٦١/١).

(٤) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١٦٢/١).

(٥) فهرا : تعبا .

(٦) فارع : أشراف .

وإن وجدوه معلقًا فى أستار الكعبة[1] فقتله نكيلة بن عبد الله .

وأمر النبى ﷺ بالأسرى فكتفوا ، وأمر بما وُجد من سلاح ومتاع معهم فجُمع ، وسيقت النعم والشاه .

ففرق النبى ﷺ وسلم السبى وقسم المتاع والنعم والشاه ، وكانت الإبل ألفى بعير، وخمسة آلاف شاه، وكان السبى مائتى أهل بيت[2] .

وصارت جويرية بنت الحارث فى سهم ثابت بن قيس بن شماس ، فكاتبها ثابت على تسع أوراق من ذهب ، فبينا النبى ﷺ على الماء إذ دخلت عليه تسأله فى كتابتها ، وقالت : يا رسول الله ، إنى امرأة مسلمة ، وتشهدت وانتسبت ؛ وطلبت منه إعانتها ، فقال ﷺ : « أو خير ذلك ، أؤدى عنك كتابك وأتزوجك » ؟ قالت : نعم ، فطلبها من ثابت ، وأدى ما عليها واعتقها وتزوجها ، فكانت بركة علي قومها، إذ أُعتق السبى بسببها . ويقال : إن النبى ﷺ جعل فداءها عتق كل أسير من بنى المصطلق[3] ، وقيل : جعل صداقها عتق أربعين من قومها ، وافتدى باقيهم .

وقد برز النفاق فى تلك الغزوة ، وكادت الفتنة أن تقع لولا أن النبى ﷺ قد تداركها ، إذ كان لعمر بن الخطاب فى الجيش أجير يقال له : جهجاه بن مسعود ، فازدحم على الماء مع رجل من الخزرج يقال له : سنان الجهنى ، فاقتتلا ، فصرخ الجهنى: يا معشر الأنصار ، وصاح جهجاه : يا معشر المهاجرين ؛ فغضب عبد الله بن أبى سلول الذى سمع النداء - وكان عبد الله قد خرج مع المنافقين فى هذه الغزوة متظاهرا بالإسلام - فقال له ابن أبى : أو قد فعلوها ؟ ! لقد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أعدّنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأوَل : (سمّن كلبكَ يأكلكَ) أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾[4].

---

(١) البداية والنهاية - ابن كثير (١٥٨/٤).

(٢) إمتاع الأسماع - المقريزى (١٦٢/١).

(٣) إمتاع الأسماع - المقريزى (١٦٣/١).

(٤) سورة المنافقون ، الآية : ٨ .

فمشى بذلك زيد بن أرقم إلى رسول الله ﷺ عند فراغه من تلك الغزوة ، فقال عمر لرسول الله ﷺ : مر به عباد بن بشر فليقتله ، فقال ﷺ : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه » ، ثم أذن صلوات الله وسلامه عليه بالرحيل فى ساعة لم يكن يرتحل فيها ، ليشغل الناس عن حديث ابن أبى ، فعاد إلى المدينة بالأسرى والغنائم .

وفى تلك الغزوة وقعت (حادثة الإفك)[1] ـ ويقال : إنها كانت بعد الخندق سنة ست[2]، إذ كان النبى ﷺ كلما أراد سفراً أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، فلما كانت غزوة بنى المصطلق خرج سهم عائشة ، فخرج بها ، وعند عودة المسلمين إلى المدينة أذاع دعاة السوء حادثة الإفك حول السيدة عائشة ، ولكن الله سبحانه وتعالى برأها مما رُميت به ، وأنزل فى ذلك قرآنا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[3].

غزوة الخندق (الأحزاب)

وهى المعركة الحاسمة الثانية بعد غزوة بدر الكبرى ، فإنه وإن كان المسلمون قد نجحوا بعد أحد فى إعادة النظام إلى صفوفهم ، إلا أن النتيجة فى أحد لم تكن حاسمة لصالح أحد طرفى القتال المسلمين والمشركين .

ولا شك أن غزوة أحد وما أعقبها من أحداث قد مهدت الطريق إلى الخندق ، إذ تخلص المسلمون من يهود بنى قينقاع وبنى النضير ، فقوى بذلك مركزهم فى المدينة، وكان لذلك أثره على معنويات قريش، وكافة القبائل التى طمعت فى مهاجمة المدينة .

وقد استعاد المسلمون فى الفترة ما بين أحد والخندق سمعتهم ، وأصبح سلطانهم مهيبا فى المدينة وخارجها على حد سواء ، إذ لم تستطع قريش لقاء المسلمين فى بدر

---

(١) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/ ٦٥).

(٢) زاد المعاد ـ ابن القيم الجوزى (١/ ١١٥).

(٣) سورة النور ـ الآية : ١١ .

الصغرى ، ولأنها قدرت أن قوة المسلمين أكبر من أن تستطيع القضاء عليها وحدها ، كما لم تسطع القبائل أن تهاجم المدينة كلما أردات ، إذ هاجمها المسلمون على انفراد فى عقر دارها ، وأصابوها فيما تملكه من النعم والمتاع .

كما كان اليهود أضعف من أن يفكروا وحدهم فى التعرض للمسلمين ، ولكنهم كانوا يترقبون الفرص لنيل أغراضهم ، فكان لابد من تجمع قوى قريش والقبائل الأخرى واليهود فى جبهة واحدة ، للقضاء على المسلمين الذين أصبحوا بدرجة من القوة يصعب معها القضاء عليهم ، إن لم تحتشد كافة قوى أعدائهم من أجل ذلك .

فقام الموتورون من يهود بنى النضير ممن طُردوا من المدينة ومن غيرهم بتجميع هذه الجموع حول المدينة ، وحزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ .

فيروى ابن هشام[١] : أنهم خرجوا حتى قدموا مكة على قريش فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ، فاجتمعت قريش لذلك، واتعدوا ، وأخرج أبو سفيان خمسين رجلا من بطون قريش كلها ، وتحالفوا وتعاهدوا ألا يخذل بعضهم بعضا ، ولتكون كلمتهم واحدة على محمد ما بقى منهم رجل[٢].

وكانت قريش تدرك أن هذه الغزوة ستكون آخر محاولة جدية بين مكة والمدينة ، بعد أن طال النضال عدة سنين .

ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم أن قريشا قد تابعوهم على ذلك ، فاجتمعوا معهم فيه ، كما تابعهم على ذلك قبائل أخرى .

وتجمعت قوى الأحزاب فى جيش هائل لعل الجزيرة العربية لم تشهده من قبل ، إذ خرجت قريش فى أربعة آلاف رجل ، معهم ٣٠٠ فرس ، وألف وخمسمائة بعير ، بقيادة أبى سفيان بن حرب بن أمية (٣).

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام (١٨٧/٢).

(٢) سبل الهدى والرشاد ـ الصالحى (٥١٢/٤).

(٣) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٦٦/٢).

وخرج ستة ألاف من بنى سليم وأسد وفزارة وأشجع وغطفان ، حتى بلغ من وافى الخندق من المشركين عشرة آلاف[1] ، وهم الأحزاب .

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وما أجمعوا له من الأمر ، اتخذ فى هذه الوقعة موقف الدفاع ، فقد أشار عليه سلمان الفارسى أن يحفر خندقا عميقا واسعا شمال المدينة ، ويلتف حولها من الغرب ، وكانت الجهات الأخرى محصنة بالجبال والنخيل ، كما أشار سليمان أن تشبك أبنية المدينة وتسد مسالكها حتى تصبح حصنا واحدا ، فقبل رسول الله ﷺ رأى سلمان ، ودأب يعمل بنفسه ، ودأب معه المسلمون حتى أحكموا عمله .

ولا فرغ رسول الله ﷺ من الخندق ، أقبلت قريش ونزلت بمجتمع الأسيال من دومة بين الجرف ورغابة[2] .

ونزلت غطفان وقبائل نجد فى موضع ذَنَب نَقْمى إلى جانب أحد[3] .

فخرج إليهم رسول الله ﷺ فى ثلاثة آلاف من المسلمين حتى جعلوا ظهورهم إلى جبل سلع[4] ، فضرب هناك عسكره والخندق بينه وبين القوم .

وأمر النبى ﷺ بالنساء والذرارى فجعلوا فى آطام المدينة واستخلف عليها ابن أم مكتوم .

فما أن وصلت قريش والقبائل الأخرى إلى ضواحى المدينة ، حتى استطاع حيي بن أخطب التأثير على اليهود من بنى قريظة ، فنكثوا عهدهم مع المسلمين وانضموا إلى الأحزاب فلما بلغ ذلك النبى ﷺ قال : « حسبنا الله ونعم الوكيل» .

وعظم البلاء على المسلمين واشتد الخوف ، وخيف على النساء والذرارى ، فكان مما وصف الله من الخوف والشدة قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠﴾ هُنَالِكَ

---

(١) زاد المعاد ـ ابن القيم الجوزى (١/١١٧) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٢/١٨٩).

(٢) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس (ص ٥٨).

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) سبل الهدى والرشاد ـ الصالحى (٤/٥١٥).

ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾[١].

وظهر النفاق ، حتى قال متعب بن قشير : يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر ولا يقدر أحدنا أن يذهب إلى الغائط[٢].

وقد حكى القرآن الكريم عن ذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً ﴾[٣] وفى قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾[٤].

وحُصر النبى ﷺ وأصحابه بضع عشرة ليلة، حتى خلص إلى كل منهم الكرب[٥].

فبعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن ، وإلى الحارث ابن عوف ـ وهما قائدا غطفان ـ وراوضهما على أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فجرى بينه وبينهما الصلح ، حتى كتبوا على ذلك كتابا ، فأبت الأنصار أن يوافقوه عليه ، فترك رسول الله ﷺ ما كان أراد من ذلك .

وكان نعيم بن مسعود الأشجعى قد أسلم ، وقريش وقريظة وغطفان لا يعلمون ، فمشى نعيم بينهم ، وأبلغ هؤلاء عن هؤلاء كلاما ، وهؤلاء عن هؤلاء كلاما ، فقبلوا قوله ، وخذلهم عن رسول الله ﷺ واستوحش كل حزب من صاحبه ، وطلبت قريش من قريظة الرهن حتى يخرجوا فيقاتلوا معهم ، فأبت ذلك قريش واتهموهم .

واعتلت قريظة عليهم بالسبت ، وقالوا : علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه ، فمُسخوا قردة وخنازير .

---

(١) سورة الأحزاب ـ الآيتان : ١٠ ، ١١ .

(٢) صفوة التفاسير ـ سورة الأحزاب (ص ١١١٠).

(٣) سورة الأحزاب ، الآية : ١٢ ، ١٣ .

(٤) سورة الأحزاب ، الآية : ٢٤ .

(٥) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٦٩/٢).

فقال أبو سفيان : لا أرانى أستعين بأخوة القردة والخنازير[1] !! فتخاذل الفريقان وأرسل الله عز وجل على المشركين جندا من الريح ، فى ليلة شاتية شديدة البرد فجعلت تكفئ قدورهم ، وتطرح آنيتهم[2] ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[3].

فلما اتصل برسول الله ﷺ اختلاف أمرهم ، وما حل بهم وعلم برحيلهم عن الخندق، أذن النبى ﷺ للمسلمين في الإنصراف إلى منازلهم ، فخرجوا مبادرين مسرورين لذلك ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾[4].

• ثمرات الخندق :

لقد كانت غزوة الخندق ـ بحق معركة حاسمة فى تاريخ الإسلام بعد غزوة بدر الكبرى، إذ لو نجح اليهود والمشركون فى هذه المعركة لتغيرت وجهة التاريخ الإسلامى.

فيهود المدينة قد نكثوا عهودهم مع رسول الله ﷺ فراحوا يأتمرون مع المنافقين والمشركين بالنبى ﷺ وبالإسلام كله معه .

وكان الأجدر باليهود ، وهم أصحاب الكتاب السماوى ، أن يؤثروا جانب رسول الله ﷺ فينتصرون له فى مواجهة أعداء الدين ، لكنهم بدلا عن ذلك تآمروا مع الأحزاب للإلتفاف حول المدينة ، بغية القضاء على المسلمين .

يقينا إن فشل الأحزاب بعد هذا التجمع الهائل ، جعل المشركين فى مكة يؤمنون بأنه ممنوع ، وأن قوة غيبية قاهرة تؤيده وتشد أزره ، وجعلهم يوقنون أنهم لن يجتمعوا مرة أخرى ، ولا يفكرون فى غزوة بعد الخندق ، بل جعلهم يرضون بمهادنته ومصالحته على شروط يرضى عنها كل منهما ، وهذا ما وقع فى الحديبية .

---

(١) نفس المصد السابق .

(٢) السيرة النبوية ـ ابن كثير (٢١٦/٣).

(٣) سورة الأحزاب ، الآية : ٩ .

(٤) سورة الأحزاب : الآية : ٢٥ .

لقد انتقل المسلمون بعد هذه الغزوة من مرحلة الدفاع عن أنفسهم إلى مرحلة الهجوم على عدوهم ، فانتقلت المبادأة إلى يد المسلمين بعد هذه الغزوة ولم يتركوها حتى شمل الإسلام الجزيرة العربية كلها ، وارتفعت راية الإسلام شرقا وغربا ، ولذا قال النبى ﷺ لأصحابه بعد الخندق : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا » .

لقد استخدم النبى ﷺ فى تلك الغزوة أسلوبا ـ أو تكتيكا ـ جديدا فى القتال ، بأخذه بفكرة سلمان الفارسى ، بحفر الخندق والتى نال سلمان بها ثناء النبى ﷺ بقوله: « سلمان منا أهل البيت » .

ولعل النبى ﷺ اتخذ هذا الرأى عوْدا إلى الفكرة التى عُرضت قبيل غزوة أحد بأن يبقى المسلون بالمدينة ويكون الدفاع من الداخل ، وقد هُزم هذا الرأى فى غزوة أحد ، ولكن هزيمة أحد رجحته عندما تجمع الأحزاب ، وليقطع النبى ﷺ بذلك دابر العصبيات .

وقد أظهرت غزوة الأحزاب ما للنبى صلى الله عليه وسلم ، من قيادة قوية حازمة، بعكس ما كان عليه الأحزاب من وهن وتشتت ، إذ لم تكن للأحزاب قيادة موحدة تسيطر على قواتهم وتحكم سيطرتها على الأمور متى تطلب الأمر ذلك ، فكان لكل قبيلة قائد ، بل عدة قواد ، لم يستطيعوا تنظيم خطة موحدة للقضاء على المسلمين ، وكان من المستحيل اتفاقهم على قائد منهم ، لأن هذا القائد سينال شرفا عظيمًا يمتاز به عن الآخرين ، الذين لا يمكن لهم أن يرضوا بهذا الامتياز ، فكانت النعرة الجاهلية ، لا الهدف المشترك هى التى تسيطر على قيادتهم .

فبينما يصف القرآن الكريم بلاء النبى ﷺ بقوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾[1]، ويصف ثقة المسلمين برسول الله ﷺ وإيمانهم باتباعه ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيماً﴾[2]. بينما أمر المسلمين كذلك ، نجد أن ما كان سائدا بين الأحزاب واليهود هو الشك

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٢١ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية : ٢٢ .

والخوف والحذر فيما بينهم ، وقد احتشدوا فى مواجهة المسلمين على الخندق .

وقد كانت هذه الغزوة سببا مباشرا للقضاء على بنى قريظة بنص القرآن الكريم ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾[١] كما جعلت هذه الغزوة مشركى مكة يرضون بمهادنة النبى صلى الله عليه وسلم ومصالحته على شروط يرضى عنها كل منهما وهو ما وقع فى الحديبية .

بين الخندق والحديبية

ولأن النتيجة فى الخندق لم تكن حاسمة - كذلك - لصالح أحد طرفى القتال المسلمين والمشركين ، فقد كانت مرحلة ما بين الخندق والحديبية فترة توثب وإعداد للقاء فاصل يحسم الأمر لجانب أحدهما ، فقد غزا النبى ﷺ فيها غزوتين ، وهما : غزوة بنى لحيان ، وغزوة ذى قرد أو الغابة فى السنة السادسة للهجرة .

وكانت الأولى بهدف التعرض لبنى لحيان الذين غدروا برعاة المسلمين عند ماء الرجيع ، لكن هؤلاء فروا إلى رؤوس الجبال ، لما علموا بخروج النبى ﷺ فعاد ﷺ دون قتال[٢].

أما الغزوة الثانية : فكانت لملاحقة خيل غطفان التى أغارت على لُقاح رسول الله ﷺ بالغابة ، فخلّص النبى ﷺ بعضها من أيديهم[٣].

كما بعث رسول الله ﷺ بإحدى عشرة سرية إلى أنحاء متفرقة[٤]:

فكانت سرية عكاشة بن مِحْصن الأسدى إلى الغمر ، فى ربيع الثانى عام ست من

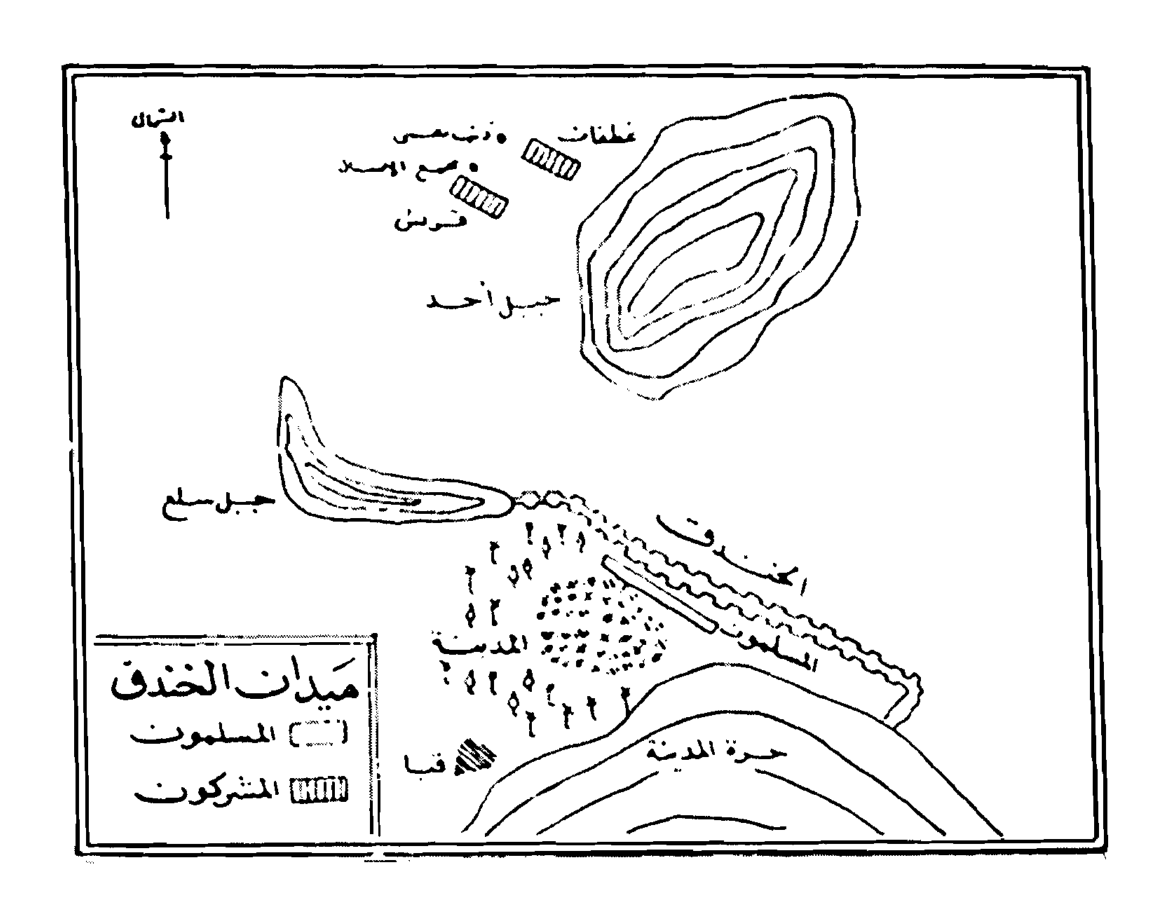
---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٢٦ .

(٢) راجع : زاد المعاد - ابن القيم الجوزى (١/١١٩) والطبقات الكبرى - ابن سعد (٢/٤٩) وعيون الأثر - ابن سيد الناس (ص ٨٣).

(٣) راجع : السيرة النبوية - ابن كثير (٣/ ٢٨٧) والطبقات الكبرى - ابن سعد (٢/ ٨٠ ، ٨١).

(٤) راجع : الطبقات الكبرى - ابن سعد (٢/٨٤) وعيون الأثر - ابن سيد الناس (٢/١٠٣) -، والغمر : ماء من مياه بنى أسد ، معجم البلدان - ياقوت ٤/٢١٢.


الشمال
غطفان
ذنب نقمى
مجمع الأسيال
قريش
جبل أحد
جبل سلع
الخندق
المسلمون
المدينة
قبا
حرة المدينة
ميدان الخندق
المسلمون
المشركون

الهجرة ، لملاقاة بنى أسد الذين هربوا ، فساق المسلمون مائتى بعير ، ثم عادوا من حيث أتوا .

وسرية محمد بن مسلمة إلى ذى القصة[1] فى ربيع الآخر سنة ست[2] من الهجرة.

ثم سرية أبى عبيدة بن الجراح إليها كذلك لملاقاة بنى ثعلبة وبنى عول ، الذين هربوا بعد قدوم أبى عبيدة ، على رأس أربعين من المسلمين ، فاستاق النعم والشاء ، وعاد إلى المدينة .

وسرية زيد بن حارثة إلى بنى سليم بالجموم[2] ، ثم إلي العيص[3] لملاقاة عير قريش ، ثم إلى الطرف[4] لملاقاة بنى ثعلبة ، وذلك فى ربيع الآخر وجمادى الأولى والآخرة عام ست ، فعادوا بالنعم والشاء والأسرى .

ثم سرية على بن أبى طالب إلى بنى سعد بفدك فى شعبان عام ست فهرب بنو سعد ، وعاد على بالغنائم .

وسرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة بوادى القرى .

ثم سرية كرز بن جابر الفهرى لملاحقة العرانيين الثمانية الذين قدموا على رسول الله ﷺ فأسلموا ، فأمر بهم إلى لقاحه التى ترعى فى قباء ، فكانوا فيها ، حتى غدوا على اللقاح فاستاقوها ، وقتلوا يسار مولى النبى ﷺ فأرسل النبى فى أثرهم كرزا ، فأسرهم ، وقدم بهم المدينة فقتلوا .

---

(١) راجع : الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/٨٥) وذى القصة : موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلا (معجم البلدان ـ ياقوت ٣٦٦/٤).

(٢) راجع : السيرة النبوية ـ ابن كثير (٣٣٨/٣) والجموم : أرض لبنى سليم على بعد أربعة برد من المدينة (طبقات ابن سعد (٢/ ٨٦).

(٣) راجع : الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢ / ٨٧) والعيص : موضع بينه وبين المدينة أربع ليال . ببلاد بنى سليم .

(٤) نفس المصدر السابق ، والطرف : ماء بينه وبين المدينة ستة وثلاثون ميلا .

وسرية عمرو بن أمية الضمرى إلى مكة لقتل أبى سفيان ، الذى بعث اعرابيا لاغتيال النبى ﷺ بالمدينة ، فلما رأى النبى ﷺ الأعرابى رابه أمره ، فأمر أسيد بن الحضير باسره ، وأرسل النبى ﷺ عمرو بن أمية الضمرى وسلمة بن أسلم للنيل من أبى سفيان بن حرب جزاء ذلك ، لكن انكشف أمرهما فهربا ، وقتلا مشركين فى طريق عودتهما للمدينة .

فحققت تلك السرايا الإسلامية أهدافها ، إذ قامت بتأمين الجماعة الإسلامية وإظهار قوة المسلمين ، وتأكيد هيبتهم ، وفرض سيطرة المسلمين على القبائل التى حول المدينة ، وضرب تجمعات القبائل التى كانت تحتشد فى البوادى لقتال المسلمين ، وإصابتها فيما تملكه من النعم والمتاع ، وملاحقة قريش وحلفائها أينما حلوا .

تلك هى سياسة الردع التى اتبعها النبى ﷺ ليهيئ الميدان للاقتراب أكثر فأكثر من هدفهم الأساسى (مكة) مرورا بالحديبية .

أمر الحديبية[1]

كانت الأحزاب آخر لقاء حبى بين المسلمين والمشركين ، فلم تحشد قريش جيشا بعدها لمقابلة النبى ﷺ وأصحابه .

ولقد عانى المسلمون فى غزوة الأحزاب ألوانا من العناء من أثر الحصار الطويل خلف الخندق .

ومضت مدة بعد غزوة الأحزاب ، ودخلت السنة السادسة للهجرة ، وسنوات ست كانت طويلة على المهاجرين ، عانوا خلالها أقسى المصاعب والأهوال فى الحروب والمناوشات ، كما أنهم لم يروا خلال تلك السنوات الست من تخلف من أهليهم بمكة ، وحرموا زيارة الكعبة التى يحنون إليها ويتوجهون من بعد للصلاة نحوها .

---

(١) الحديبية ـ بتخفيف الياء الثانية وتشديدها : قرية صغيرة بينها وبين مكة مرحلة واحدة ـ مسيرة يوم بالإبل ـ وبينها وبين المدينة تسع مراحل ، ويقال : أن بعضها من الحل وبعضها من الحرم ، وسميت بذلك لبئر فيها تسمى الحديبية (معجم البلدان ـ ياقوت الحموى ٢/ ٢٢٩).

وقد أحس النبى ﷺ نفسه بما أحس به باقى المسلمين ، وتمنى أن يحل الخير محل الشر بينه وبين أهله ، وتاق إلى زيارة بلده ومسقط رأسه ، حتى قال ﷺ : « يا ويل قريش ، لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ ! فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفه » .

فالبيت الحرام معظم عند العرب منذ مئات السنين ، يحجون إليه فى الأشهر الحرم، ويقدسونه ويعبدون أصنامه .

ولكن المسلمين كفروا بالأصنام ، بعد إيمانهم بالله عز وجل ، إلا أنهم لم يكفروا بالبيت العتيق .

فلماذا لا يزور المسلمون البيت الحرام ، ليرى العرب المجتمعون بمكة قوتهم وليتحدثوا عن احترامهم للبيت ؟ وبأى حق تمنعهم قريش دخول مكة للزيارة ثم العودة ، وليبق العداء بعد ذلك أو فليتوقف !!

وفى تلك الفترة رأى رسول الله ﷺ فى النوم عام الحديبية ، قبل خروجه ، أنه يدخل مكة هو وأصحابه ويحلقون ويقصرون : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[1].

وأمام هذه النزعة القوية لدى النبى ﷺ والمسلمين أمر ﷺ أصحابه بالتجهز للزيارة والطواف ، فماجت جموع المسلمين طربا لذلك وطمعوا فى حصوله .

وسرعان ما أذن محمد ﷺ فى أصحابه بالرحيل إلى مكة فاستجابوا .

ودعا النبى ﷺ العرب ومن حوله من أهل البوادى ليخرجوا معه حتى يكون فى

---

(١) سورة الفتح ، الآية : ٢٧ .

ذلك إعلان لقريش بوجه خاص ، والعرب جميعا ، بأن الرحلة لا هدف لها إلا العمرة ، إذ كان يخشى من قريش أن يتعرضوا له بحرب ، أو يصدوه عن البيت ، فأبطأ عليه كثير من الأعراب[١] .

فدخل بيته ، فاغتسل ، ولبس ثوبين ، وركب راحلته القصواء ، وخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق به من العرب وساق معه الهدى سبعين بدنة[٢] ، وأحرم بالعمرة ، وأعلن أنه لا يريد الحرب ولا يفكر فيها .

وكان خروجه ﷺ يوم الإثنين لهلال ذى القعدة (على الخلاف فى ذلك)[٣] .

واستخلف النبى ﷺ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ولم يخرج بسلاح إلا السيوف فى القرب[٤] ، ومن باب الحذر والاحتياط جمع عُدة القتال بوادى يأجج[٥] ، وأقام عليها الحراس ليلجأ إليها عند الحاجة .

وقد اختلف الرواة فى عدد من خرج مع النبى ﷺ إلى الحديبية ، اختلافا بينا : فقيل : كانوا ألفا وستمائة[٦] ، وقيل : كانوا ألفا وخمسمائة[٧] .

وتكاد تجمع روايات الطبرى[٨] على أن عدد المسلمين كانوا ألفا وأربعمائة ، ولم يخالف ذلك إلا رواية واحدة تقول : إن عددهم كان سبعمائة رجل ، ويوافقه فى ذلك

---

(١) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس (١/١١٣) .

(٢) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/٩٥) .

(٣) راجع : السيرة النبوية ـ ابن كثير (٣/٣١٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٤/٦٦) ، زاد المعاد ـ ابن القيم الجوزى (٤/١٢٢) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/٢١٢) .

(٤) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/٩٥) وتاريخ الرسل والملوك ـ الطبرى (٣/٧٢) .

(٥) يأجج : مكان يبعد عن مكة ثمانية أميال (معجم البلدان ـ ياقوت الحموى ٥/ ٤٢٤) .

(٦) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/٢٥) .

(٧) زاد المعاد ـ ابن القيم الجوزى (٤/١٢٢) .

(٨) تاريخ الرسل والملوك ـ ابن جرير الطبرى (٣/٧٢) .

ابن كثير[١] . وعند ابن خلدون[٢] : أن النبى ﷺ قد خرج بمن معه من الهاجرين والأنصار ، واتبعه من العرب بين الثلثمائة بعد الألف إلى الخمسمائة .

ثم لما كانوا بذى الحليفة[٣]، قلد[٤] رسول الله ﷺ الهدى وأشعره[٥].

ثم بعث النبى ﷺ عينا له من خزاعة ، حتى يأتيه بخبر قريش ، فلما كان قريبا من عسفان عاد إلى النبى ﷺ فقال له : «إنى تركت كعب بن لؤى قد جمعوا لك الأحابيش ـ وهم أحياء من العرب حالفوا قريشا ـ وتجمعوا معهم ، وجمعوا لك جموعا ، وهم مقاتلون ، وصادوك عن البيت»[٦].

فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه : هل يميل إلى الأعداء فيصيب منهم ؟.فقال أبو بكر : نرى يا رسول الله أن نمضى لوجهنا فمن صدنا عن البيت قاتلناه »[٧].

فأمرهم رسول الله ﷺ بالمضى ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق أخبرهم النبى ﷺ أن قريشا أرسلت خالد بن الوليد فى مائتى فارس من قريش إلى كراع الغمام[٨] ليصدوا المسلمين عن غايتهم[٩] فتحاشى المسلمون طريق خالد وعكرمة حتى وصلوا الحديبية على بعد ثلاثة أميال من شمالى مكة[١٠] على ماء قليل ، فشكى الناس إلى رسول الله ﷺ العطش ، فانتزع سهما من كنانته ، ثم أمرهم أن يضعوه فى البئر ،

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن كثير (٣/٣٢٥) وما بعدها .

(٢) تاريخ ابن خلدون (٢/٢١٩).

(٣) الحليفة : قرية بينها وبين المدينة ستة أو سبعة أميال ، وهى ميقات أهل المدينة (معجم البلدان ـ ياقوت ٣/٣٢٩).

(٤) قلد الهدى : وضع عليه قلادة .

(٥) الإشعار : شق جلد الهدى بطعنه فى سنامه الأيمن ، حتى يسيل منه دم ، ليعلم أنه هدى (مختار الصحاح ص ١٤٣).

(٦) زاد المعاد ـ ابن القيم الجوزى (٤/١٢٣).

(٧) المغازى ـ للواقدى (٢/ ٥٨٠).

(٨) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/٩٥).

(٩) المغازى للواقدى (٢/٦٠١).

(١٠) المغازى للواقدى (٢/٦٠١).

فما زال يجيش الماء حتى صدروا عنه[١].

ثم جرت السفراء بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش فأحب النبى ﷺ أن يبعث إليهم رجلا من أصحابه ، فأرسل خراش ابن أمية الخزاعى إلى أشراف قريش ، فعقرت قريش ناقته ، وأرادت قتله ، لولا حماية قومه له ، فخلوا سبيله على مضض[٢].

فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إليهم ، فقال عمر : يا رسول الله ليس لى بمكة أحد من بنى كعب يغضب لى إن أوذيت ، فارسل عثمان بن عفان فإن عشيرته بها .

فأرسل النبى ﷺ إليهم عثمان بن عفان[٣] الذى نزل جوار أبان بن سعيد طيلة بقائه فى مكة[٤].

وطالت غيبة عثمان بمكة ، وأشيع بين المسلمين أنه قد قتل[٥]، فدعا النبى ﷺ الناس إلى البيعة ، وجلس تحت شجرة فبايعوه على الموت وألا يفروا[٦]: ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾[٧]، ومن هذه الآية سميت تلك البيعة بيعة الرضوان .

ولما تمت البيعة ضرب رسول الله ﷺ بيسراه على يمناه ، وقال : « هذه عن عثمان » .

وأدركت قريش ـ بعد أن علمت بأمر هذه البيعة ـ أن محمداً قد أبى إلا أن يدخل عليهم مكة ، وأن من الحكمة أن يرسلوا إليه رسلهم لمفاوضته ، فأرسلوا إليه بديل ابن

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن كثير (٣/٣١٤).
(٢) المغازى للواقدى (٢/٦٠١) .
(٣) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/٩٦).
(٤) السية النبوية ـ ابن هشام (٢/٢٢٩).
(٥) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٢/٢٢٩).
(٦) تاريخ ابن خلدون (٢/٢١٩).
(٧) سورة الفتح ، الآية ١٨ .

ورقاء فى ركب من خزاعة[1] ، وأرسلوا إليه عروة بن مسعود الثقفى[2] ومكرز ابن حفص بن الأخيف[3] ، فكان جواب النبى ﷺ لهم : « إنا لم نأت لقتال أحد ، إنما جئنا لنطوف بهذا البيت » فعاد الرسل ينصحون قريشا بإيثار السلم ، لكن قريشا لم ترتض هذه النصيحة ، فعنفوا الرسل وبكتوهم .

فبعثوا الحليس بن علقمة[4] ، وهو يومئذ سيد الأحابيش ، وكان يتأله[5] ، فلما رأى الهدْى يسيل من عَرْض الوادى فى قلائده ، قد أكل أوباره من طول الحبس ، رجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظامًا له ، ونصح قريشًا أن تخلى بينه وبين الكعبة ، فقالوا له : اجلس فإنما أنت أعرابى لا علم لك ، فغضب الحليس ، وهدد قريشًا بالحرب إن لم تخل بين محمد وبين ما جاء له ، وإلا نفر بالأحابيش نفرة رجل واحد[6] ؟ فقالوا: مه ! كف عنا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

ثم كان سهيل بن عمرو ، آخر من جاء من قريش فى عدة من رجالهم[7] فقاضى رسول الله ﷺ على الصلح ، وطال بينهما الكلام والمراجعة[8] ، ولما التأم الأمر وتقارب ، أمر رسول الله ﷺ على بن أبى طالب أن يكتب شروط الصلح بينهما فى وثيقة ، أملاه النبى فى صدرها « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل : لا أعرف الرحمن ـ فنزل فى سهيل : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا لارحمن أيا ما تدعوه فله الأسماء الحسنى ﴾[9] ـ فقال النبى ﷺ لعلى : « اكتب باسمك اللهم » .

ثم قال ﷺ : « اكتب : هذا ما صالح عليه رسول الله » فقال سهيل : لو أعلم

---

(١) انظر : المغازى للواقدى (٢/٥٩٣).

(٢) انظر : الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/٥٩٤).

(٣) راجع المغازى للواقدى (٢/٥٩٩).

(٤) نفس المصدر السابق .

(٥) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/٩٦).

(٦) راجع : السيرة النبوية ـ ابن كثى (٣/٣١٦).

(٧) تاريخ ابن خلدون (٢/٢١٩) والطبقات الكبرى لابن سعد (٢/٩٧) .

(٨) المغازى ـ للواقدى (٢/ ٦١٠).

(٩) سورة الإسراء ، الآية : ١١.

أنك رسول الله ما خالفتك واتبعتك ، أفترغب عن اسمك واسم أبيك ؟ ! فقال رسول الله ﷺ : « أنا محمد بن عبد الله ، فاكتب » فكتب[1].

فجاء في وثيقة الصلح[2]: « باسمك اللهم ، هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو : اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن الناس، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه لا إسلال ولا إغلال[3]، وإن بيننا عيبة مكفوفة[4]، وأنه من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل ، وإن من أتى محمداً بغير إذن وليه رده إليه ، ومن أتى قريشا من أصحاب محمد لم ترده » .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الكتاب ، أشهد عليه أبا بكر وعمر ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وسعد بن أبي وقاص ، ومحمود بن مسلمة، وعلى بن أبي طالب ، ومكرز بن حفص ، وهو يومئذ مشرك .

وقد غضب المسلمون غضبا شديدا لما جاء بكتاب الصلح من شروط ، اعتبروها نصرا للمشركين ، ومذلة واستسلاما لهم ، حتى أن « عمر بن الخطاب » قد وثب إلى أبي بكر فقال له : يا أبا بكر ! أوليس برسول الله ؟! ، قال : بلى ، قال : فعلام نُعَطى الدنية في ديننا ؟! قال أبو بكر : الزَمْ غرزه[5] فإني أشهد أنه رسول الله ، فقال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله .

ثم أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! ألست برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أولَسنا بالمسلمين ؟ قال : « بلى » قال : فعلام نعطى الدنية في ديننا ؟ ! قال :

---

(١) المغازي للواقدي (٢/ ٦١١) .

(٢) راجع : تاريخ ابن خلدون (٢/ ٢٢٤) والمغازي للواقدي (٢/ ٦٢٠) ، الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/ ١٠٠).

(٣) الإسلال : السرقة الخفية . والإغلال : الخيانة والغدر .

(٤) عيبة مكفوفة : أي صدور منطوية على ما فيها ، لا تُبدى عداوة . (عيون الأثر ، ابن سيد الناس (١/ ١٢٧).

(٥) الغرز : ركاب من جلد ، توضع فيه الرجل . والمقصود : الزم أمره ، ولا تخالفه .

« أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره، ولن يضيعنى »[1].

وبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو إذ جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى الحديد ، قد أنفلت إلى رسول الله ﷺ [2]، وكان قد أسلم[3]، فقام إليه سهيل بن عمرو ، وقال : هذا أول ما نقاضى عليه ، فرده رسول الله ﷺ إلى أبيه .

وعظم ذلك على المسلمين ، وثارت نفوسهم ، وغرّهم الشيطان ، وضاقوا لذلك ضيقا شديدا ، لكن النبى ﷺ أخبر أبا جندل أن الله سيجعل له فرجا ومخرجا .

فلما فرغوا من قضية الكتاب ، قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « قوموا فانحروا ثم احلقوا » فما قام منهم رجل[4]، حتى قالها ثلاث مرات .

فلما لم يقم منهم أحد قام ﷺ فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقى من الناس ، فقالت أم سلمة : « أتحب ذلك يا رسول الله ؟ اخرج لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بُدنك ، وتدعو حالقك فيحلق لك » .

فأخذ رسول الله ﷺ برأى أم سلمة ، فقام فخرج لم يكلم أحداً من المسلمين حتى فعل ذلك ، فنحر بُدْنه ، ودعا حالقه فحلقه » .

فلما رأى الناس ذلك ، قاموا فنحروا ، وجعلوا بعضهم يحلق بعضا ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا من الغم[5].

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وفى رجوعه هذا أنزل الله تعالى عليه سورة الفتح وهو بين مكة والمدينة ، إذ نزل فى شأن الحديبية سورة الفتح من أولها إلى آخرها[6] . فقال عمر : أفَتْحٌ هو يا رسول الله ؟ قال : نعم » .

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن كثير (٣٠ /٣٢٠).

(٢) السيرة النبوية ـ ابن كثير (٣/٣٢١).

(٣) تاريخ ابن خلدون (٢/٢٢١).

(٤) المغازى للواقدى (٢/٣١٦).

(٥) تاريخ الرسل والملوك ـ الطبرى (٣/٨٠).

(٦) تفسير الجلالين (أسباب النزول الآية (١) من سورة الفتح).

• ثمرات الحديبية :

إن الذى يتدبر صورة المسلمين بعد صلح الحديبية ، لا مندوحة له أن يرى كأن الإسلام قد خَلَق خلقًا جديدا هذا الجيل ممن صاحبوا رسول الله ﷺ وانتفعوا بهديه العظيم .

لقد نزل فى هذا النصر قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾[1] إذ ذهب بعض المفسرين[2] إلى : أن المراد بالفتح « صلح الحديبية » لما ترتب عليه من الآثار العظيمة ، من بيعة الرضوان ، ومن الصلح الذى عقده النبى ﷺ مع قريش ، ومن دخول الكثيرين فى الإسلام ، إلى غير ما هنالك ، وإلى هذا ذهب ابن كثير .

وقد أبرزت أزمة الحديبية صفاء المسلمين ، واتجاههم إلى بيعة الرضوان ، واستعدادهم للتضحية مع رسول الله ﷺ مهما كانت النتائج ، كما كشفت عن موقف المنافقين من الأعراب ، ممن لم يلحقوا بركب رسول الله ﷺ وهو قاصد مكة للعمرة ، ومع أنهم كانوا كاذبين فى اعتذارهم ، فإن نفوسهم بدأت تعرف طريقها للحق والنور .

وسارت الدعوة الإسلامية بعد الحديبية سيراً سلسا ، إذ تفرغ المسلمون للتبشير بالإسلام داخل شبه الجزيرة العربية كلها ، وخارجها ، فأوفد النبى ﷺ دعاته إلى الملوك والأمراء والزعماء يدعوهم إلى الإسلام .

ولم يبق المسلمون بعد الحديبية محصورين فى المدينة ، بل خرجوا فقضوا على قوة اليهود فى خيبر ، وتيماء ، ووادى القرى، ومن قبل قضوا على قوة اليهود فى المدينة.

وبانهيار قوة اليهود ، وتوقف الصراع مع قريش إلى حين ، تفرغ المسلمون للإعداد لخصمهم الأكبر : قريش ، وهدفهم الأسمى : مكة المكرمة .

إذ كان صلح الحديبية مقدمة بين يدى الفتح الأعظم ، الذى هو فتح مكة فى رمضان سنة ثمان من الهجرة .

وإنما كان هذا الصلح فتحا ، مع أن المسلمين صُدُّوا عن البيت الحرام ، من حيث أن

---

(١) سورة الفتح ، الآية : ١ .

(٢) انظر تفسير القرآن لابن كثير ، وصفوة التفاسير للصابونى .

الناس تيقنوا به ، وتمكن من اختفى من المسلمين فى مكة من إظهار دينه ، ومن حيث أن كثيراً من المشركين دخلوا فى سلطان الإسلام بسبب هذا الصلح[1].

وآية ذلك نزول سورة الفتح ، وقد سأل عمر : أوَفَتْح هو يا رسول الله ؟ قال «نعم، هو فتح» . وقال أبو بكر : لم يُجلب نصر للإسلام ما جلب صلح الحديبية . وليس وراء بيان رسول الله ﷺ بيان .

وكان خروج المسلمين لزيارة البيت العتيق فرصة لإعلان دعوتهم ، إذ أظهروا تعظيمها للبيت العتيق ، فتسامع العرب بذلك ، ورأوا أن قريشا قد ظلمت المسلمين ، إذ ليس لها أن تحرم أحداً جاء لزيارة البيت وتعظيمه .

كما استطاع عثمان بن عفان أن يتصل بالمسلمين فى مكة ، ويوجههم إلى أهداف الإسلام ودعوته ، إذ أن النبى ﷺ حين أرسله لمفاوضة قريش ، أن يأتى رجالا بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات ، فيدخل عليهم ، ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخفى فيها الإيمان : ﴿ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾[2].

وما كاد عهد الحديبية يبرم ، حتى حالفت خزاعة النبى ﷺ فربح المسلمون حليفا قويا له أهميته ، لقرب دياره من قريش .

وقد جعلت هذه الهدنة الاتصال ببلاد العرب الجنوبية أمراً ميسوراً فى ذلك الحين ، ففى السنة السابعة للهجرة جاء وفد من قبيلة بنى دوس - تلك الجبال التى تتاخم بلاد اليمن الشمالية - وانضموا إلى النبى ﷺ فى المدينة ، وكان عددهم يتراوح ما بين السبعين والثمانين أسرة يتزعمهم طفيل بن عمرو .

كما اعترفت قريش فى هذه المعاهدة بكيان المسلمين ودينهم ، كطرف مساو لقريش ، إذ المعاهدة لا تكون إلا بين ندين .

وهذا أول اعتراف بالدولة الإسلامية من ألد أعدائها وأشدهم فى الحجاز ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾[3].

---

(١) راجع : تاريخ الرسل والملوك للطبرى (١٠٢/٢) وما بعدها .

(٢) سورة الفتح ، الآية : ٢٥ .

(٣) سورة الفتح ، الآية : ٢٦ .

سرايا السيطرة على الأعراب

بعد الاتفاقية التى تمت بين النبى ﷺ وقريش ، أتاحت تلك الاتفاقية الوقت ليتفرغ النبى ﷺ لخصومه من حلفاء قريش وغيرهم ، ويريهم من بأسه وقوته ، ويخضعهم لسلطانه ، حتى إذا انتهت الهدنة وعادت قريش إلى ما كانت عليه قبلها ، لم تجد من يناصرها من حلفائها وحلفاء اليهود .

فبعث رسول الله ﷺ فى عام سبع ، وعام ثمان من الهجرة بسرايا المسلمين للسيطرة على الأعراب وتأديبهم بهدف تأمين شمالى المدينة بصفة خاصة ، ومنع غارات الأعراب على المدينة ، وحماية الدعاة المسلمين من غدر القبائل بهم .

فبعث ﷺ بثلاث عشرة سرية لتحقيق هذا الهدف :

إذ بعث عمر بن الخطاب ، إلى عجز هوزان بتربة[١] ، فى شعبان سنة سبع ، وقد عادت سرية عمر بدون قتال لفرار المشركين[٢] .

كما بعث أبا بكر الصديق ، إلى بنى كلاب بنجد ، فى شعبان سنة سبع كذلك فصبحهم ، وقتل منهم ، وسبى آخرين ، ثم عاد إلى المدينة[٣] .

وبعث غالب بن عبيد الليثى إلى الميفعة[٤] فى رمضان سنة سبع ، فلقوا عوال وبنى عبد ابن ثعلبة ، وقتلوا بعضهم ، واستاقوا النعم والشاء ، وعادوا إلى المدينة .

وبعث بشير بن سعد الأنصارى ، إلى يُمن وجُبار بغطفان[٥] ، فى شوال سنة سبع ، فرجع بشير بالنعم ، وأسر منهم رجلين ، عاد بهما إلى المدينة ، فأسلما[٦] .

وبعث غالب بن عبيد الله الليثى إلى بنى الملوح بالكَديد[٧] ، وبنى مرة بفدك ،

---

(١) تربة : واد قرب مكة ، على مسافة يومين منها (معجم البلدان ـ ياقوت ٢ / ٢٠) .

(٢) انظر عيون الأثر ـ ابن سيد الناس (١ / ١٤٥) .

(٣) انظر الطبقات الكبرى ـ لابن سعد (٢ / ١١٧) .

(٤) الميفعة : موضع بناحية نجد (طبقات ابن سعد ٢ / ١١٩) .

(٥) يمن : ماء لغطفان . جبار : ماء لبنى خميس من قضاعة (معجم البلدان ، ياقوت ٣ / ٤٣) .

(٦) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢ / ١٢٠) .

(٧) الكديد : موضع بالحجاز ، على اثنين وأبعين ميلا من مكة (معجم البلدان ـ ياقوت ٧ / ٢٢٤) .

فاستاقوا النعم ، وأصابوا منهم قتلى ، ثم عادوا .

وبعث ﷺ شجاع بن وهب الأسدى ، إلى بنى عامر ، بالسِّيِّ[1] فى ربيع الأول سنة ثمان ، فعادوا إلى المدينة بعد خمس عشرة ليلة ، بعد أن استاقوا نعمًا كثيرا وشاء .

وبعث كعب بن عمير الغفارى ، إلى ذات أطلاح[2] فى ربيع الأول سنة ثمان فلقوا جمعًا من المشركين ، فدعوهم للإسلام ، فلم يستجيبوا ، وأرشقوهم بالنبل ، فاستشهدوا جميعا ـ وكانوا خمسة عشر رجلا من المسلمين ـ عدا واحد من المسلمين عاد وأخبر باستشهادهم ، وكانت تلك الواقعة أحد أسباب غزوة مؤتة .

وبعث ﷺ سرية الخبط[3]، بقيادة أبى عبيدة بن الجراح ، إلى حى من جهينة بالقَبَلية، فأصابهم فى الطريق جوع شديد ، فأكلوا الخِبْط ، وانصرفوا إلى المدينة .

وبعث رسول الله ﷺ أبا قتادة بن ربعى الأنصارى إلى خَضِرة بغطفان ، فقتل المسلمون بعضهم ، وعادوا بنعم وشاء إلى المدينة[4].

وبعث رسول الله ﷺ أبا قتادة الأنصارى إلى بطن أضم[5] فى أول شهر رمضان سنة ثمان ، وذلك لما هم بغزو أهل مكة ، ليظن ظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية ، حتى تذهب بذلك الأخبار ، فلا يعرف المشركون نواياه الحقيقية بمهاجمة أهل مكة .

وقد بلغت تلك السرية هدفها دون أن تلقى كيدا ، بلغهم أن المسلين توجهوا إلى مكة ، انصرفوا حتى لقوا النبى ﷺ .

وقد أدت سياسة الردع هذه ثمارها ، إذ أشعرت تلك الجماعات بقوة المسلمين ، وأن بإمكانهم القيام بفك أى تحالف ربما يكون قد نشأ بين قريش وهذه القبائل فى مواجهة المسلمين .

---

(١) السى : فلاة بنجد (معجم البلدان ـ ياقوت ٥/٢٠٣).

(٢) ذات أطلاح : موضع من وراء وادى القرى إلى المدينة (معجم البلدان ياقوت ٥/١٩).

(٣) الخبط : ورق الشجر . والقبلية : سراة فيما بين المدينة وينبع (معجم البلدان ـ ياقوت ٧/٢٩).

(٤)

(٥)

إذ لم يكن من مندوحة لمحمد [إذ أراد أن ينتصر ، وإذا أراد لدينه أن يحصن نفسه فى هذه البيئة بأصلح الأسلحة المؤثرة فيها ، وهى إشعار القبائل التى لا تدين بدينه ، وليس بينه وبينهخا موادعة ، أنه قادر على ردعها وتهوينها بل قهرها وحماية دينه ودولته من طغيانها إذا لزم الأمر .

عمرة القضاء

بعد عام من غزوة الحديبية ، خرج رسول الله ﷺ فى ذى الحجة ، فى الشهر الحرام الذى صدوه عنه من سنة ست ، معتمرا عمرة القضاء[1] - أو القضية - أو عمرة القصاص[2].

إذ أذن مؤذن النبى ﷺ فانطلقت الجموع من المدينة وهى أشد ما تكون بشرا وغبطة .

وقد انصرف هم النبى ﷺ إلى تأمين سلامة أصحابه ، وتوفير الأمان والراحة لهم، فلما كان الشرط الذى أخذه المشركون عليهم واجب الوفاء ، بألا يحملوا معهم من السلاح إلا السيوف فى القرب ، فقد وفى النبى ﷺ بذلك ، ولأنه لم يكن يأمن غدر قريش ، فإنه حمل معه عدة الحرب ، وأودعها وادى يأجج ، وأقام عليها حراسة حتى لا تمتد إليها يد ، وحشد مائة فارس فكانوا طليعة بين يديه ، وأمر عليهم محمد بن مَسلمة ، وأوصاهم إن هم أنسوا من القوم غدراً أن يخفوا لنجدتهم .

فلما سمع أهل مكة بخروج النبى ﷺ أخلوا له مكة ، ثم وقفوا عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه .

---

(١) سميت هذه العمرة عمرة القضاء : لأن رسول الله ، صلي الله عليه وسلم ، قاضى عليها قريشا ، وقيل: لأنه قضى فيها العمرة التى صد فيها عن البيت .

(٢) يطلق بعض أهل العلم على هذه العمرة اسم « عمرةالقصاص » وفى هذا يقول صاحب الروض الأنف : « هذا الاسم أولى بهذه العمرة ، لأن الله تعالى قال : { الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص } البقرة ١٩٤ فهذه الآية نزلت فى تلك العمرة ، فكان القصاص أولى بها وقد أيد المفسرون هذا الرأى بقولهم : إن المشركين قد فخروا عليه حين ردوه ، فأقصه الله منهم ، راجع تفسير الجلالين ، صفوة التفاسير - أسباب نزول الآية ١٩٤ من سورة البقرة).

وتحدثت قريش فيما بينها أن النبى ﷺ فى عسر ، وجهد ، وشدة ، وزعموا أن حمى يثرب قد أضوت منهم الجسم ، وأوهنت العظم .

ولهذا لما دخل النبى ﷺ المسجد اضطبع بردائه ، فأخرج عضده اليمنى ، ثم قال : « رحم الله امرءا أراهم اليوم من نفسه قوة »[1] ثم استلم الركن ، وخرج يهرول ، ويهرول أصحابه معه .

وقد أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثا ـ كما تقضى بذلك المعاهدة ـ ثم انصرف إلى المدينة .

وقد تزوج النبى ﷺ فى سفره هذا بميمونة بنت الحارث[2] ، ولم يتركه المشركون ليعرس فى مكة ، بل طالبوه بالخروج بعد الثلاث التى اشترطاها ، فغادر النبى ﷺ وأصحابه مكة وبنى بميمونة بسَرِف[3] ليفى بعهوده .

فيالجلال تلك اللحظات ، ويالروعة هذا النصر ، لقد كان رسول الله ﷺ بعيد النظر عندما أصر على قبول شروط الحديبية ، فقد عرف بفكره الثاقب أن قبول هذه الشروط نصر للمسلمين .

ولا مرية فى أن دخول النبى ﷺ مكة الآن لا يقل أهمية وقيمة عن خروجه منها يوم خرج ، فكلاهما انتصار ، إذ أصبح فتح مكة بعد هذه العمرة أمراً لم يعد يشك فيه أحد .

الفتح الأعظم
فى رمضان سنة ثمان

إن فتح مكة ـ بلا ريب ـ هو الفتح الأعظم ، لأنه الفتح الذى أعز الله به الإسلام وبه دخل الناس فى دين الله أفواجا ، فأقبلوا على رسول الله ﷺ يعلنون إسلامهم ،

---

(١) الكامل ـ ابن الأثير (٢/٢٢٧).

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) سرف : موضع على ستة أميال من مكة ، وقيل : سبعة ، وتسعة ، واثنى عشر ، تزوج به رسول الله ، صلي الله عليه وسلم ، ميمونة بنت الحارث ، وهناك بنى بها ، وهناك توفيت . (معجم البلدان ـ ياقوت ٣/٢١٢).

ويأخذون عنه ، ويفدون إليه .

وقد ذكره الله تعالى فى القرآن الكريم فى غير موضع ، فقال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾[1]، وقال سبحانه وتعالى : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ③ ﴾[2].

وكانت قد ظهرت فى الأفق بوادر عدة مهدت لهذا الفتح الأعظم ، إذ كانت غزوة الحديبية مقدمة بين يدى هذا الفتح ، فقد قضى المسلمون فى فترة الهدنة على أقوى وأوفى نصير لقريش ، وهم اليهود .

وأخذ نفوذ المسلمين يمتد ، فأحاط بمكة من كل جانب ، إذ انضمت لهم كثير من بلاد الجنوب ، وتبعهم كثير من القبائل فى الشمال ، وبقيت مكة وحدها على الشرك .

كما كانت قد تغيرت أحوال مكة وقت الفتح عما كانت عليه قبل هجرة النبى ﷺ إلى المدينة ، فقد أهلكت الحروب الكثيرين ممن كانوا يدعون للقضاء على محمد ، كأبى جهل وعتبة وشيبة ، وكان هناك أبطال مغاوير تعتمد عليهم مكة عند النفير ، كخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة ، ولكن هؤلاء لحقوا بمحمد .

وأهل مكة الباقون على الشرك قد وهزتهم انتصارات المسلمين وهفَت قلوبهم إليهم ، وقتما كانوا يرفعون أصواتهم مهللين ملبين عند طوافهم بالبيت بعد أن أخلت قريش مكة لهم .

وكان قد نشأ فى مكة جيل جديد سمع بالإسلام منذ المهد ونعومة الأظافر ، فلم تتعمق عبادة الأصنام فى نفسه .

وكان هناك ﴿ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾[3].

---

(١) سورة الحديد ، الآية : ١٠ .

(٢) سورة النصر ، بأكملها .

(٣) سورة الفتح ، الآية : ٢٥ .

وقد أحس كثير من أهل مكة بالعقوق ، فالدين الذى نبع من مكة اعتنقه معظم بلاد العرب إلا مكة ، ومحمد القرشى أصبح حظيا عند أكثر العرب إلا قريش فقد ظلت قريش على عبادة الأوثان ، بينما دخل فى دين الله معظم العرب .

وقد فقدت قريش أمن تجارتها إلى الشمال أو الجنوب ، بعد أن قطع نفوذ المسلمين عليها كل السبل .

واتيحت للمسلمين الفرصة لدخول مكة ، بنقض قريش عهدها مع المسلمين ، إذ أنه لما نص عهد الحديبية « أن من شاء أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن شاء أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه » ، تواثبت خزاعة وقالوا : نحن ندخل فى عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر وقالوا : نحن ندخل فى عقد قريش وعهدها[1].

فمكثوا فى تلك الهدنة نحو الثمانية أو السبعة عشر شهراً[2]، إلى أن عدا بنو بكر على خزاعة وهم على ماء لهم يقال له : الوتير[3]، فأعانت قريش بنى بكر على خزاعة وقاتل معهم ن قريش متخفين[4]، فانحازت خزاعة إلى الحرم وقتل منهم نفر ، فسارع عمرو بن سالم الخزاعى - أحد بنى كعب - إلى النبى ﷺ حاملا أخبار نقض قريش وبنى بكر لعهد الحديبية ، فأجابه النبى ﷺ « نصرت يا عمرو بن سالم »[5]، ثم خرج بديل ابن ورقاء فى نفر من خزاعة ، حتى قدموا المدينة ، فأخبروا النبى ﷺ بما أصابهم ، فعزم ﷺ على فتح مكة .

قدر عقلاء مكة ما يعنيه نقض الهدنة بينهم وبين المسلمين ، فأوفدوا أبا سفيان بن حرب إلى المدينة ليجدد العهد ويزيد مدته ، فأبى رسول الله ﷺ عليه ذلك .

---

(١) البداية والنهاية - ابن كثير (٢٧٨/٤).
(٢) نفس المصدر السابق .
(٣) السيرة النبوية - ابن هشام (٣/٤).
(٤) الكامل - ابن الأثير (٢/ ٢٣٩).
(٥) السيرة النبوية - ابن هشام (٦/٤) .

ثم انصرف أبو سفيان إلى مكة ليخبر قريشا بما لقى من صدود .

وتجهز رسول الله ﷺ لفتح مكة ، وأخفى أمره حتى يباغت قريشا ، وأعلم أصحابه أنه سائر إلى مكة ، وأمرهم بالجد والتهيؤ[1] .

فلما أجمع على المسير ، كتب حاطب بن أبى بلتعة كتابا إلى أهل مكة يخبرهم بذلك ، وقال لهم : إن رسول الله ﷺ يريد أن يغزوكم فخذوا حذركم ، ثم أرسل الكتاب مع ظعينة من مزينة ، اسمها : كنود - وقيل : مع سارة ، مولاة لبنى المطلب[2] ، فنزل الوحى على رسول الله ﷺ يخبره بذلك فبعث رسول الله ﷺ عليا والزبير والمقداد ، حتى أتوا المرأة فى روضة خاخ[3] ، وطالبوها بإخراج الكتاب ، وهددوها بإلقاء ثيابها عنها إن لم تخرجه ، فأخرجته من بين ضفائرها ، واستدعى النبى ﷺ حاطبا ، وسأله عما صنع ، فأجابه : (يا رسول الله لا تعجل على ، إنى كنت امرءا ملصقا فى قريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذا فاتنى ذلك من النسب أن أتخذ يدا أحمى بها قرابتى ، وما فعلت ذلك كفرا وارتدادا عن دينى) فقال عمر : دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق .

فقال عليه الصلاة والسلام : « إنه شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ! » فنزلت : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** ﴾[5] .

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٨/٤).

(٢) راجع الكامل ـ لابن الأثير (٢٤٢/٢).

(٣) روضة خاخ : مكان على بعد قليل من المدينة (معجم البلدان . ياقوت ٣/ ٨٨).

(٤) عقاصها : ضفائر شعرها .

(٥) انظر صفوة التفاسير (سبب نزول الآية الأولى من سورة الممتحنة) ، والسيرة النبوية ـ ابن هشام (٢٩/٤).

ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى من حوله من قبائل الأعراب أسلم ، وغفار ومزينة ، وجهينة ، وأشجع ، وسُليم ، وغَطفان ، وطوائف من أسد وقيس ، وتميم ، وغيرهم .

فمنهم من وافاه بالمدينة ، ومنهم من لحق به فى الطريق ، فكان جيش المسلمين عشرة آلاف رجل .

وخرج رسول الله ﷺ لفتح مكة يوم الأربعاء لعشر ليال خلون من مضان ، بعد العصر[١] ، واستعمل على المدينة : أبارُهْم كُلثوم بن حصين ، ثم قدم أمامه بعد حين من المسير الزبير بن العوام ، فى مائتين من المسلمين ، ونادى منادى رسول الله ﷺ : « من أحب أن يفطر فليفطر ، ومن أحب أن يصم فليصم »[٢].

ثم ساروا ، فلما كانوا بقديد[٣] عقد الألوية والرايات ، ودفعها إلى القبائل ، ثم مر بالظهران عشاء ، فأمر أصحابه ، فأوقدوا عشرة آلاف نار مما بلّغ قريشا مسيره وهم معتمون ، لما يخافون من غزوه إياهم .

فخرج أبو سفيان بن حرب ، وبديل بن ورقاء ، وحكيم بن حزام ، يتحسسون الأخبار[٤] بعد ما رأوا النيران ، فلما رأوا العسكر فزعوا .

وكان العباس عم النبى ﷺ قد خرج من معسكر المسلمين ، راكبا بغلة رسول الله ﷺ لعله يجد من يأتى مكة ، فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ حتى يخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يفتحها عليهم عنوة[٥] ، فسمع العباس وهو فى طريقه صوت أبى سفيان ، فناداه ، وأخبره بمجيء جيش المسلمين ، ثم أجاره ، وخرج به وبصاحبيه حتى أدخلهم على رسول الله ﷺ فأسلم ثلاثتهم[٦].

فقال العباس : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئا .

---

(١) الطبقات الكبرى - ابن سعد (٢/ ١٣٥).

(٢) الطبقات الكبرى - ابن سعد (٢/ ١٣٥).

(٣) قديد : اسم موضع قرب مكة (معجم البلدان - ياقوت ٤/ ٣١٣).

(٤) سيرة النبى - ابن إسحاق (٤/ ٨٥٩).

(٥) البداية والنهاية - ابن كثير (٤/ ٢٨٨).

(٦) زاد المعاد - ابن قيم الجوزيه (٢/ ١٦٣) ، والبداية والنهاية - ابن كثير (٤/ ٢٨٨) .

فقال : « نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .

وأوصى الرسول ﷺ العباس ، أن يحجز أبا سفيان فى مضيق الوادى ، عند خطم الجبل ، حتى تمر به جنود الله فيراها[1].

ومرت القبائل على راياتها حتى مر الرسول ﷺ فى كتيبته الخضراء ، وفيها المهاجرون والأنصار ، لا يُرى منهم إلا الحدق من الحديد . فقال أبا سفيان : من هؤلاء يا عباس ؟ ! قال : هذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار ؛ فقال : ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما ، قال العباس : يا أبا سفيان ، إنها النبوة ؛ قال : نعم إذن .

فاسرع أبو سفيان إلى مكة ، ودخلها مبهوراً مذعوراً ، حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ! هذا محمد ، قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبا سفيان فهو آمن .

فقالت قريش : قاتلك الله ، وما تغنى عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ؛ فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد[2].

وقد قسم رسول الله ﷺ جيش الفتح إلى أربعة فرق :

أ) الميسرة : بقيادة الزبير بن العوام ، وتدخل مكة من شمالها ، فى ناحية كداء.

ب) الميمنة : بقيادة خالد بن الوليد ، وتدخل مكة من جنوبها .

جـ) قوات الأنصار : بقيادة سعد بن عبادة ، وتدخل مكة من الغرب ، فى ناحية كداء .

د) قوات المهاجرين : بقيادة أبى عبيدة بن الجراح ، وتدخل مكة من الشمال الغربى من اتجاه جبل هند .

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن إسحاق (٤/٨٦٣) .

(٢) راجع السيرة النبوية ـ لابن إسحاق (٤/٨٦٤).

ثم أُخذت راية الأنصار من سعد بن عبادة ، عندما بلغ النبى ﷺ أن سعد كان يقول :

اليوم يوم الملحمة .·. اليوم تستحل الحرمة

فأخذها النبى ﷺ ودفعها إلى ابنه قيس بن سعد ، تجنبا لإثارة الفتنة ، وإشعال نار الحرب[2]، وقيل : إن النبى ﷺ دفعها إلى على بن أبى طالب ، لا قيس[3].

• الفتح الأعظم :

دخلت جيوش الفتح الإسلامى مكة ، ودخل رسول الله ﷺ من ناحية أذاخر ، ونهى عن القتال .

فلما ظهر ﷺ على ثنية أذاخر ، رأى آثار معركة ، فقال : « ألم أنه عن القتال؟ » ! فقيل : خالد بن الوليد ، قوتل فقاتل ، فقال النبى ﷺ : « قضاء الله خير »[4].

وقد ضُربت لرسول الله ﷺ قبة من أدم ، فى موضع يعرف بالحَجون ، فمضى الزبير بن العوام برايته حتى ركزها عندها ، وجاء رسول الله ﷺ فدخلها فقالوا له : ألا تدخل منزلك ؟ فقال : وهل ترك لنا عُقيل منزلا ؟[5].

وكان دخول رسول الله ﷺ مكة عنوة ، وطاف بالبيت على راحلته ، إذ لم يكن محرما فاقتصر على الطواف[6]، وكان حول الكعبة ثلثمائة وستون صنما ، فجعل لا يمر بصنم منها إلا ويشير إليه بقضيب فى يده ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن

---

(١) زاد المعاد ـ ابن القيم الجوزى (٢/١٦٤) ، والسيرة النبوية ـ ابن إسحاق (٤/٨٦٥) ، والطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/١٣٥).

(٢) السيرة النبوية ـ ابن إسحاق (٤/٨٦).

(٣) السيرة النبوية ـ ابن إسحاق (٤/٨٦٥).

(٤) المغازى للواقدى (٣/٧٥) ، وعيون الأثر ـ ابن سيد الناس (١/١٤٢).

(٥) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/١٣٦).

(٦) زاد المعاد ـ ابن قيم الجوزى (٢/١٦٥).

الباطل كان زهوقا » ، ثم جاء ﷺ إلى مقام إبراهيم - وكان ملاصقا للكعبة - فصلى خلفه ركعتين ، ثم جلس ناحية من المسجد ، وأرسل بلالا إلى عثمان بن طلحة أن يأتى بمفتاح الكعبة ، فجاء به عثمان ، فقبضه رسول الله ﷺ وفتح الباب[١]، ودخل الكعبة، فرأى الصور تملؤها ، ومن بينها صورتان لإبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام[٢] فمحا ما بالكعبة من صور ، ثم صلى فيها ركعتين ، وأخذ بعضادتى الباب والمفتاح معه ، ووقف على باب الكعبة يخطب الناس ، وقريش تنتظر ما يصنع، فقال: « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو مال فهو تحت قدميّ هاتين ، إلا سدانة البيت ، وسقاية الحاج ، يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالآباء ، الناس من آدم، وآدم من تراب ، ثم تلا هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[٣]، يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . فقال ﷺ : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ودعا رسول الله ﷺ عثمان بن طلحة فدفع إليه مفتاح الكعبة ، ودفع السقاية إلى العباس[٤].

وحانت الظهر ، فأذن بلال فوق ظهر الكعبة ، وقال رسول الله ﷺ : « لا تُغزى قريش بعد هذا اليوم ، إلى يوم القيامة »[٥].

فلما كان من الغد يوم الفتح ، خطب رسول الله ﷺ بعد الظهر ، فقال : « إن الله قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام إلى يوم القيامة ، ولم تحل لى إلا ساعة من نهار ، ثم رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغ شاهدكم غائبكم ، ولا يحل لنا

---

(١) السيرة النبوية - ابن هشام (٤/٥).
(٢) السيرة النبوية - ابن كثير (٣/٤٢٠).
(٣) سورة الحجرات ، الآية : ١٣ .
(٤) السيرة النبوية - ابن هشام (٤/٨).
(٥) الطبقات الكبرى - ابن سعد (٢/١٣٧).

من غنائمها شيء »[1].

وبعد فتح مكة ، قام الرسول ﷺ على الصفا ، يدعو الله ويشكره ، وكان الأنصار يحيطون به ، فقال بعضهم لبعض سراً : أترون رسول الله ﷺ وقد فتح الله عليه أرضه ودياره يقيم بها ؟ فلما فرغ الرسول ﷺ من دعائه سألهم : « ماذا قلتم ؟ » فقالوا: لا شيء يا رسول الله . فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال ﷺ : « معاذ الله ، المحيا محياكم، والممات مماتكم »[2].

وقَضى على ماضٍ مرير استمر ـ رغم ظهور الإسلام ـ أكثر من عشرين سنة على عبادة الأصنام ، ولم يعد يُنادى من فوق الكعبة إلا باسم الله لا إلا هو وحده لا شريك له ، لقد انتصر محمد ﷺ وانتصر دينه ، وتوافد الناس يبايعون النبى ﷺ على الإيمان بالله ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

أما الذين أهدر النبى ﷺ دماءهم فقد ضاقت بهم الأرض على سعتها ، فها هى عشرة آلاف سيف ممدودة إليهم ، ولا مفر ، لكن رحمة النبى ﷺ وبره ، وسعة صدره ، قد وسعت ذلك كله ، فعفا عنهم ، إلا أربعة قُتلوا بأعمالهم ، وهم : عبد الله بن خطل: وكان قد أسلم ثم ارتد ، والحويرث ابن نفيل : كان ممن يؤذون محمداً بمكة ، وهو الذى نخس جمل فاطمة وأم كلثوم عندما أركبهما العباس ليلحقا بأبيهما أول الهجرة فسقطا إلى الأرض ؛ ومقيس بن ضبابة ـ وقد سبق التعريف به عند الحديث عن بنى المصطلق ورابعتهما : قينة لعبد الله ابن خطل قتلت معه .

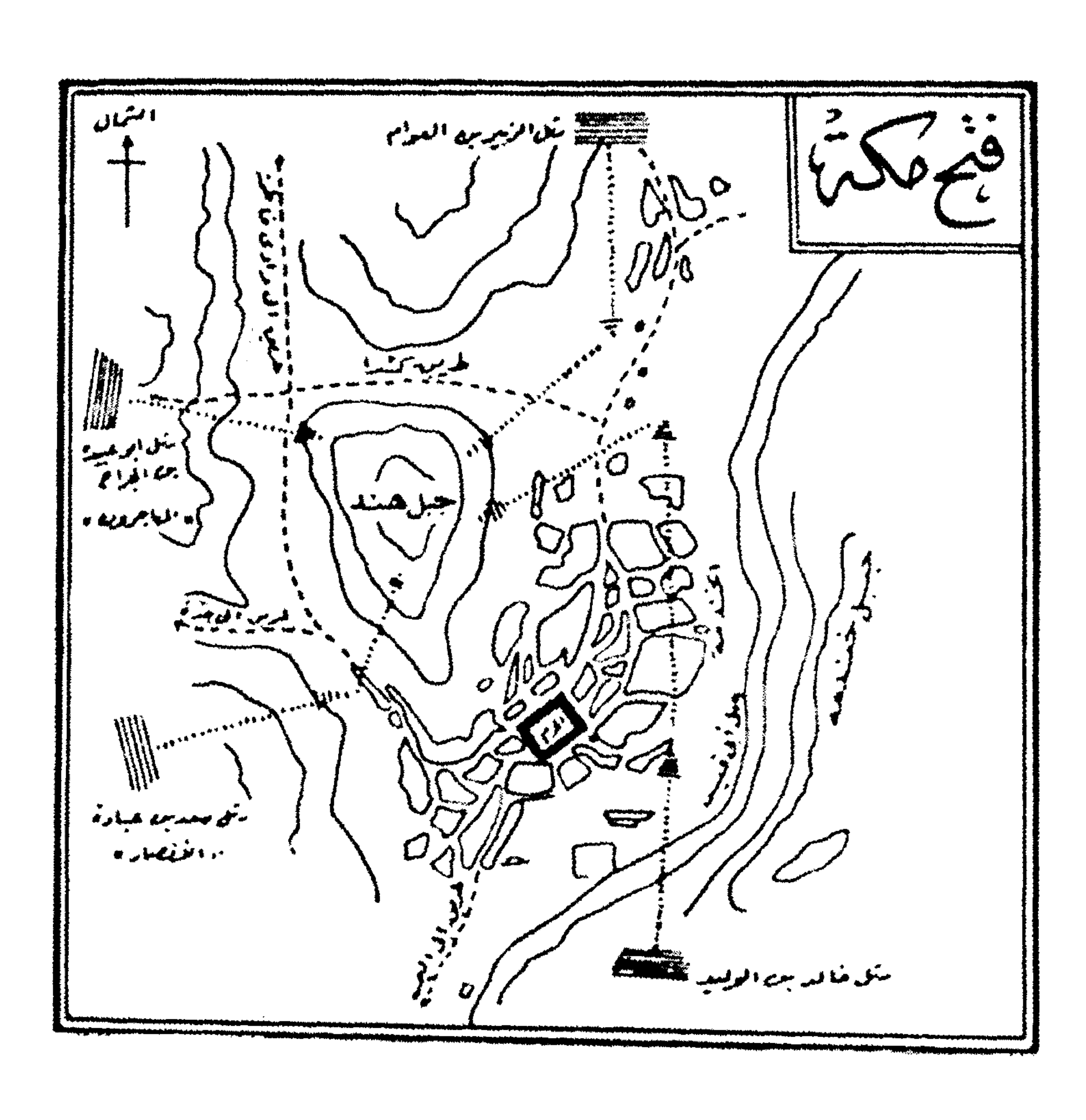
وتحقق وعد الله للمسلمين بالنصر والغلبة ، وأصبح البيت الحرام بمكة حصنا للتوحيد والإيمان ، بعد أن كان قلعة للشرك ، ومثابة للوثنية والكفر ، وصدق الله القائل : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾[3].

---

(١) انظر الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (١٣٧/٢).

(٢) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٨/٤).

(٣) سورة القصص ، الآية : ٥ .


فتح مكة
الشمال
الزبير بن العوام
جبل هند
الحرم
خالد بن الوليد

• سرايا التوحيد :

وأقام رسول الله ﷺ بمكة خمسة عشر يوما بعد الفتح يتقبل مبايعة الناس له ، ويفقه أهلها فى الدين ، ويبين لهم الأحكام ، كما أرسل بعض السرايا إلى القبائل للدعوة للإسلام وتحطيم الأصنام، والقضاء على كل مظاهر الشرك.

فبعث خالد بن الوليد فى آخر رمضان ـ بعد خمسة أيام من الفتح لهدم (العزى) أعظم أصنام قريش وبنى كنانة ، وكان سدنتها بنى شيبان ، حلفاء بنى هاشم من سليم، فهدمها خالد [(١)].

وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص ، فى مضان سنة ثمان إلى (سواع) صنم هذيل ليهدمه ، وكان سدنته بنو لحيان ، فهدمه عمرو ، وأسلم سادنه[(٢)].

وبعث ﷺ سعد بن زيد الأشهلى إلى (مناة) ، أقدم الأصنام كلها ، بقديد بين مكة والمدينة ، وكانت العرب تعظمه وتذبح حوله ، ولم يكن أحداً أشد إعظامًا له من الأوس والخزرج ، فهدمه سعد ، وعاد إلى مكة[(٣)].

ولما رجع خالد بن الوليد من هدم (العزى) ، ورسول الله ﷺ مقيم بمكة ، بعثه فى شوال سنة ثمان ، إلى بنى جذيمة بأسفل مكة ناحية يلملم[(٤)]، ولأنه رآهم فى السلاح ، فقد دعاهم إلى الدخول فيما دخل فيه أهل مكة ، وطلب إليهم أن يتجردوا من العُدة والشُّكة ، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، فجعلوا يقولون: صبأنا ، صبأنا[(٥)]، فجعل خالد يقتل فيهم ويأسر ودفع إلى كل رجل أسيره ، وأمره بقتله .

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٨٧/١) ، وتاريخ الرسل والملوك ـ الطبرى (٣٤٠/٢) ، وتاريخ الكامل ـ ابن الأثير (٩٧/٢).

(٢) الأصنام ـ الكلبى (ص ٩).

(٣) الأصنام ـ الكلبى (ص ١٣).

(٤) يلملم : على ليلتين من مكة ، وهو ميقات أهل اليمن (معجم البلدان ـ ياقوت ٥١٤/٧).

(٥) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (١٤٧/٢).

فلما علم النبى ﷺ بذلك ، قال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد »[1]، وبعث رسول الله ﷺ على بن أبى طالب فودى لهم قتلاهم ، وما ذهب منهم[2].

وقد دخل النبى ﷺ مكة فى العشرين من رمضان ، وخرج منها فى الخامس من شوال ، لما علم بما كان من شأن هوزان ، وجمع مالك بن عوف سيدها الجموع لحربه ، فكانت وقعة حنين .

غزوتا حنين[3] والطائف

أصبح البيت الحرام بعد الفتح منارة للتوحيد ، ومثابة للناس وأمنا ، وكان لفتح مكة أكبر الأثر فى توحيد الجزيرة العربية كلها تحت ظلال الإسلام .

كما كان لذلك أثر معنوى عميق على المسلمين والمشركين على حد سواء ، فأصبحت غالبية شبه الجزيرة العربية قوة ذات عقيدة واحدة وهدف واحد ، ولم يبق على الشرك إلا بعض القبائل كقبيلتى هوزان وثقيف ، وبات واضحا أن إسلام هذه القبائل قضية وقت ليس إلا ، لانهيار أكبر معاقل الشرك والوثنية (مكة) واستسلام الخصم الأكبر للإسلام (قريش) .

وقد أثار فتح مكة هواجس هوازن ، فتوقعت أن يدهمها محمد وجيوشه فى بلادها غازيا ، بعد أن تمكن له الأمر فى أم القرى ، فجمع مالك بن عوف سيد هوزان أشراف قبائلها ورؤوس بطونها ـ ومالك يومئذ ابن ثلاثين سنة ـ[4] واجتمع إليه مع هوزان ثقيف كلها ، ونصر ، وجشم ، وسعد بن بكر ، ورجال من بنى هلال ولم يحضرها من هوزان كعب وكلاب[5] ، وحضرها دريد بن الصمة وهو ابن ستين ومائة سنة[6] لا شيء

---

(١) زاد المعاد ـ ابن قيم الجوزى (٢/١٦٧) .

(٢) انظر طبقات ابن سعد (٢/١٤٧) ، سيرة ابن هشام (٤/٥٤).

(٣) حنين : واد قبل الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا (معجم البلدان ـ ياقوت الحموى ٢/٣١٣).

(٤) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/٢٩٦).

(٥) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٤/٣٢١).

(٦) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/٢٩٦).

فيه ، إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شيخا مجربا .

وبعد أن تشاور هؤلاء السادة أجمعوا رأيهم على حرب النبى ﷺ وأتباعه ، وعلى الخروج إليهم غازين قبل أن يدهموهم فى بلادهم .

وجاءوا جميعا بأموالهم ونسائهم وأبنائهم لحرب رسول الله ﷺ ونزلوا بأوطاس[١] فسأل دريد مالك عن سبب ذلك ، فقال : إنى سقت مع الناس أموالهم وذراريهم ، وأردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله يقاتل عنه . فزجره دريد ، وقال : رُوَيْعِىّ ضأن والله ! وهل يردّ المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضحت فى أهلك ومالك . وطالت المناقشة ، إلى أن قال له مالك : إنك كبرت وكبر عقلك ، ثم قال مالك : والله لتطيعُنّنى يا معشر هوزان ، أو لأتكئنّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى ، فقالوا : أطعناك ، ثم قال مالك للناس : إن رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ، ثم شدوا شدة رجل واحد[٢].

ولما بلغ رسول الله ﷺ ما أجمع عليه مالك ورفاقه بعث إليهم عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى[٣] ، وأمره أن يأتيه بخبرهم ، فجاء ليخبر النبى ﷺ بأن قبائل هوزان وثقيف قد أنجزت تحشدها فى وادى أوطاس ، وأنها تنوى مهاجمة المسلمين .

وعلى الفور قام النبى ﷺ ، فعبأ الجيش وأعد السلاح وقرر مهاجمة هذه القبائل ليحتفظ بالمبادأة بيد المسلمين .

وذُكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعا وسلاحا ، فأرسل إليه بطلبها ، وصفوان يومئذ مشرك ، فأعطاه مائة درع[٤] بما يكفيها من السلاح ، ومؤونة حملها[٥]. وقيل: أربعمائة درع[٦].

---

(١) أوطاس : واد فى هوزان ، فيه كانت وقعة حنين (معجم البلدان - ياقوت الحموى ١/ ٢٨١).

(٢) البداية والنهاية - ابن كثير (٤/٣٢٢).

(٣) البداية والنهاية - ابن كثير (٤/٣٢٢).

(٤) نفس المصدر السابق (٤/٣٢٣).

(٥) نفس المصدر السابق .

(٦) إمتاع الأسماع - المقريزى (١/٢٩٧) .

واستخلف النبى ﷺ على مكة عتاب بن أسيد يصلى بالناس[1]، ومعاذ بن جبل يعلمهم السنن والفقه[2].

ولما أكمل المسلمون استحضاراتهم تحركوا باتجاه حُنين فى شوال ، أو رمضان سنة ثمان ، ومعه يومئذ ألفا من أهل مكة ، وعشرة آلاف ممن فتح الله بهم مكة . وقيل : خرج فى أربعة عشر ألفا[3].

ولما رأى المسلمون كثرة عددهم مما لم يشهدوا مثله من قبل ، ملأ الزهو قلوبهم ، وأعجبتهم كثرتهم ، حتى قال أبو بكر الصديق : لا نُغلب اليوم من قلة[4] .

خرج مع رسول الله ﷺ عدد كبير من المشركين ، منهم صفوان ابن أمية .

ووصل جيش المسلمين فجراً إلى وادى حنين ، وانحدر رسول الله ﷺ فى وداى حنين راكبا بغلته البيضاء (دُلدل)[5]، ولابسا درعين والمغفر[6]، والبيضة[7].

وبينما كان جيش المسلمين يعبر المسالك الضيقة بجبال تهامة ، استقبلهم من هوزان شيء لم يرو مثله قط من السواد والكثرة ، وذلك فى غبش الصبح ، وخرجت الكتائب من مضيق الوادى وَشعْبه ، فحملوا على المسلمين حملة واحدة ، وانكشفت خيل بنى سليم مولية ، وتبعهم أَهل مكة ، وتبعهم الناس منهزمين[9]: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾[10].

---

(١) البداية والنهاية - ابن كثير (٣٢٣/٤) ، وإمتاع الأسماع - المقريزى (٢٩٧/١).

(٢) إمتاع الأسماع - المقريزى (٢٩٧/١).

(٣) السيرة النبوية - ابن كثير (٥٣٠/٣) .

(٤) زاد المعاد - ابن قيم الجوزى (١٨٦/٢).

(٥) دُلْدل : هى البغلة التى أهداها إلى النبى ﷺ أهل مصر مع أشياء أخرى ، عندما وجه النبى صلى الله عليه وسلم كتابه إلى المقوقس يدعوه إلى الإسلام .

(٦) المغفر : زرد ينسج على قدر الرأس ، يوضع تحت القلنسوة (مختار الصحاح ص ١٩٩) .

(٧) الطبقات الكبرى - ابن سعد (١٥٠/٢).

(٨) الطبقات الكبرى - ابن سعد (١٥٠/٢).

(٩) السيرة النبوية - ابن هشام ٢٨٢/٢، وإمتاع الأسماع - المقريزى - (٢٩٩/١).

(١٠) سورة التوبة - الآية : ٢٥ .

ورأى أبو سفيان هزيمة المسلمين فقال : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ، وقال آخرون ممن أسلموا حديثا مثل قوله ، بل إن شيبة بن عثمان بن طلحة الذى قتل أبوه فى غزوة أحد حاول اغتيال النبى ﷺ فى هذا الموقف الصعب ليدرك تأثر أبيه من محمد ﷺ .

وانتشر الفزع بين المسلمين ، وارتبكت الصفوف ، واختلطت القبائل ببعضها وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ، وثبت معه يومئذ العباس بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب ، والفضل بن العباس ، وأبو سفيان بن الحارث ، وأبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وأسامة بن زيد، فى أناس من أهل بيته وأصحابه[١] .

ثم قال النبى ﷺ : « إلى أين أيها الناس ؟ هلم إلى أنا رسول الله ، أنا محمد ابن عبد الله »[٢] .

وجعل رسول الله ﷺ يقول للعباس : « ناد : يا معشر الأنصار ، يا أصحاب السمرة[٣] ، يا أصحاب سورة البقرة » فنادى ، فأجابوا لبيك ، لبيك ، ثم حملوا على المشركين ، فأشرف رسول الله ﷺ فى ركائبه ، فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلدون ، فقال : « الآن حمى الوطيس »[٤] ، ثم أخذ بيده حفنة من الحصى فرماهم به وقال : «شاهت الوجوه ، حم ، لا يُنصرون » ثم قال : « انهزموا ورب الكعبة »[٥] .

وزاد بعضهم قوله ، ﷺ : « الآن حمى الوطيس ، أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب »[٦] ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾[٧] .

---

(١) السية النبوية ـ ابن هشام (٢/٢٨٣) .

(٢) زاد المعاد ـ ابن قيم الجوزى (٢/١٨٦) .

(٣) السمرة : هى الشجرة التى تمت بيعة الرضوان تحتها .

(٤) زاد المعاد ـ ابن القيم الجوزى (٢/١٨٧) .

(٥) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/ ٢٠٠) .

(٦) زاد المعاد ـ ابن قيم الجوزى (٢/١٨٧) .

(٧) سورة التوبة ، الآية ٢٦ .

وانهزم المشركون ، فتوجه بعضهم إلى الطائف ومعهم مالك بن عوف ، وبعضهم توجه نحو نِخْلة ، وعسكر بعضهم بأوطاس .

وبعث رسول الله ﷺ أبا عامر الأشعرى فى آثار من توجه إلى أوطاس ، فأدرك من الناس بعض من انهزم ، فناوشوه القتال ، فقتل منهم تسعة مبارزة ، وحمل العاشر على أبى عامر فقتله[١] ، فأخذ الراية أبو موسى الأشعرى ، فقاتل ، ففتح الله عليه ، فهزمهم الله ، وقُتل قاتل أبى عامر .

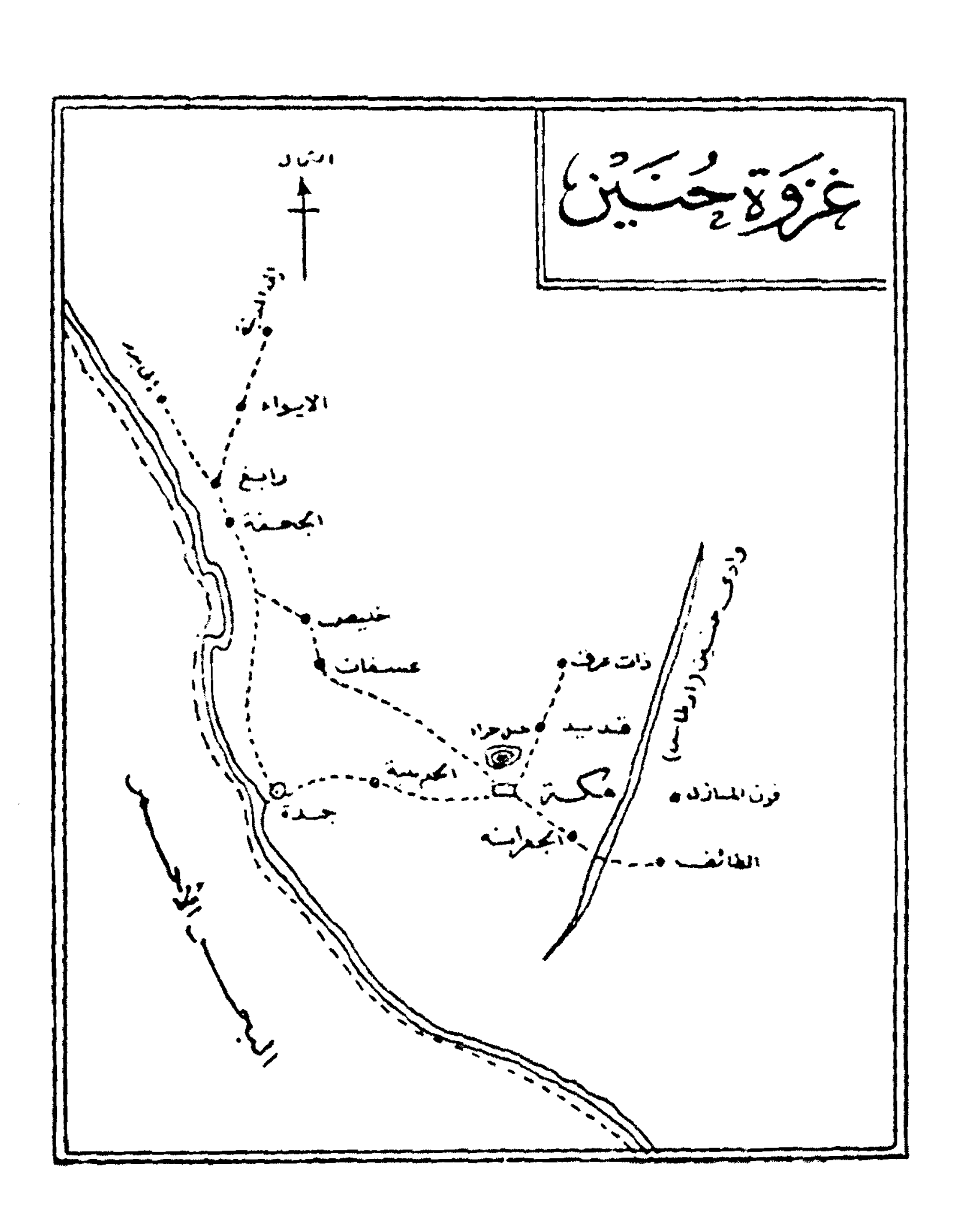
ومضى مالك بن عوف حتى تحصن بحصن ثقيف بالطائف ، وأمر رسول الله ﷺ بالسبى والغنائم أن تجمع ، فجمع ذلك كله فى الجعرانة ، ريثما يحسم الأمر فى الطائف .

وقبل أن ننتقل من حنين إلى الطائف مع رسول الله ﷺ يدور سؤال مهم هو : هل كانت هزيمة المسلمين فى حنين ـ قبل النصر ـ هل كانت لقلة كفاءة المسلمين لخوض تلك المعركة ؟ أم كان ذلك نتيجة لسوء التخطيط ؟ ونقول : لا هذا ولا ذاك ، وإنما يرجع ذلك لكون أن الذى حدد مكان المعركة هم المشركون ، ولم يكن عند النبى ﷺ فرصة كافية لدراسة ساحة القتال ، لأنه كان مضطرا لدخول المعركة على عجل حتى لا يدخل المشركون عليهم مكة ، ودخولهم المعركة على هذا الوجه حرمهم فرصة المبادأة بالهجوم بينما توفر هذا للعدو ، والمبادأة عنصر هام فى حسم المعركة لصالح المهاجم فى أغلب الأحوال ، ولهذا لو أُعطى النبى ﷺ فرصة دراسة ميدان القتال لما اختار وادى حنين ، حيث المنحدر والكمائن لاحقته عن يمينه ويساره . فالهزيمة إذا لم تكن عن جهل بالقتال أو سوء قيادة ، ويشهد لذلك الأمس القريب فى مكة وبنفس الجيش وزيادة ، ولم تنته المعركة بهزيمة على أية حال .

ثم خرج رسول الله ﷺ من حنين يريد الطائف ، وقد كانت غزوة الطائف امتداد لغزوة حنين ، لأن جموع هوزان التى كانت تنتشر بطونهم انتشارا واسعًا فى نجد ، وجموع ثقيف التى كانت تسكن الطائف ـ تلك المدينة الغنية التى تقع فى الجنوب الشرقى من مكة ـ هؤلاء جميعا حاربوا المسلمين فى وادى حنين ، فلما انهزموا

---

(١) سيرة النبى ـ ابن إسحاق (٤/١٠٤).


غزوة حنين
الشمال
الأبواء
رابغ
الجحفة
خليص
عسفان
ذات عرق
قديد
جبل حراء
الحديبية
مكة
جدة
الجعرانة
قرن المنازل
الطائف
وادي حنين (أوطاس)
البحر الأحمر

وتقهقروا ، اتجه بعضهم إلى سهل أوطاس ، وذهب آخرون إلى نِخْلة ، كما ارتد مالك ابن عوف ، وجمهرة اتباعه إلى الطائف ، حيث نزلوا مع ثقيف مدينتهم الحصينة الغنية .

وقد تتبعت جماعات من جيش المسلمين أولئك الفارين ، واتجه الرسول ﷺ ومعه أغلب الجيش لحصار الطائف[1].

وكانت تثيف قد رموا حصنهم ، وأدخلوا فيه ما يصلحهم لسنة ، فلما انهزموا من أوطاس دخلوا حصنهم ، وزغلقوه عليهم ، واستعدوا للقتال[2].

فخرج رسول الله ﷺ من حنين يريد الطائف فى شوال سنة ثمان من الهجرة ، وقدم خالد بن الوليد على مقدمته .

وكان النبى ﷺ قد بعث عمرو الدوسى إلى ذى الكفين ـ صنم بنى دوس ـ ليهدمه، وأمره أن يوافيه بالطائف ، فخرج إليه وهدمه ، وانحدر معه من قومه أربعمائة ، فوافوا النبى ﷺ بالطائف ، بعد مقدمة إليها بأربعة أيام ، وقدم بدبابة ومنجنيق .

وسار رسول الله ﷺ فنزل قريبا من حصن الطائف ، وعسكر هنالك ، فرمى أهل الطائف المسلمين بالنبل رميا شديدا ، حتى أصيب ناس بجراح ، وقتل منهم اثنا عشر رجلا ، منهم عبد الله بن أمية بن المغيرة وسعيد بن العاص .

فحاصرهم النبى ﷺ ثمانية عشر يوما[3]، أو بضعا وعشرين ليلة[4]، ونصب عليهم المنجنيق[5]، ورماهم به ، كما سير إليهم جنده فى الدبابات[6]

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٢/ ٢٩٠).

(٢) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (١٢٨/٢).

(٣) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (١٥٨/٢).

(٤) السيرة النبوية ـ ابن إسحاق (٩٢/٤).

(٥) المنجنيق : أداة ترمى الحجارة على الأعداء ، وتقوض الجدران (مختار الصحاح ـ الرازى ص ٤٨١).

(٦) الدبابة : أداة مصنوعة من الخشب أو الجلود ، يدخل المقاتل تحتها ويتحرك فى حمايتها إلى الهدف ، إذ يدفعونها إلى جدار الحصن فيثقبونه وهم فى داخلها ، حيث تحميهم الدبابة من نبال العدو (المعجم الوسيط ٢٦٨/١).

والضبور[1] ليتقى بها المسلمون النبل الموجه من أعلى .

وأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف وتحريقها إغاظة لهم ، وثأرا لما أصاب بعض أصحاب النبى ﷺ من قتل وجراحات عند فرض الحصار على أسوار الطائف ، فوقع الناس فيها يقطعون ، ثم سألوه أن يدعها لله وللرحم ، فقال رسول الله ﷺ : «فإنى أدعها لله والرحم» .

ونادى منادى رسول الله ﷺ : أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر ؛ فخرج منهم بضعة عشر رجلا[2] ، فأعتقهم رسول الله ﷺ ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين لينفق عليه ، فشق الحصار على أهل الطائف مشقة شديدة .

واستشار رسول الله ﷺ أصحابه ، فقال نوفل بن معاوية ثعلب فى حجر ، إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرك[3] .

فأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ، فأذن فى الناس بالرحيل ، فضج الناس من ذلك ، وقالوا : نرحل ولم يُفتح علينا الطائف ؟ فقال رسول الله ﷺ : « فاغدوا على القتال » فغدوا ، فأصاب المسلمين جراحا ، فقال رسول الله : « إنا قافلون إن شاء الله » فسرهم ذلك ، وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون ، ورسول الله ﷺ يضحك ، وقال : « قولوا : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده »[4].

فلما ارتحلوا واستقلوا ، قال ، صلوات الله وسلامه عليه : « اللهم اهد ثقيفا ، وائتنى بهم مسلمين »[5] ، وكان من استشهد بالطائف أحد عشر رجلا[6].

ورفع النبى ﷺ الحصار ، وعاد إلى الجعرانة ليلة الخميس خامس ذى القعدة ،

---

(١) الضبور : جمع ضبر ، وهو : الدبابة ، كانت تتخذ من خشب يغشى بالجلد يحتمى به الرجال ويتقدمون إلى الحصون لدق جدرانهاونقبها (المعجم الوسيط ٥٣٣/١).

(٢) سيرة النبى ـ ابن إسحاق (٩٢١/٤) .

(٣) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (١٥٩/٢).

(٤) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس (٢٠١/٢).

(٥) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس (٢٠٢/٢).

(٦) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (١٥٤/٢).

والسبى والغنائم بها محبوسة ، وكانوا ستة آلاف من الزرارى والنساء[1] والإبل أربعة وعشرين ألف بعير ، فيها اثنا عشر ألف ناقة ، والغنم أربعين ألف وقيل : أكثر ، وأربعة آلاف أوقية فضة[2] ، فلما رجع إلى الجعرانة بدأ بالأموال فقسمها ، ثم أمر زيد ابن ثابت بإحصاء الناس والغنائم من السبى والإبل والغنائم ، فقسمها النبى ﷺ بين المهاجرين والطلقاء ـ أهل مكة ـ ولم يعط الأنصار منها شيئا ، فقالت الأنصار : إنها لشديدة ، فنحن نُدْعى ويعطى الغنيمة غيرنا !! فبلغ ذلك النبى ﷺ فجمعهم فى قبة، فقال : « يا معشر الأنصار ! ما حديث بلغنى ؟ » فسكتوا ، فقال : « يا معشر الأنصار ، ألا ترضون أن يذهب الناس بالدنيا ، وتذهبون برسول الله تحوزونه إلى بيوتكم ؟ » قالوا : بلى ، قال : « لو سلك الناس واديا ، وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار » وفى رواية للبخارى ومسلم[3] : إن النبى ﷺ جمع الأنصار فقال : « إن قريشا حديثوا عهد بجاهلية ومصيبة ، وإنى أردت أن أجيزهم وأتألفهم ، أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله إلى بيوتكم ؟ » قالوا : بلى .

وعن البخارى ومسلم أيضا : فقالت الأنصار : يا رسول الله ! سيوفنا تقطر من دمائهم ، وهم يذهبون بالمغنم ؟! فلما بلغ ذلك النبى ﷺ جمعهم فقال : « أنتم الشعار والناس الدثار ، أما ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وتذهبون برسول الله ﷺ إلى دياركم ؟ » قالوا : بلى . قال : « الأنصار كرشى وعيبتى ، ولو سلك الناس واديا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعبهم ، ولولا الهجرة لكنت امرؤا من الأنصار » فطابت أنفس الأنصار بذلك .

وقدم النبى ﷺ وفد هوزان ـ أربعة عشر رجلا ـ على رأسهم أبو صرد زهير بن صرد ، قد أسلموا وأخبروا بإسلام من ورآءهم من قومهم ، وسألوه أن يرد عليهم السبى والأموال ، فسألهم النبى ﷺ : « نساؤكم أحب إليكم من أموالكم ؟! » قالوا :

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام (١٣٥/٤) ، والبداية والنهاية ـ ابن كثير ٣٥٢/٤ .
(٢) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (٣١١/١).
(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٣٤٩/٤).

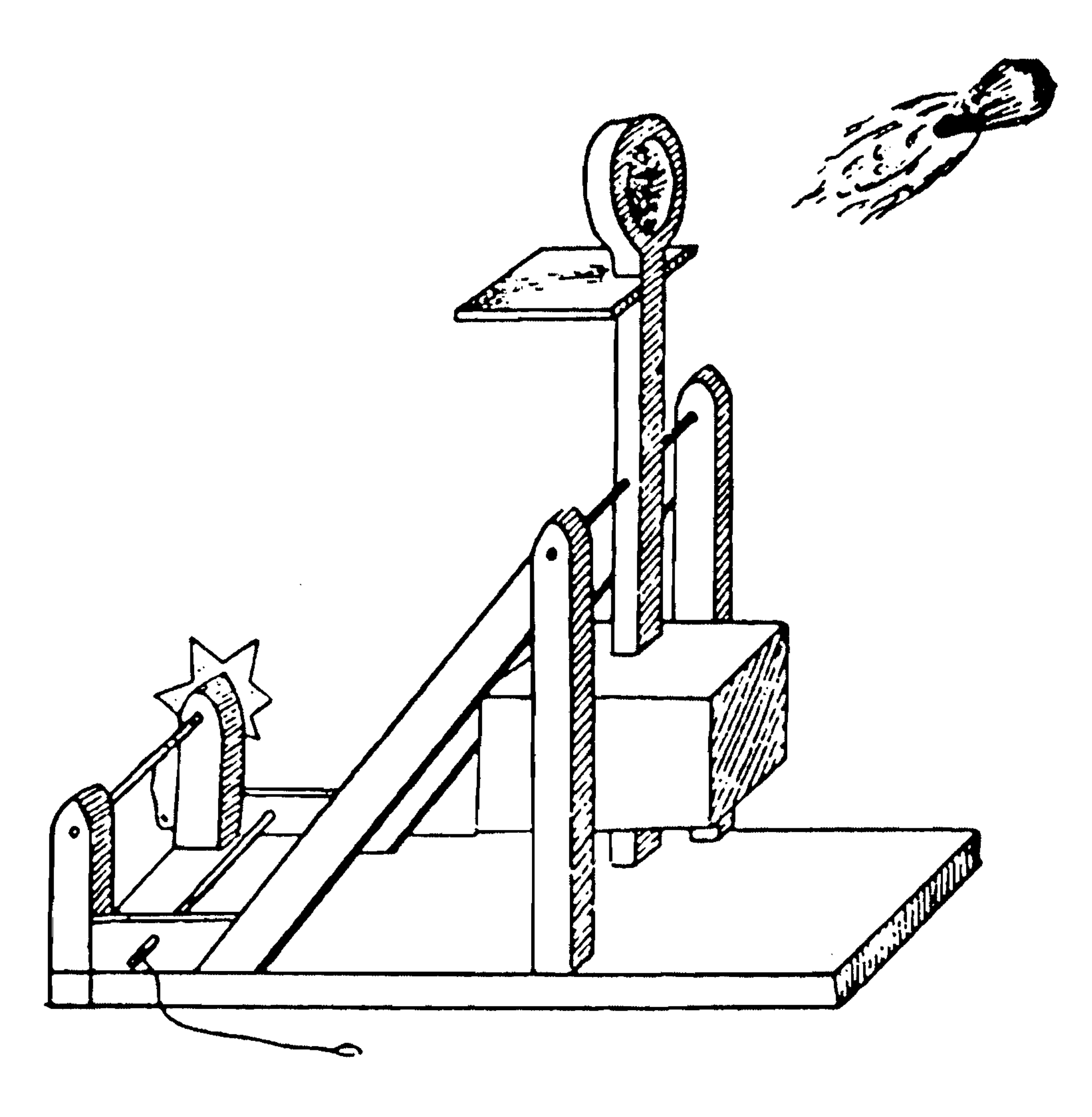
يا رسول الله ، وما كنا نعدل بالأحساب شيئا ، فرد علينا أبناءنا ونساءنا ؛ فرد عليهم ما عنده ، وسأل لهم الناس فردوهم ، فسلمهم النبى ﷺ إليهم[1].

وأقام النبى ﷺ بالجعرانة ثلاث عشرة ليلة ، وخرج ليلة الأربعاء ثامن عشر ذى القعدة[2] ، وأحرم ولبى ، وطاف ، وسعى ، ولم يسق هديا[3] ، ثم عاد إلى الجعرانة من ليلته ، فكان بها كبائت وخرج يوم الخميس على سرف إلى مر الظهران ، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية ، وخلف أبا موسى الأشعرى ومعاذ ابن جبل ، يعلمان الناس القرآن والتفقه فى الدين ، ثم عاد النبى ﷺ إلى المدينة يوم الجمعة لثلاث بقين من ذى القعدة سنة ثمان[4] ، وقيل : لليال بقين من ذى الحجة[5] عودة القائد الظافر المنتصر ، بعد أن تحقق وعد الله له بالنصر والفتح : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[6].

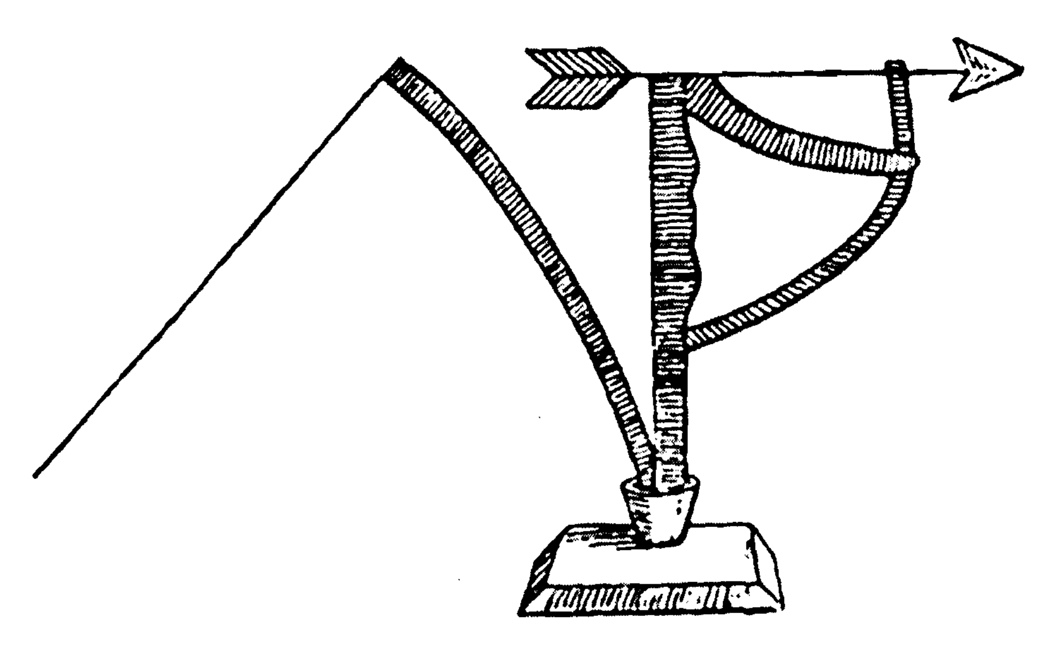
وما أن آذنت شمس السنة العاشرة الهجرية بالمغيب حتى كانت جزيرة العرب عن بكرة أبيها تدين بالإسلام .

---

(١) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/٣١٥).
(٢) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/٣١٧).
(٣) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/٣١٧).
(٤) نفس المصدر السابق .
(٥) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٤/٣٧٤).
(٦) سورة النصر .



منجنيق لرمى النفط



منجنيق لرى السهام التبية

• إسلام العرب :

بعد فتح مكة بدأ العرب يراجعون أنفسهم ، وينظرون للإسلام نظرة جادة ، فماذا يتبقى بعد أن أسلمت قريش ، وهم سدنة البيت الحرام ، وحجابه ، وحفظته ، وسادة الناس ، وأعلمهم بدين العرب ، وقد هجروا دين الأباء والأجداد إلى دين محمد ﷺ .

وكان العرب يراقبون فتح مكة يقولون : اتركوه وقومه ، فإن أظهره الله عليهم كان نبيا حقا ؛ فلما انتصر على قريش ، وفتح مكة وحطم أصنام الكعبة ، وطهرها من الشرك ، وأسلم أهلها ، بادرت قبائل العرب إليه تعلن إسلامها ، فأقبلت وفود العرب على النبى ﷺ فى أواخر السنة الثانة ، بدءا بقدوم وفد تميم ، ثم تزايدات بعد ذلك ، وكانت تلك الوفود تبايعه على الإسلام ، وتشهد بين يديه شهادة الحق ، وتلقى إليه بأزمة قيادتها فى أمور دنياها ودينها .

فاستطاع النبى ﷺ أن يوحد قبائل العرب جميعا تحت راية واحدة ، ويجمع صفوفهم فى دولة لها نظم وشرائع يخضعون لها جميعا ، فأسدى للإنسانية بهذا الصنيع مأثرة عظيمة ، إذ جمع هؤلاء القوم الأشداء فى خير أمة أخرجت للناس ، وأطلقهم إلى رحاب العالم الفسيح ، بعد أن هداهم وهذبهم وبلور صفاتهم العليا فى بوتقة واحدة ، فكوّنوا دولة الإسلام فى القرون الوسطى ، لتصبح فى أيام عزها وسطوتها ومجدها نوراً أشرق على الظلمات التى كانت تعمر وجه الأرض فى ذلك الزمان .

تدلنا تلك الحقيقة التاريخية دلالة واضحة على أن فتح مكة كان فى واقع الأمر الخطوة الحاسمة التى أدت إلى دخول العرب فى دين الإسلام ، إذ لم يقع بعد فتح مكة من الأحداث ما يدعو جميع القبائل العربية لأن تتدفق طائعة على النبى ﷺ لتبايعه على الإسلام ، وإن كان لإسلام ثقيف وغزوة تبوك أثر مساعد ولا شك فى هذا الموقف .

ونحن لو استعرضنا الغزوات التى غزاها النبى ﷺ والسرايا التى أرسلها هنا وهناك بعد فتح مكة ـ ولا نقصد أن نقلل من شأنها ، معاذ الله ـ لازددنا يقينا بهذه

الحقيقة : فإن غزوتى حنين والطائف لم تكونا بين المسلمين وسائر العرب ، بل كانتا بينهم وبين هوزان وثقيف ، كما كانت غزوة تبوك ضد قبائل صغيرة فى شمالى بلاد العرب بعيدة عن الأحداث التى كانت تجرى من قبل ، ثم أنه يقع فيها قتال ، وإن كان لضخامة الجيش الإسلامى أثر كبير فى النفوس .

أما السرايا التى أرسلها النبى ﷺ بعد الفتح للدعوة للإسلام فقليلة نوجزها فى الآتى :

* بعث رسول الله ﷺ فى أواخر سنة ثمان سرية بقيادة قيس بن سعد فى أربعمائة مقاتل ليدعو صداء ـ وهى : قبيلة تسكن فى اليمن ـ إلى الإسلام ، فجاءت وفود صداء وأسلمت .

* ثم أرسل فى أعقاب ذلك بشر بن سفيان العدوى إلى بنى كعب من خزاعة لأخذ الصدقات ، فمنعه جيرانهم بنو تميم .

* فأرسل النبى ﷺ إلى بنى تميم عيينة بن حصن الفزارى فى خمسين فارسا ، فأسر منهم أحد عشر رجلا وإحدى عشرة امرأة ، وثلاثين صبيًا .

* ثم بعث الوليد بن أبى عيط لأخذ صدقات بنى المصطلق ، فتوهّم أنهم ممتنعون، فأرسل إليهم النبى ﷺ خالد بن الوليد ، الذى سار إليهم ، فلما أتاهم لم ير منهم إلا الطاعة لله ولرسوله .

* كما بعث النبى ﷺ قطبة بن عامر بن حديدة إلى حى من خثعم بناحية بيشة ، سنة تسع ، فى عشرين رجلا ، فاقتتلوا قتالاً شديدا ، وكثر الجرحى فى الفريقين جميعا ، إلا أن المسلمين انتصروا عليهم ، وعاد قطبة بالنّعم والشاء والأسرى إلى المدينة .

* وبعث علقمة بن مجذر فى ثلاثمائة مقاتل لجمع من الأحباش بلغه أنهم تجمعوا فى جزيرة إزاء جدة للإغارة عليها ، فلم يلق أحدا .

* كما بعث رسول الله ﷺ الضحاك بن سفيان الكلابى إلى القرطاء ـ جماعة من بنى كلاب ـ فدعوهم إلى الإسلام فأبوا ، فقاتلوهم وهزموهم .

كما بعث النبى ﷺ فى ربيع الأول من السنة التاسعة على بن أبى طالب فى خمسين فارسا لهدم الفلْس (صنم لطئ) فسار إليه فهدمه وأحرقه .

وفى رضان من السنة العاشرة أرسل على بن أبى طالب - أيضا - إلى بنى مذجج ، وهم قبيلة يمانية ، يدعوهم إلى الإسلام ، فقاتلهم حتى قبل رؤوساؤهم الإسلام .

وبعث خالد بن الوليد فى ستة عشر إلى بنى الحارث بن كعب بنجران ، فأسلموا بغير قتال ، وبعثوا بوفدهم للدخول فى الإسلام .

وبعث على بن أبى طالب إلى همدان ، فلا قرأ عليهم كتاب محمد ﷺ أسلموا جميعا ، ولم يقاتلوا .

وبعث النبى ﷺ عكاشة بن محصن الأسدى إلى الجناب ، أرض عذرة وبلىّ ، فعاد إلى المدينة دون قتال .

وكان النبى ﷺ يُبْقى رؤساء القبائل إذا ما أسلموا فى مناصبهم ، فكانت هذه السياسة الحكيمة سببا فى إقدام الكثير منهم على الإسلام .

* * *

* *

الفصل الثاني

علاقة الدولة الإسلامية بأهل الكتاب
(اليهود والنصارى)

تمهيد :

لقد أحل الإسلام الكتابيين منزلة خاصة ، توحى بأن الرسول ﷺ كان يأمل أن يعتنق هؤلاء الإسلام ، حيث أن شرائع الإسلام ودياناتهم يجمعهما أصل واحد هو التوحيد .

إذ خاطب القرآن الكريم أهل الكتاب بأسلوب يختلف عن خطابه لأهل الوثنية ، فيفهم من السياق القرآنى لبعض آيات الكتاب الكريم وجود توافق وتجانس بين بعض ما جاء فى القرآن الكريم وبعض ما جاء عند أهل الكتاب .

ففى سورة المدثر يقول تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾[1] ، فهذه الآية الكريمة جاءت فى إحدى السور المكية التى نزلت فى بداية الدعوة الإسلامية ، ويعتبر أن ما ورد فيها عن أهل الكتاب إنما هو أول ذكر لهم فى القرآن الكريم[2] .

كما نجد فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[3] تقرير قرآنى لوحدة الهدف بين القرآن الكريم والكتب السماوية المنزلة .

كما بين القرآن الكريم أن ما جاء على لسان النبى ﷺ لا يخالف ما جاء على لسان من سبقه من الأنبياء والمرسلين ، وأنه لا تفريق بين أنبياء الله ورسله ، وأنه لا ريب فى صدق الرسالة المحمدية ، وأنها جاءت متممة لما تقدمها من رسائل سماوية ، تجمعها وحدة المصدر، وبذلك جاء التنزيل القرآنى فى قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[4] وقوله تعالى : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[5]، وقوله تعالى :

---

(١) سورة المدثر ، الآية : ٣١ .

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٤٤).

(٣) سورة الأعلى ، الآيتان ١٨، ١٩ .

(٤) سورة المائدة ، الآية : ٤٨ .

(٥) سورة الأنعام ، الآية : ٩٢ .

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾[١].

وقد كان فريق من العرب على علم بما تناولته الكتب السماوية الأولى ، وكانوا يرون فى أصحابها أنهم أهل كتاب وعلم .

كما كان علماء بنى إسرائيل على علم بصحة ما ينزل على محمد ﷺ من القرآن الكريم ، وذلك احتجاجا بما فى كتبهم ، وما نزل على أنبيائهم من قبل : ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[٢]، وربما يعلمه أهل الكتاب عامة : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾[٣] فالقرآن المكى قد مهد الطريق أمام اليهود والنصارى لقبول الإسلام دونما تردد ، وأن النبى ﷺ صادق فيما دعا إليه ، وأنه هو الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، وهو الذى بشر به أنبياؤهم من قبل ، وقد استفتحوا به على الكفار وتوعدوهم به ، ولكن أهل الكتاب اختلفوا على أنفسهم وانقسموا شيعا وأحزابا ، مما باعد بينهم وبين الدعوة الإسلامية التى أعاقتها هذه الاختلافات التى أصابت اليهودية والنصرانية مما كان له أثر سلبى على مشركى الجزيرة العربية : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[٤] ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ﴾[٥] .

ومع اختلاف أهل الكتاب ، فإن القرآن الكريم يقصينا عن ذلك : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾[٦].

ومن يتتبع مواقف الإسلام من أهل الكتاب ، مقارنة بموقفه من الوثنيين والمشركين

---

(١) سورة الشورى الآية : ١٣ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية : ١٩٧.

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٤٦.

(٤) سورة النمل ، الآية : ٧٦ .

(٥) سورة مريم ، الآية : ٣٤ .

(٦) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٦ .

ممن يجعلون مع الله إلها آخر ، يستطيع تقدير المكانة العظيمة التى أعطاها الإسلام لأهل الكتاب :

فالإسلام يعلنها حربا لا هوادة فيها على الوثنيين ، ويدعو إلى ازدرائهم والبعد عنهم ، إذ حرم ذبائحهم ، ومنع التزوج منهم أو تزويجهم ، وألا يعمروا مساجد الله ، وأعلمهم يوم الحج الأكبر أن الله برىء منهم ، ومع الوثنية ليس هناك إلا السيف أو الإسلام .

وعندما دخل النبى ﷺ مكة يوم الفتح ، تجلى بكل الوضوح والحزم موقفه من الوثنية ، حيث باشرها بالهدم والتقويض ، وهو يردد قوله تعالى فى سورة الإسراء : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[1] الآية ٨١ .

ذلك هو موقف الإسلام من الوثنية .

أما موقفه من أهل الكتاب : ففيه التسامح ، والصفح ، والدعوة إلى الحق بالتى هى أحسن ، مع إقامة البرهان الساطع والدليل القاطع على صدق النبى ﷺ .

إذ أباح الإسلام طعام أهل الكتاب ، والتعامل معهم ، وأحل ذبائحهم ، والزواج منهم ، فعن عائشة رضى الله عنها : « اشترى رسول الله ﷺ من يهودىّ طعاما إلى أجل ورهنه درعه »[2].

وجاء فى سورة المائدة تحليلا لأكل طعام أهل الكتاب ، والتزوج بنسائهم : ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾[3].

كما اقتفى رسول الله ﷺ أثر نبى الله موسى عليه السلام عند تنظيم جماعة العقبة الكبرى ، فى اختيار اثنى عشر نقيبا منهم : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾[4].

---

(١) راجع : السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٧٦).
(٢) صحيح البخارى ـ كتاب الرهن (٣/١٢٤).
(٣) سورة المائدة ، الآية : ٥ .
(٤) سورة المائدة ، الآية : ١٢ .

وقد تزوج عثمان بن عفان من نائلة بن الفرافصة الكلبية ، وهى نصرانية[1].
هكذا كان الإسلام يعامل أهل الكتاب وهكذا كان يطريهم ، ويسجل الجانب الطيب من أخلاقهم وفضائلهم ، والسر فى هذا هو أنهم كانوا يعرفون الله ويعبدونه ، وإن كانت هذه المعرفة والعبادة قد أفسدوها الخطأ ، وشابهما الزيغ والانحراف .

وهذا الكلام الذى سطرناه فى هذا المدخل أو فى هذه المقدمة قد تناول اليهود والنصارى جميعا ، وفى صورة موجزة مجملة كان القصد منها هو إفهام القارئ موقف الإسلام من هاتين الديانتين وأتباعهما ، وأنه لم يتحامل عليهما ولا على واحدة منهما .

والآن وبعد هذا الإجمال تنتقل إلى شيء من التفصيل ، ونبدأ باليهودية لأنها أسبق الديانتين وجودا من جهة ، ولأنها أصل والمسيحية فرع عنها من جهة ثانية .

أولا : اليهود

اتخذ اليهود من يثرب والمناطق الواقعة على طريق الشام دار هجرة ومقام منذ أمد بعيد ، وكان لهم كيان بارز ومؤثر بسبب ما كانوا عليه من كثرة العدد وسعة الثروة ، والمهارة الزراعية والصناعية والتجارية ، ثم بسبب ما كان لهم من مكانة دينية مستمدة من أنهم أصحاب كتاب .

وقد عاش اليهود فى بلاد العرب ، وكانت لهم مراكز أساسية معروفة من أهمها : يثرب ، وخيبر وتيماء ، ووادى القرى ، ومناطق أخرى فى شمال الحجاز مثل : فدك وغيرها .

كما كان هناك يهود من العرب ، فقد اعتنق اليهودية فريق كبير من حمير بعد أن كانوا من المجوس ، وعبدة الشمس ، ونحو ذلك .

ولعل اليهودية قد سرت إلى العرب من مجاورة اليهود لهم فى يثرب وخيبر ، وغير ذلك .

وقد كان لليهود وجود واضح فى المدينة قبل هجرة المسلمين إليها ، وبعد الهجرة وإقامة دولة الإسلام الأولى فيها فإن اليهود كان يقطنون حول رسول الله ﷺ فى

---

(١) انظر : كتاب بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة ـ محمد سيد طنطاوى (١٦٣/١).

المدينة، ولكونهم أهل كتاب فقد جعلت الشريعة الإسلامية لهم منزلة خاصة بهم ، تخالف غيرهم من المشركين .

ولقد كتب الرسول ﷺ فيما بينه وبينهم معاهدة ، شرط لهم وشرط عليهم ، وأمنهم على أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، وقد نظمت تلك المعاهدة العلاقات بين المسلمين واليهود ، وجاء فيها :

« .... وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأموالهم ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ[1] إلا نفسه وأهل بيته ، وأن ليهود بنى النجار وبنى الحارث وبنى ساعدة وبنى جشم وبنى ثعلبة وجفنة وبنى الشطنة مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن بطانة يهود كأنفسهم ، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ، ولا ينحجر[2] على ثأر جرح، وأنه من فتك فبنفسه إلا من ظلم ، وأن الله على أثر هذا ، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم ، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وأن النصر للمظلوم ، وأن يثرب حرام جرفها[3] لأهل هذه الصحيفة ، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ، وأن الله على من اتقى ما فى هذه الصحيفة وهابه ، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم ما على المؤمنين ، إلا من حارب فى الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم ، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم وأثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى »[4].

---

(١) يوتغ : أى لا يوبق ويهلك .

(٢) فى النهاية : لما تحجر جرحه للبرء انفجر : أى اجتمع والتأم .

(٣) الجُرف : موضع قريب من المدينة .

(٤) البداية والنهاية - ابن كثير (٣/ ٢٢٤).

وقد قضت هذه المعاهدة على دسائس اليهود ومؤامراتهم للتفريق بين الأوس والخزرج ، وجعْل بعضهم يضرب رقاب بعض .

كما فتح النبى ﷺ بهذه المعاهدة صفحة بيضاء أمام اليهود ، وكان من المتوقع أن لا يقف اليهود ضد الإسلام ، لأن النبى ﷺ لم يقف ضدهم ، لكنهم لما أحسوا أن دعوته تقوى وتنتشر ، لا سيما بعد غزوة بدر التى أثارت ثائرتهم ، ولما ظهر لهم عكس ما ظنوه من أن النبى ﷺ لن يلبث إلا يسيرا ثم تنطفئ دعوته ، قاوموه دينيا بالتشكيك فى نبوته ، والتشكيك فى دينه ، ككلامهم عن تحويل القبلة ، ثم قاوموه بهجائه والتشهير به بين القبائل ، والسير إلى أعدائه لتأليبهم عليه .

وقد كان لدى يهود الحجاز من الأسباب ما يجعل تعايشهم مع المسلمين مستحيلا، إذ أثار مخاوفهم تحالف النبى ﷺ مع الأوس والخزرج ، وجعله من المهاجرين والأنصار أمة واحدة يصعب تفريقها ، وجعله من الدين الإسلامى أوثق الروابط التى تشد هذه الأمة الجديدة بعضها إلى بعض ، فضعفت دوافع العصبية القبلية عند المسلمين ، وزالت معها تحالفات القبائل العربية فى المدينة مع غير المسلمين، لأن الروابط الإسلامية احتلت فى نفوسهم المكانة الأولى .

وقد كان اليهود يأملون أن يجذبوا محمدا ﷺ إلى صفوفهم بعد أن رأوه يدعو إلى التوحيد ، ولكنهم ما لبسوا أن وجدوا الأمور لا تسير حسب رغباتهم وآمالهم ، إذ شتان بين التوحيد الذى يؤمن به محمد ﷺ والتوحيد الذى يؤمن به اليهود .

فاليهود ربطوا رسالة التوحيد بجنسهم ، فالله الواحد هو إله إسرائيل ، وهم شعبه المختار من دون الناس ، وأنهم مميزون عن العالمين ، فوجد اليهود فى دعوة محمد هذه تهديدا لمتعقداتهم ، فهم كانوا يستفتحون على الناس برسول ينفذ رغباتهم ، ويقتل الناس لصالح شعبهم قتل عاد وإرم ، ويتبع دينهم : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ﴾[1].

---

(1) سورة البقرة ، الآية : ١٣٥.

وقد قال عبد الله بن صوريا الأعور اليهودى لرسول الله ﷺ : (ما الهدى إلا ما نحن عليه ، فاتبعنا يا محمد تهتد[1].

على أن كثيرا من يهود قد أسلموا وحسن إسلامهم ، من هؤلاء عبد الله ابن سلام[2] ومخيريق أحد علماء بنى النضير .

الصراع مع اليهود :

نصبت أحبار يهود العداوة لرسول الله ﷺ بغيًا وحسداً لما خص به الله العرب من أخذ رسول منهم ، وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ممن كان بقى على جاهليته ، واتخذ الإسلام جنة من القتل ، ونافق فى السر ، فكان هواه مع يهود [3].

وكان أحبار يهود هم الذين يسألون رسول الله ﷺ ويتعنتونه، ليلبسوا الحق بالباطل ، فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه[4] من هؤلاء : حيي بن أخطب ، وأخوه ياسر ، وجُدى ، وسلام بن مشكم ، وكنانة ابن الربيع ابن أبى الحُقيق ، وكعب بن الأشرف ، وعبد الله بن صوريا الأعور من بنى ثعلبة [5].

كما تذرع اليهود بنسخ بعض آيات القرآن الكريم ، وتحويل القبلة ، وتحريم بعض الأطعمة وتحليل بعضها الآخر ، للتشكيك ، وإثارة الشبهات حولها ، فجادلوا الرسول ﷺ فى كل تلك الأمور جدلا شديدا .

وقد تولى الله سبحانه وتعالى الرد على هذه الشبهات التى كان مقصد اليهود من ورائها الطعن فى نبوة النبى محمد ﷺ .

ولم يدع اليهود مسلكا للنيل من النبى ﷺ إلا واتبعوه ، بل ذهبوا أبعد من ذلك،

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام (١/٥٤٩).

(٢) راجع عيون الأثر ـ ابن سيد الناس (١/٦).

(٣) سيرة النبى ـ ابن إسحاق (٢/٤١٠).

(٤) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس (١/٢٠٦).

(٥) نفس المصدر السابق .

إذ حالفوا المنافقين ، وظاهروهم فى العداء للنبى ﷺ وبذلك قربوا الأمور بسعيهم إلى شفى الحرب .

وقد بلغت الخصومات الكلامية بين المسلمين واليهود أشدها فى المدينة قبيل موقعة بدر ، لكن النبى ﷺ لم يشأ أن يدخل معهم فى قتال ، حتى تبدل الحال من الخصومات الكلامية إلى أن حمل الجانبان السلاح ، إذ فجرت معركة بدر الموقف بين المسلمين واليهود بعد انتصار المسلمين فى هذه المعركة ، إذ قام اليهود بالتشكيك والتآمر وتكذيب من جاء إلى المدينة بشيراً بالنصر فى بدر ، وأشاعوا أن محمدا قد قُتل ، وأن أصحابه قد قُتلوا(1) .

بل لم يكتفوا بذلك ، إذ سافر كعب بن الأشرف إلى مكة ينشد الأشعار ، ويشبب بنساء المسلمين ، ويرثى قتلى بدر من المشركين(2) .

ولجأ اليهود إلى الاتصال بالفئات المعادية للنبى ﷺ مما اعتبر نقضا للمعاهدة والمواثيق التى عقدها الرسول ﷺ مع البطون اليهودية .

وتذكر معظم المصادر التاريخية هذه المواثيق ، وترى أن نقض اليهود لها كان السبب وراء إعلان الرسول ﷺ الحرب عليهم(3) .

وأدرك النبى ﷺ بعد هزيمة المشركين فى بدر ، أن قريشا ستجمع كل قواها للأخذ بثأر بدر ، وأن المواجهة مع قريش فى القريب آتية لا محالة وأن أول واجباته للاستعداد لذلك هو حماية جبهته الداخلية ، حتى لا تُطعن من الخلف ، فبدأ باليهود الذين يعيشون بالمدينة بين المسلمين ، لحماية مؤخرته حال القتال مع قريش ، وأولهم بنو قينقاع .

---

(1) السيرة النبوية ـ ابن هشام(1/642).

(2) المغازى ، للواقدى (1/122).

(3) راجع : تاريخ الرسل والملوك ـ الطبرى (2/479) ، والطبقات الكبرى ـ ابن سعد (2/29) ، وتاريخ الكامل ـ ابن الأثير (2/90) ، وعيون الأثر ـ ابن سيد الناس (1/249) ، وزاد المعاد ـ ابن القيم الجوزى (2/91) .

• غزوة بنى قينقاع :

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وادعته يهود كلها ، وكتب بينه وبينهم عهدا ، وجعل بينه وبينهم أمانا ، وكان فيما شرط عليهم : ألا يظاهروا عليه عدوا .

فلما أصاب رسول الله ﷺ أصحاب بدر ، وقدم المدينة ، بَغت يهود ، وقطعت ما كان بينها وبين رسول الله ﷺ من العهد[1] فجمعهم رسول الله ﷺ بسوق بنى قينقاع[2] ثم قال : « يا معشر يهود ، أسلموا ، فوالله إنكم لتعلمون أنى رسول الله ، قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش »[3]. فقالوا : يا محمد ، لا يغرنك من لقيت إنك قهرت قوما أغمارا[4]، وإنا والله أصحاب الحرب ، ولئن قاتلتنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا[5].

فكانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد[6].

فبينما هم كذلك ، إذ قدمت امرأة من نساء الأنصار[7] بجلْب ـ منتجات ألبان ـ لها ، فباعته بسوق بنى قينقاع ، وجلست إلى صائغ ، فتعرض لها رجل من بنى قينقاع وجلس من ورائها وهى لا تشعر ، فجمع درعها إلى ظهرها بشوكة ، فلما قامت المرأة بدت عورتها ، فضحكوا منها ، فقام إليه رجل من المسلمين فاتبعه فقتله ، واجتمعت بنو قينقاع فقتلوا الرجل المسلم ، ونبذوا العهد إلى النبى ﷺ وأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ

---

(١) المغازى للواقدى (١/١٧٦).

(٢) السيرة النبوية ـ لابن هشام (٣/٥٠).

(٣) المغازى للواقدى (١/١٧٦).

(٤) أغمارا : جهالا .

(٥) المغازى للواقدى (١/١٧٦).

(٦) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس (١/٢٩٥).

(٧) المغازى للواقدي(١/١٧٦).

الْخَائنينَ ﴾[1]، فقال رسول الله ﷺ : « أنا أخاف بنى قينقاع » فسار إليهم بهذه الآية[2].

سار إليهم النبى ﷺ فى كافة مسلمى المدينة لحصارهم ولواءه بيد حمزة بن عبد المطلب ، وكان ذلك فى شهر شوال من السنة الثانية للهجرة .

فحاصرهم النبى ﷺ فى قلاعهم خمسة عشر يوما ، إلى هلال ذى القعدة[3]، حتى قذف الله فى قلوبهم الرعب ، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ ورضوا بما يصنعه الرسول ﷺ فى رقابهم ونسائهم وذراريهم وأموالهم .

فجاء عبد الله بن أبى ـ وكان على رأس المنافقين فى المدينة ـ إلى رسول الله ﷺ وقال : يا محمد ، أحسن فى موالى ـ وكانوا حلفاء الخزرج ـ فأبطأ عليه الرسول ﷺ فكرر ابن أبى مقالته ، فأعرض عنه النبى ﷺ فأدخل ابن أبى يده فى جيب درع رسول الله ﷺ من خلفه[4]. فتير لون النبى ﷺ وقال له : « أرسلنى » ، وغضب حتى رأوا لوجهه ظللا .

ألح ابن أبى فى رجائه قائلا : لا أسألك حتى تحسن فى موالى : أبعمائة حاسر[5] وثلثمائة دارع[6] قد منعونى من الأحمر والأسود ، تحصدهم فى غداة واحدة ، يا محمد، إنى امرؤ أخشى الدوائر[7].

فقال رسول الله ﷺ : هم لك ، على أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروننا بها » .

وسار بنو قينقاع ، تاركين وراءهم السلاح ، وأدوات الذهب الذى كانوا يصوغونه،

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٥٨ .

(٢) راجع : الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/٢٩) ، والمغازى للواقدى (١/ ١٨٠) ويرى بعض المفسرين أن الآية قد نزلت على النبى ﷺ للاذن له فى قريظة (راجع تفسير الجلالين).

(٣) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٢/٢٩).

(٤) المغازى للواقدى (١/١٧٧).

(٥) الحاسر : الذى لا درع له .

(٦) الدارع : لابس الدرع .

(٧) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٣/٥٢).

حتى بلغوا وادى القرى[١] ، فأقاموا بها شهرا[٢] ، ثم احتملوا ما معهم وساروا صوب الشمال حتى بلغوا أذرعات[٣] على حدود الشام ، وبها أقاموا ولم يبقوا كثيرا حتى هلك أكثرهم ، وبذلك تخلص المسلمون من خطرهم .

• مقتل كعب بن الأشرف :

ولم يأخذ اليهود العظة من القضاء على إخوانهم بنى قينقاع ، وإجلاؤهم ، بل استمروا فى إيذاء المسلمين ، لا سيما الشعراء منهم ، ومن بينهم كعب بن الأشرف الذى أهدر النبى ﷺ دمه من جراء ذلك .

فخرجت سرية قتل كعب بن الأشرف اليهودى فى ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة .

وكان سبب قتله : أنه كان رجلا شاعراً يهجو النبى ،ﷺ وأصحابه ، ويحرض عليهم ويؤذيهم[٤] .

فلما قدم زيد بن حارثة بالبشارة من بدر بقتل المشركين وأسر من أسر منهم ، كُبت وذَل ، ثم قال لقومه : ويلكم ! والله لبطن الأرض خير من ظهرها اليوم[٥] .

ثم خرج كعب حتى قدم مكة ، وجعل يحرض على رسول الله ﷺ وينشد الأشعار ، ويبكى على أصحاب القليب . ثم رجع المدينة ، فشبب[٦] بنساء المسلمين حتى آذاهم[٧] .

---

(١) وادى القرى : واد بين المدينةوالشام من أعمال المدينة ، كثير القرى ، فتحها النبى ، صلى الله عليه وسلم ، سنة سبع عنوة ، ثم صالح أهلها على الجزية (معجم البلدان - ياقوت الحموى ٥/٣٤٥).

(٢) المغازى للواقدى (١/ ١٨٠).

(٣) أذرعات: بلد فى أطراف الشام يجاور أر البلقاء وعمان (معجم البلدان - ياقوت الحموى ١/ ١٣٠).

(٤) الطبقات الكبرى - ابن سعد (٢/٣٢).

(٥) المغازى للواقدى - (١/١٩١).

(٦) شبب : تغزل بوصفهن ومحاسنهن .

(٧) السيرة النبوية - ابن هشام (٣/٨٥).

فانطلق إليه ستة نفر من الأنصار ، فقتلوه فى داره ليلا ، ثم رجعوا إلى المدينة فأصبحت اليهود مذعورين ، فجاءوا النبى ﷺ فقالوا : قُتل سيدنا غيلة !

فذكرهم النبى ﷺ صنيعه ، وما كان يحض عليهم ، ويحرض فى قتالهم ، ويؤذيهم ، ثم دعاهم إلى أن يكتبوا بينه وبينهم صلحا[1].

فلما أصبح رسول الله ﷺ من الليلة التى قتل فيها ابن الأشرف قال : من ظفرتم به من رجال اليهود فاقتلوه »[2].

فخافت اليهود ، فلم يطلع عظيم من عظمائهم ، ولم ينطقوا ، وخافوا أن يبيتوا كما بيت ابن الأشرف .

• إجلاء بنى النضير :[3]

ظن اليهود أن المسلمين أصبحوا ضعفاء بعد أحد ، وأن الفرصة قد حانت لأخذ ثارات إخوانهم بنى قنيقاع ، وثأر بنى كعب بن الأشرف ، فأخذوا يبثون الفزع ويخلقون المشكلات للمسلمين .

ولما كان بين المسلمين واليهود ذلك العهد الذى تعاهدوا عليه عند مقدم المهاجرين إلى المدينة ، والذى يقضى بإسهام كل من المسلمين واليهود فى الديات ونفقة الحرب وما إلى ذلك فقد خرج رسول الله ﷺ إلى منازل بنى النضير فى ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة[4]. وقيل : فى السنة الثالثة للهجرة ، بعد بدر بستة أشهر[5].

وذلك ليستعينهم النبى ﷺ فى دية قتيلين معاهدين للمسلمين من بنى كلاب ،

---

(١) الطبقات الكبرى - ابن سعد (٢/ ٣١).

(٢) المغازى للواقدى (١/ ١٩٢).

(٣) النضير : اسم قبيلة من اليهود الذين كانوا بالمدينة ، وكانوا هم وقريظة نزولا بظاهر المدينة فى حدائق وآطام لهم ، وكانت منازلهم التى غزاها النبى ، صلى الله عليه وسلم ، فيها تسمى ، وادى بطحان ، بموضع يقال له : البويرة . (معجم البلدان - ياقوت الحموى ٥/ ٢٩٠).

(٤) انظر : الطبقات الكبرى - ابن سعد (٢/ ٥٦) ، وسيرة النبى - ابن إسحاق (٣/ ٦٨٢)، والمغازى للواقدى (١/ ٣٦٣).

(٥) الروض الأنف - السهيلى (٢/ ١٧٦) ومعجم البلدان - ياقوت الحموى (٥/ ٢٩٠).

قد كان لهما من رسول الله ﷺ أمان ، فقتلهما عمر بن أمية الضمرى فى طريق عودته من بئر معونة ، بعد أن قتل المشركون أصحابه كلهم ، وهو لا يعرف أمان رسول الله ﷺ لهما .

فلما قدم على رسول الله ﷺ أخبره بمقتل أصحاب بئر معونة، وأخبره بأنه قتل العامريين ﷺ : « بئس ما صنعت ! ! قد كان لهما منا أمان وعهد »[١].

وكان بين بنى النضير وبني عامر عقد وحلف[٢]، فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين أظهروا له الرضا بمعونته ، وقالوا : نفعل يا أبا القاسم ما أحببت .

وخلا بعضهم ببعض ، وهموا بالغدر به .

فجلس النبي ﷺ إلي جنب جدار من بيوتهم في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى[٣].

وأتي رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعا إلي المدينة دون أن يعلم أحدا بوجهته ، فلما استبطأه أصحابه قاموا في طلبه ، فلقوا رجلا مقبلا من المدينة ، فسألوه عنه ؟ ! فقال : رأيته داخلا المدينة[٤] .

فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتي انتهوا إليه ، فأخبر الخبر بما كانت اليهود قد أرادته من الغدر به ـ وقد عرف بعد أن عمروا بن جحاش هو الذي أراد قتل النبى ﷺ بالقاء حجر الرحى عليه من فوق سطح الجدار الذي كان الرسول ﷺ تحته[٥].

وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم ، والسير إليهم ، فاستدعي النبى ﷺ محمد

---

(١) المغازى للواقدى (١/٣٦٤).

(٢) سيرة النبى ـ ابن إسحاق (٣/٦٨٢).

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٢/١٧٦).

(٥) انظر الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (١/٥٦) وسيرة النبى ـ ابن إسحاق (٣/٦٨٢)، والمغازى للواقدى (١/٣٦٤).

ابن مَسلمة[1] ، وأمره بالذهاب إلى بنى النضير ليقول لهم : « إن رسول الله أرسلنى إليكم ، أن أخرجوا من بلادى لقد نقضتم العهد الى جعلت لكم ، بما هممتم به من الغدر بى »[2].

«لقد اجلتكم عشرا ، فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه »[3].

فأخذوا يتجهزون للرحيل ، إلا أن رهطا من بنى عوف بن الخزرج ، منهم عبد الله بن سلول ، قد بعثوا إلى بنى النضير : أن اثبتوا ، وتمنعوا ، وإن أخرجتم خرجنا معكم[4]: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾[5].

فاستقر رأيهم على القتال ، واحتموا بحصونهم : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ ﴾[6]، وكدسوا أرزاقا تكفيهم مدة عام فى حصارهم .

تحرك المسلمون بقيادة النبى ﷺ لقتالهم ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، ثم سار بالناس حتى نزل بديار بنى النضير ، فحاصرهم فيها ست ليال[7] أو خمس عشرة ليلة[8]، وأمر رسول الله ﷺ أصحابه بقطع نخيل اليهود وأن يحرقوه ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾[9] رضاء بما صنعوا[10].

---

(١) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (١/٥٧) .
(٢) المغازى للواقدى (١/٣٦٧).
(٣) نفس المصدر السابق .
(٤) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٢/١٨٧) .
(٥) سورة الحشر ، الآية : ١١ .
(٦) سورة الحشر ، الآية : ٢ .
(٧) راجع سيرة النبى ـ ابن إسحاق (٣/٦٨٣) ، والسيرة النبوية ـ ابن هشام (٢/١٨٧).
(٨) راجع الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/٥٨) ، والمغازى للواقدى (١/٣٧٤) .
(٩) سورة الحشر ، الآية : ٥ .
(١٠) المغاري للواقدي (٣/٣٧٢) .

يقول المفسرون : لما حاصر رسول الله ﷺ بني النضير ، كان بعض الصحابة قد شرع يقطع ويحرق في نخيلهم ، إهانة لهم ، وارعابا لقلوبهم فقالوا : ما هذا الإفساد يا محمد ؟ ! إنك كنت تنهي عن الفساد ، فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟! فأنزل الله تعالي هذه الآية الكريمة : ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ ... إلخ .

وتربص اليهود عبثا نصرة منافقي المدينة لهم ، واسرع عبد الله بن أبي والقبائل الأخري لنجدتهم فلم يفعلوا ، وصدق الله القائل : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ ﴾[٣] وجزع اليهود : ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢].

فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، علي أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح ، ففعل .

فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل ، فخرجوا ، بعضهم إلى خيبر وبعضهم سار إلى الشام ، وذلك ما عبر عنه القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾[٣].

وقد غنم النبى ﷺ من ورائهم مغانم كثيرة من السلاح وغلال عظيمة ، قسمها النبى ﷺ بين الفقراء المهاجرين ، ولم يعط الأنصار منها شيئا ، إلا ثلاثة منهم فطابت أنفس الأنصار بتلك القسمة[٤].

ذلك أن الغنيمة التى تؤخذ بغير حرب تكون كما أمر القرآن الكريم : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾[٥].

---

(١) سورة الحشر ، الآية : ١٢ .

(٢) سورة الحشر ، الآية ٢ .

(٣) سورة الحشر ، الآية : ٢ .

(٤) انظر صفوة التفاسير . سبب نزول الآية : ١٠ من سورة الحشر ، والمغازى للواقدى (٣٨٢/١) .

(٥) سورة الحشر ، الآية : ٧ .

لذا أعطى النبى ﷺ الفئ للمهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم دون الأنصار فرد المهاجرون لإخوانهم الأنصار بعض ما كانوا قد أخذوه منهم فى أوائل عهدهم بالمدينة ، كذلك أعطى النبى ﷺ من هذه الأموال لسهل بن حنيف ، ولأبى دجانة ، إذ ذكرا له فقرهما .

ثم إن النبى ﷺ قد أخذ لنفسه نصيبا من الأرض ليزرعها ويدخر منها قوت أهله سنة ، كما كان يفعل .

ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان أسلما على أموالهما فأحرزاها [1] وقد نزل فى بنى النضير سورة الحشر بأسرها .

• غزوة بنى قريظة :

ولم يعد النبى ﷺ يأمن لؤم اليهود وغدرهم بعد ما كان من بنى قينقاع وبنى النضير ، إذ نكثت بنى قريظة عهدها مع النبى ﷺ والمسلمين فى أشد أوقاتهم حرجا وضيقا ، إذ مشى حيي بن أخطب بين اليهود وبين قريش وغطفان حتى تم الاتفاق بينهم جميعا على قتال المسلمين واستئصالهم ، ومزق بنو قريظة الكتاب الذى كان قد كتب بينهم وبين النبى ﷺ ونقضوا الاتفاقية ، وجاء الأحزاب إلى المدينة من فوقها ، وجاء اليهود من أسفل منها ، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، ولم تفلح جهود النبى ﷺ فى إثناء بنى قريظة عما اعتزموا عليه من الخيانة ونبذ العهد وراح يذكر بنى قريظة بعهدها ويخوفها عاقبة أمرها لكنهم جحدوا العهد ، وتم الاتفاق بينهم وبين قريش وغطفان على مباغتته المدينة ليلا .

ولكن الله قد رد كيدهم فى نحرهم ، ولم يصلوا إلى ما أرادوا ، إذ تفرقت الأحزاب بنعمة الله وفضله ، وبقى اليهود وحدهم بعد انسحاب الأحزاب عن الخندق، وبقيت معهم غدرتهم الشنيعة التى فضحت طواياهم ، إذ لم يرعوا للجار حقا ، ولم يحافظوا على العهد ، فباتوا يتوقعون هجوم المسلمين عليهم مع إدراكهم مسبقا بما يمكن أن يتمخض عنه هذا الهجوم .

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٢/ ١٧٨) .

وفى شوال سنة خمس من الهجرة ، وفى صبيحة الليلة التى انسحب فيها الأحزاب إلى ديارهم انصرف رسول الله ﷺ والمسلمون عن الخندق راجعين إلى المدينة ، ووضعوا السلاح .

فلما كانت الظهر ، أمر رسول الله ﷺ مؤذنا فأذن فى الناس « من كان سامعا مطيعا ، فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة »[١].

وقدم رسول الله ﷺ على بن أبى طالب برايته إلى بنى قريظة ، فخرج ثلاثة آلاف من المسلمين إلى بنى قريظة ، ومعهم ستة وثلاثون فارسا ، بقيادة النبى ﷺ.

واستعمل رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم[٢] ولما أتى رسول الله ﷺ بنى قريظة ، نزل على بئر من آبارها من ناحية أموالهم ، يقال له : ماء أنا [٣] ، وتلاحق الناس ، وحاصرهم رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة[٤] ، أو خمسا وعشرين ليلة[٥] ، فى حصونهم التى تحصنوا بها ، يقودهم : كعب بن أسد ، وحيي بن أخطب الذى دخل مع بنى قريظة فى حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان[٦] .

وظل بنو قريظة فى حصونهم طيلة أيام الحصار ، ورماهم المسلمون بالنبل ، فانجحروا ولم يطلع منهم أحد ، وأيقنوا أن النبى ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم ، فلما اشتد عليهم الحصار ، أرسلوا إلى النبى ﷺ : أن أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر ، فأرسله النبى ﷺ إليهم ، فشاوروه فى أمرهم ، فأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح[٧] ، ثم ندم واسترجع ، وقال خُنْت الله ورسوله ؛ فانصرف ، فارتبط فى المسجد ولم يأت رسول الله ﷺ حتى أنزل الله توبته .

ثم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فأمر بهم محمد بن مسلمة[٨] فكُتِّفوا ونُحّوا ناحية ، وأُخرج النساء والذرية فكانوا ناحية ، واستعمل عليهم عبد الله بن سلام ،

---

(١) سيرة النبى - ابن إسحاق (٧١٦/٣).

(٢) السيرة النبوية - ابن هشام (١٩٥/٢) .

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) الطبقات الكبرى - ابن سعد (٧٤/٢)، والمغازى للواقدى (٤٩٦/٢).

(٥) سيرة النبى - ابن إسحاق (٧١٦/٣) ، والسيرة النبوية - ابن هشام (١٩٥/٢).

(٦) سيرة النبى - ابن إسحاق (٧١٧/٣) .

(٧) السيرة النبوية - ابن هشام (٢/ ١٩٦) .

(٨) الطبقات الكبرى - ابن سعد (٧٥/٢) ، والمغازى للواقدى (٥٠٩/٢).

وجمع أمتعتهم وما وجد في حصونهم من الحَلْقة والأثاث والثياب ، فكان مما فيه ألف وخمسمائة سيف ، وثلثمائة درع ، وألف رمح ، وألف وخمسمائة ترس[١].

فتواثبت الأوس ، وقالوا : يا رسول الله ، إنهم موالينا دون الخزرج ، وقد فعلت في إخواننا بالأمس ما قد علمت - يشيرون إلى ما كان من أمر بني قينقاع حلفاء الخزرج الذين وهبهم النبي ﷺ إلى عبد الله بن أبي سلول - فلما كلمته الأوس، جعل النبي ﷺ الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ ، فقال سعد : « فإني أحكم فيهم أن يُقتل الرجال، وتُقسم الأموال ، وتُسبى الذراري والنساء »[٢] فقال النبي ﷺ لسعد « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة »[٣].

وانصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة في سابع ذي الحجة[٤] ثم أمر بخدود[٥] فخدت في السوق[٦] ثم جلس عليه أصحابه ، ودعا برجال بني قريظة ، فكانوا يخرجون رسْلا رسْلا[٧] تُضرب أعناقهم ، وكانوا ما بين ستمائة إلى سبعمائة[٨]، أو بين الثمانمائة والتسعمائة[٩]، أو غير ذلك[١٠].

ولم يُقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة يقال لها : نُباتة[١١]، إذ كان المسلمون قد جلسوا تحت حصن بني قريظة يستظلون بفيئه ، فألقت تلك المرأة عليهم برَحَى من فوق الحصن ، فلما رآها القوم انفضوا ، فأدركت الرَّحَى خلاد بن سويد ، فقتلته[١٢]. فأمر رسول الله ﷺ بها فقُتلت بخلاد بن سويد .

---

(١) الطبقات الكبرى - ابن سعد (٢/٧٥) والمغازي للواقدي (٢/٤٩٦).

(٢) سيرة النبي - ابن إسحاق (٣/٧٢٢١).

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) الطبقات الكبرى - ابن سعد (٢/٧٥) ، والمغازي للواقدي (٢/٤٩٦).

(٥) الخدود : شقوق مستطيلة في الأرض .

(٦) المغازي للواقدي (٢/٥١٣) .

(٧) الرِّسل : الجماعة .

(٨) الطبقات الكبرى - ابن سعد (٢/٧٥).

(٩) سيرة النبي - ابن إسحاق (٣/٧٢١).

(١٠) المغازي للواقدي (٢/٥١٧ ، ٥١٨).

(١١) المغازي للواقدي (٢/٥١٦).

(١٢) سيرة النبي - ابن إسحاق (٣/٧٢٢) .

وقد أنزل الله تعالى فى أمر الخندق وأمر بنى قريظة من القرآن القصة فى سورة الأحزاب ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾[١] .

وقد تصرف النبى ﷺ مع بنى قريظة بما ينبغى لأى قائد فى أى زمان ومكان أن يتصرف به مع الناس الذين يعايشهم ، بعدما بذل أقصى جهده لاستمالتهم إليه، وإحلال السلام محل السيف فى علاقته بهم ، لكنهم أبوا إلا طعنه فى ظهره عندما واتتهم الفرصة .

ومن ثمة كان لزاما على محمد صلوات الله وسلامه عليه أن يفعل ما فعل ، لينال احترام الناس ، فى بيئة لا تعرف إلا القوة ، وما كان ينبغى له أن يفعل غير ما فعل ليجبر هؤلاء الأقوام على احترامه ، وإلزامهم حدود الطاعة الواجبة نحوه ونحو تابعيه ، حتى لا يتعرض من هنا أو هناك - إن هو تراخى عن ردعهم - إلى عدوان هؤلاء الأقوام عليه وعلى أتباعه .

• سرية عبد الله بن عتيك إلى سلام بن أبى الحُقيق النضرى :

وبعد أن أجهز الرسول ﷺ على بنى قريظة ، وأنزل بهم العقاب الذى يستحقوه، أخذ يتتبع أولئك الذين تزعموا تخطيط وتنفيذ مؤامرة الخندق لإهلاك المسلمين ودحرهم ، وكان أبو رافع سلام بن أبى الحقيق فيمن حزب الأحزاب على رسول الله ﷺ مع حيي بن أخطب ، ثم فر إلى خيبر ليتخلص من العقاب[٢].

وكانت الأوس قبل أُحُد قد قتلت كعب بن الأشرف ، فى عداوته لرسول الله ﷺ وتحريضه عليه فأستأذنت الخزرج رسول الله ﷺ فى قتل ابن أبى الحقيق ، فأذن لهم فيه[٣].

---

(١) سورة الأحزاب ، الآيتان : ٢٦ ، ٢٧.

(٢) سيرة النبى - ابن إسحاق (٧٤٦/٣).

(٣) الروض الأنف - السهيلى (٢٠٩/٢) ، وسيرة النبى - ابن إسحاق (٧٤٦/٣).

فخرج إليه من الخزرج ، من بنى سلمة ، خمسة نفر : عبد الله بن عتيك ، وعبدالله بن أنيس ، وأبا قتادة ، والأسود بن خُزاعى ، ومسعود بن سنان ، وأمر عليهم رسول الله ﷺ عبد الله بن عتيك .

فخرجوا ، حتى إذا قدموا خيبر ، أتوا دار ابن أبى الحقيق ليلا ، فلم يدعوا بيتا في الدار إلا أغلقوه على أهله[1]، ثم قاموا على بابه ، فأستأذن عليه ، فخرجت إليهم امرأته ، فأدخلتهم عليه ، فأغلقوا عليه وعليهم بابه ، وابتدروه بأسيافهم ، وجعلوا يضربونه جميعا ، ثم نزلوا ، وصاحت امرأته ، فتصايح أهل الدار ، فاختبأوا عنهم ، وخرج الحارث بن أبى زينب فى ثلاثة آلاف فى آثارهم[2] يطلبونهم بالنيران فلم يروهم ، فرجعوا إلى المدينة ، فقدموا على رسول الله ﷺ وأخبروه خبرهم ، فقال النبى ﷺ : «أفلحت الوجوه»[3]، فقالوا : أفلح وجهك يا رسول الله .

• سرية عبد الله بن رواحة إلى أسَير بن رازم اليهودى :

وبعد ما قتل المسلمون سلام بن أبى الحقيق أمر اليهود عليهم أسير بن رازم ، فسار فى غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب رسول الله ﷺ[4].

فلما علم النبى بذلك ، وجه رواحة فى ثلاثة نفر من المسلمين ، وذلك فى رمضان من السنة السادسة للهجرة ، إلى خيبر ، وكان ذلك سرا ، فسألوا عن خبر أُسير ، فأُخبروا بذلك ، وعادوا إلى النبى ﷺ فأخبروه خبره ، فندب له النبى ﷺ ثلاثون رجلا ، وأمر عليهم عبد الله بن رواحة ، فخرجوا إليه فى شوال من السنة السادسة للهجرة[5].

فقدموا على أسير ، وقالوا له : إن رسول الله ﷺ قد بعثنا إليك لتخرج إليه فيستعملك على خيبر ، ويحسن إليك ، فطمع فى ذلك ، فخرج وخرج معه ثلاثون

---

(١) الروض الأنف ـ السهيلى (٢/ ٢١٠).

(٢) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/ ٩١).

(٣) المغازى للواقدى (٢/ ٥٦٧).

(٤) المغازى للواقدى (٢/ ٥٦٧).

(٥) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/ ٩١) .

رجلا من اليهود ، مع كل رجل رديف من المسلمين[١].

حتى إذا كانوا بقرقرة ثبار ، ندم أسير وأراد الغدر بالمسلمين ، ولكن المسلمين حملوا عليهم فقتلوا أصحابه جزاء غدرهم ، غير رجل واحد[٢]، ولم يصب من المسلمين أحد[٣].

وعاد المسلمون إلى المدينة ، وأخبروا النبى ﷺ بغدر اليهود ، فقال ﷺ : «نجاكم الله من القوم الظالمين»[٤].

غـزوة خيبــر

لو قدر لغزوة الأحزاب أن تصل إلى أهدافها لاستُؤصل الإسلام وقُضى على المسلمين .

وقد كان يهود خيبر من أكثر المتحمسين لتجميع القبائل ضد المسلمين ، وأكثر الدعاة فى شبه جزيرة العرب ضد محمد وضد الإسلام ، وقد ساهموا بنصيب وافر فى السعى لجميع الأحزاب فى غزوة الخندق ، إذ أقبلت جموع على المدينة لا قبل للمسلمين بها ، ربما كان من شأنها أن تستأصل شأفتهم تماما ، لولا حكمة النبى ﷺ وصلابة رجاله ، ولولا مدد السماء ، والعاصفة الهوجاء التى هبت فى تلك الليلة فأدخلت الرعب فى قلوب الأحزاب ليرتدوا عن المدينة .

وبعد أن تطهرت المدينة من مكر اليهود ولؤمهم ، واقتلع النبى ﷺ شجرة بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة ، قضت الضرورة القضاء على هذا العدو الرابض هنا يؤلب العرب ويكيد للإسلام ، فلم يكد النبى ﷺ يرجع من الحديبية إلى المدينة ، حتى آمر أصحابه بالتجهز للخروج إلى خيبر ، فأقام بالمدينة ذا الحجة وبعض المحرم ، ثم خرج فى بقية المحرم إلى خيبر[٥]، وقيل خرج فى صفر سنة سبع، أو لهلال ربيع الأول[٦] .

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/٩١) .

(٣) المغازى للواقدى (٢/٥٦٨) .

(٤) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/٩٣).

(٥) الروض الأنف ـ السهيلى (٢/٢٣٥) ، وسيرة النبى ـ ابن إسحاق (٣/٧٩١).

(٦) المغازى للواقدى (٢/٦٣٤).

واستعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي[1] أو سباع بن عرفطة الغفاري[2] ودفع الراية إلى على بن أبى طالب[3] وكانت بيضاء .

وكان الله ، سبحانه وتعالى ، قد وعده إياها وهو بالحديبية ، فى قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[4] .

وكان رسول الله ﷺ قد أمر أصحابه بالتهيؤ لغزوة خيبر ، وتجلب من حوله يغزون معه ، فقال : « لا يخرجن معنا إلا راغب فى الجهاد »[5].

وجاء المخلفون ـ ممن كانوا قد تخلفوا عنه فى غزوة الحديبية ـ يريدون أن يخرجوا معه رجاء الغنيمة ، فردهم النبى ﷺ وقال لهم « لا تخرجوا معى إلا للجهاد ، فأما الغنيمة فلا »[6].

فخرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر ، فسلك على عصْر[7] فبنى له فيها مسجداً ثم على الصهباء[8]، ثم أقبل بجيشه حتى نزل بوادٍ يقال له الرجيع[9]، فنزل بينهم وبين غطفان ، ليحول بينهم وبين خيبر ، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ فلما سمعت غطفان بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر جمعوا له ، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه[10]، حتى إذا ساروا قليلاً سمعوا فى أموالهم وأهليهم حسًا ، فظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم ، فرجعوا على أعقابهم ، فأقاموا فى أَهليهم وأموالهم ، وخلوا بين النبى ﷺ وبين خيبر[11].

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن سعد (١٠٦/٢).

(٢) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (١٠٦/٢).

(٣) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٣٤٣/).

(٤) سورة الفتح ، الآية : ٢٧.

(٥) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (١٠٦/٢) ، المغازى للواقدى (٦٣٤/٢).

(٦) المغازى للواقدى (٦٣٤/٢).

(٧) عصر : جبل بين المدينة ووادى الفرع (معجم البلدان ـ ياقوت ١٢٨/٤).

(٨) الصهباء : موضع بين وادى الفرع ومكة .

(٩) الرجيع : ماء لهذيل بين مكة والطائف (معجم البلدان ـ ياقوت ٢٩/٤).

(١٠) سيرة النبى ـ ابن إسحاق (٧٩٣/٣).

(١١) المغازى للواقدى (٦٣٥/٢).

فنزل النبى ﷺ خيبر ليلا ، وباب فى عسكره ، وإذا بعمال خيبر قد خرجوا بمساحيهم[١] ومكاتلهم[٢] وهم لا يشعرون ، بل خرجوا لأرضهم ، فلما رأوا جيش المسلمين صاحوا (محمد والله ، محمد والخميس معه) - يعنون بالخميس الجيش[٣] - ثم أدبروا هاربين إلى حصونهم .

فقال النبى ﷺ « الله أكبر ، خربت خيبر ، الله أكبر ، خربت خيبر ، انا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين »[٤].

ولما دنا النبى ﷺ من خيبر قال : « قفوا » فوقف الجيش ، فقال : « اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها . اقدموا بسم الله »[٥] ولما كانت ليلة الدخول قال ﷺ : « لأعطين هذه الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه » .

فبات الناس يتساءلون : أيهم يُعْطاها ؟ فلما أصبح الناس ، غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها .

فقال رسول الله : « أين على بن أبى طالب ؟ » فقالوا : يا رسول الله هو يشتكى عينيه ، قال : « فأرسلوا إليه » فأُتى به ، فتفل رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له فبرئ ، حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ، فقال : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ قال ﷺ : « انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خيراً من أن يكون لك حُمُر النَّعم »[٦].

---

(١) المساحى : جمع مسحاة ، وهى : آلة الهدم والحفر .

(٢) المكتل : القفة العظيمة .

(٣) الطبقات الكبرى - ابن سعد (٢/١٠٦).

(٤) سيرة النبى - ابن إسحاق (٣/٧٩٣).

(٥) الروض الأنف - السهيلى (٢/٢٣٦).

(٦) عيون الأثر - ابن سيد الناس (٢/١٣٣).

فقاتل رسول الله ﷺ المشركين أشد القتال ، وقتلوا من أصحابه عدة ، وقُتل منهم جماعة كثيرة[1] .

وتدنى رسول الله ﷺالأموال يأخذها مالا مالا ، وحصنا حصنا ، فكان أول حصن من حصونهم : حصن ناعم ، وعنده قتل من المسلمين محمود بن مسلمة برحى ألقيت عليه منه .

ثم دخل اليهود حصنا منيعا لهم يقال له : القموص - حصن بنى أبى الحقيق[2]- فحاصرهم رسول الله ﷺ قريبا من عشرين ليلة ، وكانت أرضا وخمة شديدة الحر ، فجهد المسلمون جهدا شديداً ، فذبحوا الحُمْر ، فنهاهم رسول الله ﷺ عن أكلها .

وأصاب رسول ﷺمنهم سبايا ، منهن صفية بنت حيي بن أخطب - أم المؤمنين - وبنتا عم لها [3].

وتحولت اليهود إلى قلعة الزبير - حصن منيع فى رأس قلة - فأقام عليه رسول الله ﷺ ثلاثة أيام[4]. فجاء يهودى اسمه غزال إلى رسول الله ﷺ فقال : يا أبا القاسم ، إنك لو أقمت شهرا بها لن يُبَالوا ، إن لهم شِرْبا وعيونا تحت الأرض ، يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك ، فإن قطعت شِرْبهم عليهم صحروا لك .

فسار رسول الله ﷺ إلى مائهم فقطعه عليهم ، فلما قُطع عليهم خرجوا فقاتلوا أشد القتال ، وقُتل من المسلمين نفر ، وأصيب نحو عشرة من اليهود ، وافتتحه رسول الله ﷺ ثم تحول رسول الله ﷺ إلى حصنيهم : الوطيح والسلالم ، وكانا آخر حصون أهل خيبر افتتاحا [5]، فتحصن أهلهما أشد التحصن ، وجاءهما كل فِلّ - هارب - كان قد انهزم[6]، فجعلوا لا يخرجون من حصونهم ، حتى همّ

---

(١) راجع السيرة النبوية - ابن هشام (٣٤٣/٣).

(٢) عيو الأثر - ابن سيدد الناس (١٣٣/٢) .

(٣) الروض الأنف - السهيلى (٢٣٧/٢).

(٤) زاد المعاد - ابن قيم الجوزى (١٣٦/٢).

(٥) السيرة النبوية - ابن هشام (٣٤٧/٣) ، وسيرة النبى - ابن إسحاق (٧٩٦/٣).

(٦) زاد المعاد - ابن قيم الجوزى (١٣٦/٢).

رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق .

فلما أيقوا بالهلكة ، وقد حصرهم رسول الله أربعة عشر يوما ، سألوا رسول الله ﷺ أن يسيرهم ، وأن يحقن لهم دماءهم ، ففعل[١]، على أن يخرجوا من خيبر وأرضها بذراريهم ، ويخلون بين يدى رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض ، على الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة ، إلا ثوبا على ظهر إنسان[٢]، فقال رسول الله ﷺ : « وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتمونى شيئا » فصالحوه على ذلك[٣].

لكنهم غيبوا مَسْكا [٤] فيه مال وحلى لحيي بن أخطب ، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير[٥]، فقال رسول الله ﷺلعم حُيىّ بن أخطب « ما فعل مسك حيي الذى جاء به من النضير ؟ قال : أذهبته النفقات والحروب فقال ﷺ : « العهد قريب ، والمال أكثر من ذلك »[٦].

وكان النبى ﷺ قبل ذلك قد دخل خربة ، فقال : « قد رأيت حييا يطوف فى خربة ههنا »[٧]، فذهبوا فطافوا ، فوجدوا المَسْك فى الخربة ، فقتلوا ابنى أبى الحقيق ، وأحدهما : كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق زوج صفية أم المؤمنين ، وكانت عروسا حديثة عهد بالدخول ، فعرض عليها رسول الله ﷺالإسلام ، فأسلمت ، فاصطفاها لنفسه ، فأعتقها ، وجعل عتقها صداقها[٨].

وسبى رسول الله ﷺ نساءهم وذراريهم ، وفشت السبايا من خيبر فى المسلمين، فقام رسول الله ﷺ فنهى الناس عن أربع : اتيان الحبالى من السبايا ، وعن أكل الحمار الأهلى ، وعن أكل كل ذى ناب من السباع ، وعن بيع المغانم حتى تقسم[٩].

---

(١) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس (١٣٥/٢) .
(٢) سيرة النبى ـ ابن إسحاق (٨٠٠/٣).
(٣) المغازى للواقدى (٦٧١/٢).
(٤) مسكا : المسك : الجلد .
(٥) الروض الأنف ـ السهيلى (٢٤١/٢).
(٦) زاد المعاد ـ اب قيم الجوزى (١٣٥/٢).
(٧) نفس المصدر السابق .
(٨) زاد المعاد ـ ابن قيم الجوزى (١٣٧/٢).
(٩) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٣٤٣/٣).

وقسم رسول الله أموالهم بالنكث الذى نكثوا ، وأراد أن يجليهم من خيبر ، فسألوا النبى ﷺ أن يعاملهم فى الأموال على النصف ، وقالوا : نحن أعلم بها منكم ، وأعمر لها ، فصالحهم النبى ﷺ على النصف ، على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم[١] ، فكانت خيبر فيئا للمسلمين

وقسم رسول الله ﷺ خيبر على ستة وثلاثين سهما ، وجمع كل سهم مائة سهم، وجعل نصفها لنوائبه وما ينزل به ، وعزل النصف الآخر فقسمه بين المسلمين[٢]، وسهم النبى ﷺ كسهم أحد المسلمين[٣]، وفى هذه الغزاة : قدم على النبى ﷺ من الحبشة ابن عمه جعفر بن أبى طالب وأصحابه ومعهم الأشعريون عبد الله بن قيس ـ أبو موسى الأشعرى ـ وأصحابه ، وكان فيمن قدم اسماء بنت عميس ، ولما قدم جعفر على النبى ﷺ تلقاه ، وقبّل جبهته ، وقال : « والله ما أدرى بأيهما أفرح، بفتح خيبر ، أم بقدوم جعفر ؟ »[٤].

وفى هذه الغزاة كذلك سُمّ رسول الله ﷺ أهدت له زينب بن الحارث اليهوددية[٥] ـ وهى ابنة أخى مرحب ، وامرأة سلام ابن مشكم ، قتيلى خيبر ـ شاة مشوية ، فلما انتهش النبى ﷺ من ذراعها ، أخبرته الذراع بأنها مسمومة ، فلفظ الأكلة ، ثم دعا بالمرأة اليهودية فاعترفت ، فقال لها « ما حملك على ذلك ؟ » قالت : قد نلت من قومى ما لم يخف عليك ، فقلت : إن كان ملكا استرحت منه ، وإن كان نبيا فسيُخْبَر .

فقال لها النبى ﷺ : « ما كان الله ليسلطك علىّ » واحتجم على الكاهل، وأمر من أكل معه منها فاحتجم ، فمات بعضهم[٦].

وهكذا اكتمل تجميع قوى المسلمين استعدادا لمعركة الإسلام الحاسمة ضد قريش (فتح مكة) .

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٣٥٢/٢).

(٢) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (١١٣/٢).

(٣) زاد المعاد ـ ابن قيم الجوزى (١٣٧/٢).

(٤) زاد المعاد ـ ابن قيم الجوزى (١٣٩/٢) .

(٥) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٣٥٢/٢).

(٦) راجع الطبقات الكبرى ـ ابن سعدد (١١٥/٢) ، السيرة النبوية ـ ابن هشام (٣٥٢/٣) ، زاد المعاد ـ ابن قيم الجوزى (١٣٩/٢).

• يهود فدك[1] :

وبعد ما فرغ النبى ﷺ من غزوة خيبر ، قذف الله الرعب فى قلوب أهل فدك ، لما بلغهم ما أوقع الله تعالى بأهل خيبر ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من أموالهم بغير قتال[2] فقدمت على رسول الله ﷺ وفود أهل فدك ، بخيبر أو بالطائف أو بالمدينة[3] ، يبذلون له ذلك ، فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة له ، لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب .

• يهود وادى القرى[4] :

وعلى أثر صلح فدك ، تجهز رسول الله ﷺ للعود إلى المدينة عن طريق وادى القرى ، فى جمادى الأولى سنة سبع من الهجرة ، وكان بوادى القرى جماعة من اليهود ، قد انصاف إليهم جماعة من العرب[5] ، فدعا ﷺ أهلها للإسلام فامتنعوا وقاتلوا ، ففتحها عنوة وغنم أموالها .

وأقام رسول الله ﷺ بوادى القرى ، أربعة أيام[6] وقسم ما أصاب على أصحابه بوادى القرى ، وترك الأرض والنخل فى أيدى يهود ، وعاملهم على نحو ما عامل عليه أهل خيبر[7] .

• يهود تيماء[8] :

ولما بلغ يهود تيماء ما واطأ عليه النبى ﷺ أهل خيبر وفدك ووادى القرى ، صالحوا النبى ﷺ على الجزية وأقاموا ببلادهم ، وأرضهم فى أيديهم .

وولاها النبى ﷺ يزيد بن أبى سفيان ، وكان إسلامه يوم فتحها[9] .

---

(١) فدك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان أو ثلاثة (معجم البلدان ـ ياقوت ٤/ ٢٣٨).

(٢) انظر السيرة النبوية ـ ابن هشام (٢/ ٣٥٢).

(٣) راجع نفس المصددر السابق ، الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/ ١١٧) .

(٤) وادى القرى : واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة (معجم البلدان ٤/ ٣٤٥) .

(٥) زاد المعاد ـ ابن قيم الجوزى .

(٦) نفس المصدر السابق .

(٧) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس (٢/ ١٤٤).

(٨) تيماء : بليد فى أطراف الشام بين الشام ووادى القرى (معجم البلدان ٢/ ٦٧).

(٩) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس (٢/ ١٤٥).

وبذلك ، دانت يهود كلها لسلطان الإسلام ، وانتهى كل ما كان لهم من سلطان فى الجزيرة العربية .

فصار المسلمون بمأمن من ناحية الشمال إلى الشام ، كما صاروا من قبل بمأمن من ناحية الجنوب بعد صلح الحديبية .

وبانهيار سلطان اليهود خفت مشاعر الكراهية لهم من المسلمين .

● بعث خالد بن الوليد إلى يهود نجران :

لم يأل رسول الله ﷺ جهدا فى دعوة أهل الكتاب - خاصة اليهود - إلى الإسلام ، ولم ينله اليأس أو القنوط فى أن يجتذبهم إلى حظيرة الجماعة الإسلامية أو التآلف معها ، على الرغم من سابق معاناته معهم ، وخيانتهم وانتهاز أية فرصة قد سنحت لهم للكيد للدعوة وصاحبها عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، والعمل على النيل منه ومن دعوته بالوقوف مع أعدائه ضده فى أشد الأوقات ضيقا وحرجا .

وبعدما وقع بين النبى ﷺ واليهود من اقتتال وصراع دارت فيه عليهم الدوائر ، وجنوا جزاء لؤمهم ومكرهم ، فإن النبى ﷺ كان لا يزال يمتثل لأمر الله تعالى له بدعوتهم ونصحهم والصبر عليهم ، ما لم تبد منهم خيانة أو ينقضوا عهدا : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾[١].

وفى ربيع الأول[٢] ، أو ربيع الآخر ، أو جمادى الأولي[٣] سنة عشر ، بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فى أربعمائة مسلم إلى بنى الحارث بن جعفر بنجران - وكانوا يهودا[٤] - وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام - ثلاثا قبل أن يقاتلهم فإن استجابوا قبل منهم وإن لم يفعلوا قاتلهم .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٦٤ .

(٢) الطبقات الكبرى - ابن سعد (١/٣٣٩).

(٣) السيرة النبوية - ابن كثير (٤/٢٣٩) ، والسيرة النبوية - ابن هشام ٣/٢٣٥ .

(٤) بلوغ الأرب - الألوسى (ص ٢٤٠).

فخرج خالد حتى قدم عليهم ، فأسلم الناس ، ودخلوا فيما دعوا إليه .

فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام ، وكتاب الله وسنة نبيه[1] ﷺ وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ فكتب النبى ﷺ إلى خالد بأن « بشرهم وأنذرهم ، وأقبل ومعك وفدهم »[2] فقدم خالد ومعه وفدهم ، وأنزلهم على رسول الله ﷺ فسلموا عليه وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله .

فأجازهم النبى ﷺ بعشر أواق ، وأجاز لأحدهم وهو قيس ابن الحصين باثنتى عشرة أوقية ونَش[3] ، وأمره عليهم ، ثم انصرفوا إلى قومهم فى بقية من شوال[4] ، أو فى صدر ذى القعدة[5] ، فلم يمكثوا بعد أن رجعوا إلى قومهم إلا أربعة أشهر حتى توفى رسول الله ﷺ .

• رسل ملوك حمير إلى النبى ﷺ :

تقاطرت الوفود والرسل على المدينة فى أواخر العام التاسع من الهجرة للقاء النبى ﷺ أثر عودته من تبوك ، كما شهدت المدينة فى العام العاشر بعض هذه الوفود بين الحديبية وفتح مكة ولم تكن هذه الوفود التى أقبلت إلى المدينة من المشركين ، تخطب وده ، وتعلن الانقياد لما يدعو إليه .

من بينها قدوم رسل ملوك حمير بكتابهم إلى رسول الله ﷺ إذ قدم على رسول الله ﷺ مالك بن مرارة الرهاوى يقود رسل ملوك حمير بكتابهم وإسلامهم ـ وكانوا يهودا[6] ـ وذلك اثر مقدمه من تبوك ، وهم الحارث بن عبد كلال ، والنعمان قيل[7] ذى رعين ومعافر وهمدان .

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٢٣٩/٤).

(٢) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٣٣٩/١).

(٣) النش : نصف كل شيء .

(٤) راجع الطبقات الكبرى ـ لابن سعد (١/ ٢٤٠).

(٥) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٢٤١/٤).

(٦) بلوغ الأرب ـ الألوسى (ص ٢٤٠).

(٧) القيل : واحد الأقيال ، وهم الملوك الذين دون الملك الأكبر .

وقد قدم رسولهم على رسول الله ﷺ فى رمضان سنة تسع[1] فكتب إليهم رسول الله ﷺ [2]:

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ، النبى ، إلى الحارث بن عبد كلال ، وإلى النعم بن عبد كُلال ، وإلى النعمان قَيل ذى رعين ومعافر وهمدان :

أما بعد ذلك : فإننى أحمد الله الذى لا إله إلاهو .

أما بعد : فإنه قد وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم ، فبلغ ما أرسلتم وأخبر عما قبلكم ، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين ، فإن الله تبارك وتعالى قد هداكم بهداه إن أصلحتم ، وأطعتم الله ورسوله ، وأقمتم الصلآة وآتيتم الزكاة ، وأعطيتم من المغنم خُمْس الله وخمس نبيه وصفيه ، وما كتب على المؤمنين من الصدقة ... ومن أدى ذلك ، وأشهد على إسلامه، وظاهر المؤمنين علي المشركين ، فإنه من المؤمنين ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وما كان على يهوذيته أو نصرانيته فإنه لا يرد عنها وعليه الجزية .

وعلى كل حالم ذكر أو أنثى حر أو عبد دينار واف من قيمة المعافر ـ ثياب من ثياب اليمن ـ أو عوضه ثيابًا ، فمن أدى ذلك إلى رسول الله ﷺ فإن له ذمة الله وذمة رسوله ، ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله .

أما بعد : فإن رسول الله محمد النبى أرسل إلى زرعة ذى يزن أنه إذا أتاكم رسلى فأوصيكم بهم خيرا : معاذ بن جبل ، وعبد الله بن زيد ، ومالك بن عبادة ، وعقبة أبن نمر ، ومالك بن مرة وأصحابهم ، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم ، وأبلغوها رسلى ، وأن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن إلا راضيا .

أما بعد : فإن محمداً يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله .

ثم أن مالك بن مرة الرهاوى قد حدثنى أن أسلمت من أول حمير وقتلت المشركين ، فأبشر بخير .

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن كثير (١٤٥/٤) .

(٢) راجع السيرة النبوية ـ ابن هشام (٢٣٥/٤) ، السيرة النبوية ـ ابن كثير (١٤٥/٤) ، الطبقات الكبرى (ابن سعد ٣٥٦/١).

وآمرك بحمير خيراً ، ولا تخونوا ، ولا تخاذلوا ، فإن رسول الله هو ولى غنيكم وفقيركم ، وأن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته ، إنما هى زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل .

وإن مالكاقد بلّغ الخبر ، وحفظ الغيب ، وآمركم به خيراً ، وأنى قد أسلمت إليكم من خيرة صالحى أهلى ، وأولى دينهم ، وأولى علمهم ، وآمركم بهم خيراً فإنهم منظور إليهم ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

بتلك السياسة أمكن للنبى ﷺ أن يأمن جانب اليهود ، ويرتاح من همهم ، جانبهم ، بعد أن أعطى لقضيتهم ما استحقته من جانبه إن سلما وإن حربا .

ثانيا : النصارى

بجانب عبادة الأوثان التى كانت سائدة فى الجزيرة العربية حين بُعث النبى محمد ﷺ ووجود الكيانات اليهودية على أرضها ـ كما أشرنا من قبل ـ فقد عرفت النصرانية طريقها إلى الجزيرة العربية كذلك .

إذا انتشرت الديانة المسيحية فى بلاد اليمن فى الجنوب ، حيث كان للحميريين السلطة فى اليمن منذ سنة ١١٥ ق.م ، وجاء المسيح ، وانتشر الدين المسيحى بينما لا يزال للحميرين السلطة والملك فى اليمن[١] ، ثم ضعفته حمير فى القرن الخامس الميلادى وما يليه ، وكان ملك حمير فى هذه الأثناء اسمه ذو نواس، وكان قد اعتنق اليهودية[٢] وفى الوقت نفسه كانت المسيحية قد انتشرت فى نجران[٣] شمال اليمن ، وكانت نجران أهم مواطن النصرانية فى بلاد العرب، وهى مدينة خصبة التربة ، عامرة بالسكان ، يشتغل أهلها بالزراعة ويجيدون صناعة الأنسجة الحريرية ، ويتجرون فى الجلود والأسلحة[٤] وقد جاءت المسيحية إلى نجران عن طريق الحبشة[٥] أو الشام[٦] ، وبسبب التعصب الدينى من جهة ، وخوف الحميريين أن يمتد نفوذ الحبشة إلى بلادهم عن طريق المسيحيين بنجران ، فقد سار إليهم ذو نواس بجنوده ، فدعاهم إلى اليهودية ، وخيرهم بين ذلك والقتل ، فاختاروا القتل ، فخدلهم الأخدود ، فحرق من حرق فى النار ، وقتل من قتل بالسيف ، ومثّل بهم ، حتى قتل منهم قريبا من عشرين ألفا ، ففى ذى نواس وجنوده أنزل الله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[٧].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ـ ابن جرير الطبرى (١/ ٥٤٠).

(٢) انظر كتاب الأصنام ـ للكلبى ص ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ٥٨ .

(٣) نجران : فى مخاليف اليمن من ناحية مكة .

(٤) تاريخ الإسلام السياسى ـ حسن إبراهيم (١/٧٣).

(٥) نفس المصدر السابق .

(٦) معجم البلدان ـ ياقوت الحموى (٥/٢٦٦).

(٧) سورة البروج ، الآيات : ٤ـ ٨ ، راجع : معجم البلدان لياقوت (٥/٢٦٨)، وتاريخ الطبرى (١/٥٤٤).

وكذلك انتشرت المسيحية فى بلاد العرب فى قبائل تغلب وغسان وقضاعة وربيعة[١] عن طريق سوريا وشبه جزيرة سيناء الآهلة بالأديرة والصوامع[٢].

وكان بين العرب أناس مستنيرون ، حاولوا الارتقاء من الوثنية إلى اعتقادات أرقى منها ، وذلك لاختلاطهم باليهود والمسيحيين ، من هؤلاء : أمية بن الصلت الذى كان يعرف النبى المنتظر ويأمل أن يكون هو[٣]؛ ومنهم : ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة رضى الله عنها ، وزوج النبى ﷺ وكان شيخا دخل النصرانية ، وحفظ الإنجيل ، وقيل : إنه نقل إلى العربية بعض ما فى الأناجيل[٤]؛ ومنهم : قس أبن ساعدة الأيادى ، الذى سمعه النبى ﷺ بسوق عكاظ، يبشر ببعث نبي[٥]؛ ومنهم : عبيد الله بن جحش ، الذى أسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ، وهناك دخل النصرانية ، وأقام عليها ، وأقامت امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان علي الإسلام ، حتى صارت من أزواج النبى وأمهات المؤمنين[٦]؛ ومنهم عثمان بن الحويرث ، وكان من ذوى قرابة السيدة خديجة ، فذهب إلى بيزنطة وتنصر ، وحسنت مكانته عند قيصر ملك الروم[٧].

أما دولتا الشمال الغساسنة والمناذرة ، فقد عرفتا المسيحية أيضا ، وبخاصة دولة الغساسنة التى كانت وثيقة الصلة بثقافات الروم ، ودخلت المسيحية أيضا الحيرة ، حيث تنصرت الأسرة المالكة أو أغلبها .

على أنه لم يقدر للمسيحية الفوز والغلبة ببلاد العرب ، إذ كانت إذ ذاك مذهبا معقدا تعددت فيه الفرق واختلفت ، ولم يكن لها عند العرب ما للوثنية من مكان ، وقد التقى النبى ﷺ فى المدينة بطوائف مختلفة من النصارى فى أوقات متفاوتة ، ودعاهم إلى الإسلام ، فمنهم من وصفته الآيات الكريمة فى سورة المائدة

---

(١) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ـ الألوسى (ص ٢٤١)

(٢) تاريخ الإسلام السياسى ـ حسن إبراهيم (١/٧٣).

(٣) تاريخ الإسلام السياسى ـ حسن إبراهيم (١/٧٤) .

(٤) كتاب الهجرة ـ عبد الله السمان (ص ١١٦).

(٥) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ـ القلقشندى (١/٢١٢).

(٦) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (١/١٥٩).

(٧) الهجرة ـ محمد عبد الله السمان (ص ١١٧).

من مشهد تصديقى رائع فى قوله تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾[١].

وعلى الجملة فقد كان لليهودية والمسيحية فى جزيرة العرب أشياع كثيرون يؤمنون بتلك العقيدة القائلة بالتوحيد ، وعلى الرغم من أنه لم يقدر لهما الفوز والغلبة فى جزيرة العرب ، إلا أنه قد مهدت تلك الأفكار والآراء المسيحية واليهودية الطرق لظهور المصلح المنتظر ، وهو النبى ﷺ .

ومن المرويات التاريخية : أن وفودا نصرانية قد قدمت إلى المدينة من نجران اليمن ومن الحبشة ومن الشام ، واتصلت بالنبى ﷺ ، فمنها من تناظر معه وبقى على دينه ، ومنها من آمن بالله ورسوله ودخل الإسلام .

كما أرسل النبى ﷺ بعوثه إلى أهل الكتاب يستميلهم إلى الإسلام ، ومن ذلك :

• بعثه الأمراء إلى أهل اليمن :

إذ بعث رسول الله ﷺ أبا موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل إلى اليمن ، كل واحد منهما على مخلاف[٢] ، وكان اليمن مخلافان[٣] ثم قال ﷺ لهما : « يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا »[٤] وقد أوصى رسول الله ﷺ معاذ وعهد إليه ، ثم قال له: « إنك ستقدم على قوم من أهل الكتاب ، يسألونك : ما مفتاح الجنة ؟ فقل شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له »[٥].

---

(١) سورة المائدة الآيتان : ٨٢ ، ٨٣ .

(٢) المخلاف : المديرية أو المحافظة فى الاصطلاح الحديث .

(٣) السيرة النبوية ـ ابن كثير (١٩١/٤).

(٤) نفس المصدر السابق .

(٥) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٢٣٧/٤).

وقال ﷺ : « فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم ، فترد على فقرائهم ، فإن أطاعوا لك بذلك فإياكم وخالص أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب »[١].

وقد أقام معاذ باليمن ، فكان قاضيا للنبى ﷺ بها ، وحَكَمًا فى الحروب ، وإليه تدفع صدقات اليمن[٢]، كما كان معلما لأهل اليمن وحضرموت[٣].

ومن ذلك كذلك :

• قدوم وفد غسان على النبى ﷺ :

وقد كانت حسان من نصارى العرب[٣]، وقد قدم وفدهم على النبى ﷺ بالمدينة[٤] فنزلوا دار رملة بنت الحارث[٥]، وهم ثلاثة نفر ، فأسلموا ، وقالوا : لا ندرى أيتبعنا قومنا أم لا ؟ وهم يحبون بقاء ملكهم وقرب قيصر[٦].

فأجازهم رسول الله ﷺ بجوائز ، وانصرفوا راجعين ، فقدموا على قومهم فلم يستجيبوا لهم ، وكتموا إسلامهم حتى مات منهم رجلان على الإسلام وأدرك الثالث منهم عمر بن الخطاب عام اليرموك ، فلقى أبا عبيدة ، فخبره بإسلامه[٧].

• نصارى تغلب :

كما قدم على رسول الله ﷺ ستة عشر رجلا من بنى تغلب بين مسلمين ونصارى عليهم صلب الذهب[٨] فعاهد رسول الله ﷺ النصارى منهم على أن لا يصبغوا أولادهم فى النصرانية ، وأجاز المسلمين منهم بجوائزهم[٩].

---

(١) السيرة النبوية - ابن كثير (١٩٢/٤).

(٢) غسان : ماء باليمن قرب سد مأرب ، كان شربا لولد مازن بن الازد بن الغوث ، نزلوا عليه فسموا به .

(٣) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب - الألوسى (ص ٢٤٠).

(٤) الطبقات الكبرى - ابن سعد (٣٣٨/١).

(٥) نفس المصدر السابق .

(٦) زاد المعاد - ابن قيم الجوز (٥٣/٣).

(٧) عيون الأثر - ابن سيد الناس (٢٥٧/٢).

(٨) السيرة النبوية - ابن كثير (١٧٨/٤).

(٩) راجع الطبقات الكبرى - ابن سعد (٣١٦/١) .

• **نصارى نجران**[1] :

أما عن نصارى نجران ، وهى أكبر الجماعات النصرانية فى جزيرة العرب ، فقد كتب النبى ﷺ كتابا إلى نصارى نجران يدعوهم إلى الإسلام ، وبعد تشاور وتحاور فيما بينهم بعثوا إلى النبى ﷺ فى المدينة ستين[2] أو سبعين [3] راكبا ، فيهم أربعة عشر [4] رجلا أو أربعة وعشرون[5] رجلا من أشرافهم ، منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم : العاقب ـ أمير القوم وذو رأيهم ـ والسيد ـ ثمالهم[6] ـ وأبو حارثة بن علقمة ـ أحد بنى بكر بن وائل ـ أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم[7].

فلما قدموا على رسول الله ﷺ دخلوا عليه مسجده حين صلى العصر ، عليهم ثياب الحبرات[8] ـ جبب وأردية[9] ـ فحانت صلاتهم فقاموا يصلون فى مسجده ، فأراد الناس منعهم ، فقال ﷺ : « دعوهم » فاتجهوا إلى المشرق فصلوا صلاتهم[10].

ثم أتوا النبى ﷺ فأعرض عنهم ولم يكلمهم ، فقال لهم عثمان : ذلك من أجل زيدكم هذا[11] فانصرفوا يومهم ذلك ، ثم غدوا عليه بزى الرهبان ، فسلموا عليه ، فرد عليهم ودعاهم إلى الإسلام ، فأبوا ، وكثر الكلام والحجاج بينهم ، وتلا عليهم القرآن .

فلما كلمه الحبران ، قال لهما : « أسلما » ، قالا : أسلمنا ، فقال لهما

---

(١) روى عن النبى ﷺ أنه قال : « القرى المحفوظة أربع : مكة ، والمدينة ، وإيلياء ونجران ، وما من ليلة إلا وينزل على نجران سبعون ألف ملك ، يسلمون على أصحاب الأخدود ، ولا يرجعون إليها بعد هذا أبدا » معجم البلدان ـ اقوت الحموى (٥/ ٢٦٩).

(٢) راجع السيرة النبوية لابن هشام (٢٢٢/٢) ، وزاد المعاد لابن قيم الجوزى (٣٨/٣).

(٣) مقدمة ابن خلددون (٢٥٧/٢).

(٤) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٢٢٢/٢) ، مقددمة ابن خلدون (٢٥٧/٢).

(٥) زاد المعادد ـ ابن قيم الجوزى (٣٨/٣) ، السيرة النبوية ـ ابن كثير (١٠٧/٤) .

(٦) ثمالهم : أصلهم الذى يقصدون إليه ، ويقوم بأمورهم وشئونهم .

(٧) المدارس : الموضع يدرس فيه كتاب الله . (انظر : السيرة النبوية ـ ابن هشام ٢٢٢/٢) .

(٨) الحبرات : برود من اليمن .

(٩) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٢٢٢/٢).

(١٠) زاد المعاد ـ ابن قيم الجوزى (٣٨/٣).

(١١) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٣٥٧/١) .

النبى ﷺ « كذبتما ، يمنعكما من الإسلام ثلاث : دعاؤكما لله ولدا ، وعبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير »[1].

قالا : فمن أبوه يا محمد ؟ ! فصمت النبى ﷺ عنهما فلم يجبهما ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك صدر سورة آل عمران ، من قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[2] إلى رأس الثمانين فيها[3]، عند قوله عز وجل : ﴿ وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[4] فلما قرأ عليهم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[5] قالوا: ما نعرف ما تقول !

ونزلت آية المباهلة ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾[6] فقال لهم النبى ﷺ : «إن أنكرتم ما أقول فهلم أباهلكم »[7] ولأن القوم كانوا على علم بالكتاب وكانوا غير مستريحين إلى القطع بعدم نبوة محمد ﷺ فإنهم أبوا أن يجيبوه إلى المباهلة وقالوا : يا أبا القاسم ، دعنا ننظر فى أمرنا ، ثم نأتيك بما تريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه[8].

فانصرفوا يومهم هذا ، وخلا بعضهم إلى بعض ، وتصادقوا فيما بينهم ، فقال السيد للعاقب : قد والله علمتم أن الرجل نبى مرسل، ولئن لاعنتموه لاستأصلكم،

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٢/٢٢٥).

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٨.

(٣) زاد المعاد ـ ابن قيم الجوزى (٣/٣٨) .

(٤) سورة ال عمران ، الآية : ٨٠ .

(٥) سورة آل عمران ، الآية : ٥٩ .

(٦) سورة آل عمران ، الآية : ٦١ .

(٧) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (١/٣٥٨).

(٨) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٢/٢٣٣).

وما لاعن قوم نبيا قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، فإن أنتم لم تتبعوه وأبيتم إلا ألف دينكم فوادعوه وارجعوا إلى بلادكم[١].

فلما أصبح رسول الله ﷺ من الغد ، أقبل ومعه الحسن والحسين ، وفاطمة تمشى عند ظهره للملاعنة[٢]، وقال لهم رسول الله ﷺ : « إن أنا دعوت فأمنوا أنتم »[٣].

فغدا عبد المسيح ورجلان من ذوى رأيهم على النبى ﷺ فقال : قد بدا لنا ألا نباهلك فاحكم علينا بما أحببت ، ونصالحك[٤].

فصالحهم رسول الله ﷺ على الجزية وكتب لهم هذا الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما كتب محمد النبى رسول الله لنجران : إنه كان عليهم حكمه فى كل ثمرة وكل صفراء وبيضاء ورقيق ، فأفضل عليهم ، وترك ذلك كله على ألفى حلة ، فى كل رجب ألف حلة ، وفى كل صَفَر ألف حلة » ... وذكر تمام الشروط .. إلى أن كتب « ولنجران وحسبها جوار الله ، وذمة محمد النبى على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وتبعهم ، وألا يغيروا مما كانوا عليه ، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم ، ولا يغير أسقف من أسقفته ولا راهب من رهبانيته ، ولا وقهة من وقهيته ، ولهم ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، وليس عليهم ريبة ولا دم جاهلية ، ولا يُحشرون ولا يُعشرون ، ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل ربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة ، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم .

وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله ، وذمة محمد النبى رسول الله ، حتى يأتى الله بأمره ، وما نصحوا وأصلحوا ، غير منقلبين بظلم »[٥].

حتى إذا قضوا كتابهم ، طلبوا من النبى ﷺ أن يبعث معهم واليا يحكم بينهم، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح .

وانصرفوا إلى نجران ، فلم يلبث السيد والعاقب إلا يسيرا حتى رجعا إلى

---

(١) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ـ الألوسى (٢/٢٤٣).

(٢) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٢/٢٢٣).

(٣) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ـ الزلوسى (٢/٢٤٣).

(٤) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (١/٣٩٥).

(٥) زاد المعاد ـ ابن قيم الجوزى (٣/ ٤٠).

النبى ﷺ وأنزلهما النبى ﷺ دار أبى أيوب الأنصاري[1]، وأقام أهل نجران على ما كتب لهم النبى ﷺ حتى قبضه الله ، صلوات الله وسلامه عليه .

فلما ولى أبو بكر رضى الله عنه أنفذ لهم ذلك ، ولما ولى عمر رضى الله عنه أجلاهم واشترى منهم أموالهم ، عملا بحديث روى عن النبى فيهم خاصة : عن أبى عبيدة بن الجراح عن النبى ﷺ أنه كان آخر ما تكلم به أنه قال : « أخرجوا اليهود من الحجاز ، وأخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب[2].

وكذلك أجاز عمر إخراج أهل نجران وهم أهل صلح بحديث روى عن جابر عن النبىﷺ أنه قال : « لأخرجن اليهود والنصارى عن جزيرة العرب ، حتى لا أدع فيها إلا مسلما »[3].

ويقول الرواة : قد كان من أهل نجران من لا يشك فى صدق محمد ورسالته ، ولكنهم لم يستطيعوا الدخول فى دينه خوفا من الروم على ما هم فيه من الملك والنعمة .

وهذا - والله أعلم - رأى جيد ، يرجحه تاريخ بلادهم ومجتمعاتهم ، إذ لم يكونوا أهل كتاب وحسب ، لكنهم كانوا أهل علم كذلك .

وكانت السيادة للدين المسيحى فى نجران ، إذ كانت مركزا دينيا منذ عصر الدولة الرومانية الشرقية[4]، وكان بها بيعة ، فيها يقول الأعشى :[5].

وكعبة نجران حتم عليـ .·. ـك حتى تناخى بأبوابها

تزور يزيدا وعبد المسيح .·. وقيسا هم خير أربابها

وكعبة نجران هذه قد بنوها على بناء الكعبة ، وعظموها مضاهاة للكعبة ، وسموها كعبة نجران ، ومنها الأساقفة الذين جاءوا إلى النبىﷺ ، وقد كانوا يعرفون النبىﷺ فى كتبهم بصفته ، وقد عرفناه فيما تصادقوا فيه عند النبىﷺ عندما طلب منهم المباهلة ، والله تعالى أعلم .

* * *

(١) الطبقات الكبرى - ابن سعد (١/٣٥٨).

(٢) معجم البلدان - ياقوت الحموى (٥/٢٦٨).

(٣) نفس المصدر السابق (٥/٢٦٩).

(٤) تاريخ الإسلام السياسى - حسن إبراهيم (١/١٩) .

(٥) راجع معجم البلدان - ياقوت الحموى (٥/٢٦٨).

الفصل الثالث

علاقة الدولة الإسلامية بالدول المعاصرة
(الفرس والروم والأحباش)

تمهيد :-

لقد كانت الدعوة الإسلامية ـ وستظل إن شاء الله تعالى ـ رسالة عامة تشمل الإنسانية في كل زمان ومان ، ولم تكن رسالة خاصة بالعرب وحدهم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[١] ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾[٢] .

فالدعوة الإسلامية لها غاية كبرى هى أن يكون الدين كله لله ، ولو أنه كان مقرراً لها أن تكون مجرد دعوة إلى مبادئ أخلاقية سامية تهدف إلى تربية السلوك ، أو دعوة إلى مبادئ روحية خالصة يراد منها صقل الروح فى النفس البشرية ولا يراد منها غير ذلك ، لكان فى مقدور دعوة شأنها هذا أو ذاك أن تظل قابعة فى بقعة محدودة ، وحسبها أن تشع بتعاليمها على الأفق القريب والبعيد وتجتذب الناس إليها من كل حدب وصوب ، ينهلون من معينها ، ثم ينتشرون فى الأرض ليبثوا ما تلقوه من مبادئ وأخلاقيات .

لكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون الإسلام دعوة عامة للدين والدنيا معا.

فهو دعوة للدين كما رضيه الله عز وجل لعباده خالصا من الوثنية ، ومن تحريف وتدليس ذوى الأهواء من كهنة الدينين الكبيرين السابقين علي الإسلام : اليهودية والمسيحية .

إن أصل الأديان السماوية واحد ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾[٣]ولكن البناء الدينى ـ مع حفاظه على الأصل ـ قد قام تدريجيا ، مناسبا لتطور البشرية وراعيا لها ، وكان الإسلام هو اللبنة الأخيرة التى اكتمل بها البناء الدينى .

كما هو دعوة للدنيا وربطها بالدين لتنظيم حياة الناس على أمثل طريقة وأعظم منهاج ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾[٤].

لذا فالإسلام لم يكن مقرراً له وقد اكتمل البناء أن يكون محدودا زمانا ومكانًا ، وفى القرآن الكريم دلالة أكثر وضوحا وأشد صراحة على مطالبة الناس جميعا بقبول الإسلام ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾[٥] ،

---

(١) سورة الأنبياء : الآية : ١٠٧ .

(٢) سورة سبأ ، الآية : ٣٨ .

(٣) سورة الأحقاف ، الآية : ٩ .

(٤) سورة التوبة ، الآية : ٣٦ .

(٥) سورة ص ، الآيتان ٨٧ ، ٨٨ .

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [١]، ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [٢] ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [٣] ، ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [٤]، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [٥]، ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [٦] .

كما كان رسول الله ﷺ يقول : إن بلالا « أول ثمار الحبشة » ، وإن صهيبا « أول ثمار الروم » وقال عليه الصلاة والسلام عن سلمان الفارسى « سلمان منا أهل البيت » [٧] فالإسلام إذا ليس دينا عربيا إقليميا .

ولأن الإسلام قد انتشر لواؤه بعد فتح مكة ، واخضاع هوزان وثقيف ، فقد آن له أن ينتشر خارج الجزيرة العربية ، بعد أن أصبح المسلمون مهيئين قوة وتنظيما لإمكان نشره بين الناس كافة ، فقد أمكن للنبى ﷺ أن يرنو بناظره إلى ما وراء الجزيرة العربية ليبسط عليها سلطان الله تعالى .

(١) سورة يس ، الآيتان : ٦٩ ، ٧٠ .
(٢) سورة الفرقان ، الآية : ١ .
(٣) سورة سبأ الآية : ٣٨ .
(٤) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٨.
(٥) سورة آل عمران ، الآية : ٨٥ .
(٦) سورة التوبة ، الآية : ٣٣ .
(٧) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٩٣٤/٣) .

المسلمون والروم

• أولا : الروم وبلاد العرب قبل الإسلام :

لم يكن الروم يجهلون بلاد العرب ، أو يغفلون عنها أو عن موقعها كمركز مهم، ونقطة التقاء للتجارة الدولية فى ذلك العصر .

وقد حاول الرومان السيطرة على بلاد العرب فى عصر الإمبراطورية الرومانية الكبرى ، وقبل أن تنقسم إلى إمبراطوريتين شرقية وغربية سنة ٣٩٥م .

إذ حاولت الإمبراطورية الرومانية الكبرى أن أن تدخل بلاد العرب فى نطاق نفوذها سنة ٥٢٤ ق . م ، عندما أرسل الإمبراطور الرومانى ـ فى ذلك الوقت ـ اوكتافيوس حملة بقيادة والى مصر الرومانى : جايوس جالوس ، لغزو بلاد اليمن، ولكن هذه الحملةِ فشلت ولم تحقق غرضها نتيجة جهل القائد الرومانى بجغرافية بلاد العرب(١).

وبعد انقسام الإمبراطورية الرومانية أضحت الإمبراطورية الشرقية وريثة الإمبراطورية الأم فى ممالكها الشرقية ، ومن ثم فقد راودتها فكرة الاستيلاء على اليمن والسيطرة على طريق التجارة الذى يهيمن عليه عرب الجنوب ، خاصة وأن طريق التجارة التى تمر عبر أواسط آسيا تقع فى يد الإمبراطورية الفارسية عدو الروم التقليدى .

وقد وقعت فى القرن السادس الميلادى عدة أحداث مهدت لتدخل الروم فى المنطقة العربية ، من أهم هذه الأحداث :

(أ) المذبحة التى أقامها ذو نواس اليهودى ـ صاحب الأخدود ـ لنصارى نجران سنة ٥٢٣م ، والتى ذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾(٢).

---

(١) راجع : الدولة الرسلامية وإمبراطورية الروم ـ إبراهيم العدوى ص ٤ .

(٢) سورة البروج ، الايات : ١ ـ ٩ .

(ب) على أثر هذه المذبحة كتب الإمبراطور الروسى جستين الأول (٥١٨ - ٥٢٧ م) إلى نجاشى الحبشة بوصفه وكيلا عن دولة الروم فى رعاية المسيحيين الواقعين على مقربة منه ، وطلب إليه الانتقام من يهود اليمن لقاء عدوانهم على نصارى نجران، فهزم جيش النجاشى بقيادة أرباط ذا نواس اليهودى الحميرى وأوقع اليمن فى قبضة الأحباش سنة ٥٢٥م .

ثم حل أبرهة - صاحب الفيل - محل أرياط باليمن ، فقاد أبرهة حملة للاستيلاء على مكة وهدم الكعبة بأمر من الإمبراطور الرومانى ، لكن الله أهلكها فيما حكى عنه القرآن الكريم فى سورة الفيل : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥)﴾[1].

وبقيت اليمن تحت سلطان الروم ، إلى أن استطاع سيف بن ذى يزن بمعونة الفرس أن يطرد الأحباش من وطنه ، لكن هذا الوطن سقط فى يد الفرس كمستعمرين جدد سنة ٥٧٥م ، وبقى فى أيديهم إلى أن حرره الإسلام فيما بعد .

(جـ) حاول الرومان ومن بعدهم الروم المشرقيون إدخال المناطق العربية المتاخمة لإمبراطوريتهم تحت سلطانهم كمناطق نفوذ لهم ، فكانوا يقيمون الإمارات والممالك الشكلية خدمة لمصالحهم ، وكانوا يقضون على أى من هذه الممالك والإمارات حين يتعدوا الحد الذى رسموه لهم ، مثلما حدث لأمارة الغساسنة التى خدمتهم كثيرا ثم لم يترددوا فى القضاء عليها حين رأوا أن ذلك فى مصلحتهم .

وقد امتد نفوذ الروم فى بلاد العرب الشمالية حتى بلغ دومة الجندل ومعان واذرح وجرباء وأيلات ومقنا وقبائل كلب وتغلب وجذام وبلى وبهراء وقضاعة .

وفى تلك الأثناء ظهر الإسلام فى مكة سنة ٦١٠م وتأسست دولة الإسلام الأولى بالمدينة بعد ثلاثة عشر عاما ، وأخذت تمد حدودها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، ونشأت العلاقة بين الدولة الإسلامية الناشئة ودولة الروم أثر ذلك .

(١) سورة الفيل بأكملها .

• ثانيا الدولة الإسلامية والروم :

كانت علاقة المسلمين بالروم منذ العهد المكى طيبة ، أساسها الود ، بعيدة عن الجفاء والمعاداة .

فالروم أهل كتاب ، وهم أقرب مودة إلى المسلمين من المجوس والمشركين ، يدل عليه أنه لما شبت الحرب بين فارس والروم فى مطلع القرن السابع الميلادى وكان البادئ بالغزو الفرس ، حينذاك انتصر الفرس على الروم حتى استولوا على بيت المقدس سنة ٦١٩م ففرح مشركو مكة بانتصار الفرس ، لأنهم مشركون مثلهم ، وقالوا للمسلمين : نحن نغلبكم كما غلبت الفرس الروم .

لكن المسلمين قد ساءهم ذلك ، فأنزل الله عز وجل ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[١] ، فأخبرت الآيات الكريمة عن حدث غيبى هام ألا وهو انتصار الروم على الفرس ، فى الحرب التى ستقع قريبا بينهما .

وقد حدث ما أخبر عنه القرآن الكريم ، إذ التقى الجيشان فى السنة السابعة من الالتقاء الأول[٢] ، ففرح المسلمون بذلك لما علموا به عند وقوعه يوم بدر بنزول جبريل بذلك فيه ، مع فرحهم بنصرهم على المشركين فيه .

وبعد أن فرغ الرسول ﷺ من صلح الحديبية ، وأمن السبيل لأصحابه ، وتخفف لوقت من عبء قريش ، أرسل كتابا إلى هرقل عظيم الروم مع دحية ابن خليفة الكلبى ، فى المحرم سنة سبع ، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر ، إذ كان قيصر لما كشف الله عنه جنود فارس ، مشى من حمص إلى إيلياء شكرا لله عز وجل ، فيما أبلاه من ذلك[٣] ، وجاء فى كتاب النبى ﷺ إليه[٤] :

---

(١) سورة الروم ، الآيات : ١ ـ ٥ .

(٢) انظر : صفوة التفاسير ، تفسير الآيات الأولى من سورة الروم .

(٣) البداية والنهاية : ابن كثير (٢/٢٦٢).

(٤) راجع : تاريخ الكامل ـ ابن الأثير (٥/٢) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس (٦١/٢).

« من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم .

سلام على من اتبع الهدي

أما بعد :

فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك اثم الأريسيين ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضها بعضا أربابًا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

فلما قرأ قيصر كتاب رسول الله ﷺ ، طلب من فى مملكته من قوم النبى ﷺ ، فأحضروا له من غزة ، وكان فيهم أبو سفيان بن حرب فدعاهم إلى مجلس جمع رجال الكنيسة ، قال أبو سفيان[1] :

خرجنا فى نفر من قريش تجارا إلى الشام ، والله إنا لبغزة ، إذ هجم علينا صاحب شرطته - شرطة هرقل - فقال : أنتم من رهط هذا الرجل الذى بالحجاز ؟ قلنا: نعم ، قال : فانطلقوا بنا إلى الملك ؛ فانطلقنا معه ، فلما انتهينا إليه قال : أيكم أمسّ به رحما ؟ قلت أنا ، فقال : أدنه .

فأقعدنى بين يديه ، وأقعد أصحابى خلفى ، قال : إنى سأسأله ، فإن كذب فردوا عليه ، فوالله لو كذبت ما ردوا على ، ولكن كنت أنا سيد أتكرم عن الكذب ، وعرفت أن أيسر ما فى ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوا ذلك على ، ثم يحدثوا به عنى ، فلم أكذبه ، فقال : أخبرنى عن هذا الرجل الذى خرج بين أظهركم يدعى ما يدعى ؟ قال : فجعلت أزهد له شأنه ، وأصغر له أمره ، وأقول له : أيها الملك ما يهمك من أمره ؟! إن شأنه دون ما يبلغك ؛ فجعل لا يلتفت إلى ذلك منى ، ثم قال : أنبئنى عما أسألك عنه من شأنه ، قلت : سل ما بدا لك ، قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : محض ، أوسطنا نسبا ؛ قال : فأخبرنى ، هل كان أحد من أهل بيته يقول مثلما يقول هو فهو يتشبه به ؟ قلت : لا . قال فهل كان له

---

(١) انظر : تاريخ الرسل والملوك - ابن جرير الطبرى (٣/ ٨٥) فتح البارى فى شرح صحيح البخارى - لابن حجر العسقلانى (١/ ٢٤) والبداية والنهاية - ابن كثير (٤/ ٢٦٢) .

فيكم مُلكْ فاستلبتموه إياه ؟ فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه ؟ قلت : لا ؛ قال : فأخبرنى عن أتباعه منكم ، من هم ؟ قلت : الضعفاء، والمساكين ، والأحداث من الغلمان والنساء ، أما ذوو الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد ؛ قال : فأخبرنى عمن تبعه أيحبه ويلزمه ؟ أم يقليه ويفارقه ؟ قلت : ما تبعه رجل ففارقه ؛ قال : هل يغدر ؟ فلم أجد شيئا مما سألنى عنه أغمزه فيه غيرها ؟ قلت : لا ، ونحن منه فى هدنة - يريد صلح الحديبية - ولا نأمن من غدره ؛ قال : فوالله مالتفت إليها منى ، ثم كرر الحديث على ، فقال : سألتك كيف نسبه فيكم؟ قلت : إنه محض من أوسطكم نسبا ، وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول بقوله فهو يتشبه به ؟ فزعمت أن لا ، وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستبلمتوه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب ملكه ؟ فزعمت أن لا ، وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء وكذلك أتباع الأنبياء فى كل مكان ، وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أو يقليه ويفارقه ؟ فزعمت أن لا يتبعه أحد فيفارقه وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلبا فتخرج منه ، وسألتك هل يغدر ؟ فزعمت أن لا ؛ فلئن كنت صدقتنى عنه ، ليغلبن ما تحت قدمى هاتين ، ولوددت أنى عبده فأغسل قدميه ، انطلق لشأنك .

فقمت من عنده وأنا أضرب إحدى يدى بالأخرى ، وأقول : أى عباد الله ! لقد أمّر أمر ابن أبى كبشة[1] إنه يخافه ملك بنى الأصفر .

وتقول الروايات[2]: إن هرقل لما وصل إليه كتاب النبى ﷺ وهو بالشام يريد العودة إلى القسطنطينية جمع الروم فقال لهم : يا معشر الروم ، هل لكم فى الفلاح والرشد، وأن يثبت مُلككم ، وتتبعون ما قال عيسى بن مريم ؟ قالت الروم: وما ذاك أيها الملك؟ قال : تعلمون والله أن هذا الرجل لنبى مرسل ، إنا نجده فى كتابنا ، نعرفه بصفته الذى وُصف لنا ، فهلم فلنتبعه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا؛ فقالوا : نحن نكون تحت يدى العرب ، ونحن أعظم الناس ملكا ، وأكثرهم رجالا ، وأفضلهم بلدا ؟ ! قال: فهلم أعطيه الجزية فى كل سنة ، أكسر عنى شوكته واسترح من حربه بمال أعطيه إياه ، قالوا : نحن نعطى العرب الذل والصغار بخراج

(١) يعنى بذلك النبى ﷺ وكان يكنيه كفار قريش بأبيه من الرضاع ، استخفافا به ، وأبو كبشة هذا هو زوج حليمة السعدية التى أرضعت النبى ﷺ .

(٢) انظر : تاريخ الرسل والملوك ، ابن جرير الطبرى (٣/ ٨٠) والطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٢٥٩).

يأخذوه منا ، ونحن أكثر الناس عددا ، وأعظمهم ملكا ، وأمنعهم بلدا ؟ لا والله لا نفعل هذا أبدا ؛ قال : فهلم فلأصالحه على أن أعطيه أرض سورية ، أما والله لترون أنكم قد ظفرتم عليه إن امتنعتم منه فى مدينتكم[١].

حتى إذا نفروا وأنكروا ذلك عليه عدل عن رأيه ، وتظاهر بحرصه على المسيحية ولاطفهم القول وأقصر ، ثم جلس على بغل له فانطلق ، حتى إذا أشرف على الدرب استقبل أرض الشام ، ثم قال : السلام عليك أرض سورية تسليم الوداع ؛ ثم ركض حتى دخل القسطنطينية[٢].

ويذهب بعض المؤرخين إلى الاعتقاد بأن هرقل كان يميل إلى اعتناق الإسلام مستدلين بما دار بينه وبين عظماء دولته من حوار إثر وصول كتاب النبى ﷺ إليه، وقوله لأبى سفيان : ليغلبن على ما تحت قدمى هاتين ولوددت أنى عبده ، فأغسل قدميه .

ومما ذُكر أن هرقل قد أجاز دحية الكلبى سفير الرسول إليه ـ بمال وكساء كسى وإن أناسا من جذام بأرض حسمي[٣]، قطعوا عليه الطريق ولم يتركوا معه شيئا فجاء إلى الرسول قبل أن يدخل بيته ، ومن أجل هذا بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى سرية إلى أرض حسمى عام ٦هـ[٤].

وتقول بعض المصادر التاريخية[٥]: إن هرقل كان يصدر فى ذلك الأمر عن

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٢٦٧/٤).

(٢) القسطنطينية : كانت رومية دار ملك الروم ، وكان بها منهم تسعة عشر ملكا ونزل بعمورية منهم ملكان ، وعمورية دون الخليج ، وبينها وبين القسطنطينية ستون ميلا ، وملك بعدهما ملكان آخران برومية ، ثم ملك أيضا برومية قسطنطين الأكبر ، ثم انتقل إلى بيزنطة ، وبنى عليها سورا وسماها قسطنطينية وظلت دار ملكهم ، واسمها اليوم اصطنبول ، عمرها ملك من ملوك الروم يقال له : قسطنطين فسميت باسمه (معجم البلدان ، ياقوت الحموى ٣٤٧/٤).

(٣) حسمى : أرض ببادية الشام بينها وبين وادى القرى ليلتان ، وبين وادى القرى والمدينة ست ليال (معجم البلدان ـ ياقوت ٢٥٨/٢).

(٤) انظر تاريخ الرسل والملوك ـ ابن جرير الطبرى (٨٧/٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير (١٨١/٤).

(٥) راجع : فتوح مصر ـ ابن عبد الحكم (٦٤/٢) وتاريخ الإسلام السياسى ـ حسن إبراهيم حسن (١٦٥/١).

بواعث سياسية أكثر منها دينية ، إذ أنه كانت تحيط به فى ذلك الوقت أخطار خارجية ، فإنه وإن كان قد استرد بلاد سورية ومصر وغزا بلاد الجزيرة ، وانتصر على الفرس فى موقعة نينوى سنة ٦٢٧م فقد كانت جيوش كسرى فارس تتقدم فى آسيا الصغرى وتهاجم البسفور ، حتى كاد القسطنطينية أن تقع فى أيديهم .

كما أنه إذ ذاك كانت تساوره الأفكار والمخاوف التى تجول بخاطره فترغبه فى اعتناق الإسلام ، حيث لم يكن يريد الدخول فى حرب عدو جديد ، بعد أن فرغ من حروبه مع الدولة الفارسية ، إذ كان يتوقع خطرا جديدا سوف يدهمه من ناحية هذه الدولة العربية الناشئة .

ومن ذلك أيضا : أنه قد جمع الجيوش الجرارة لحرب هؤلاء العرب فى الشام وفلسطين ومصر ، وغضب على المقوقس واستدعاه إلى القسطنطينية حين علم أنه قد دخل فى صلح مع العرب ، ثم نفاه وأرسل إلى قواد الروم بمصر يوبخهم ويحثهم على مواصلة قتال العرب ، وظل كذلك إلى أن مات والعرب يحاصرون حصن بابليون سنة ٦٤١م(١).

على أننا إذا سلمنا باحتمال صدق هذه الأخبار ، فلا نستبعد أن يكون هرقل كان يميل حقا إلى اعتناق الإسلام ، ولكنه بعد أن جمع رجال دولته وعرض عليهم الإسلام فأبوا ، ورأى منهم الجد فى الخروج عليه إن هو دخل ذلك الدين ، عدل عن ذلك .

كما لا نستبعد أن يكون مَنْح هرقل وحباءه دحية لا يعدو أن يكون ضربا من ضروب السياسة أراد أن يتألف به قلوب المسلمين ، لما كان يخشاه على ملكه من ظهور أمر الرسول ﷺ مما كان يعلمه عنده من الكتاب المقدس ، أو من الرؤى التى كان يراها فى منامه وتؤرقه على ملكه(٢) ، أو مما كان يعلمه عن محمد ﷺ وأصحابه فى شبه الجزيرة العربية عن طريق التجار العرب الذين كانوا يفدون إلى بلاده ، أو عن طريق المناوشات التى كانت بين النبى ﷺ والقبائل التى كانت ذات علائق وصلات ببلاد الروم .

---

(١) فتوح مصر - ابن عبد الحكم (٢/٦٦).

(٢) السيرة النبوية - ابن كثير (٣/٤٩٥).

• بعثه ﷺ إلى المقوقس :

كان المقوقس صاحب مدينة الإسكندرية ، واسمه : جريج بن مينا القبطى ، وهو حاكم مصر من قبل هرقل إمبراطور الروم ، وقد بعث رسول الله ﷺ حاطب بن أبى بلتعة إليه بكتاب جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد :

فإنى أدعوك بداعية الإسلام ، اسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم القبط ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »[(١)].

ومؤرخو العرب يكادون يجمعون على أنه أحسن استقباله[(٢)] وأجابه بقوله : «قد كنت أعلم أن نبيا قد بقى ، وكنت أظن أن مخرجه الشام ، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله ، فأراه قد خرج فى أرض جَهْد وبؤس ، والقبط لا تطاوعنى فى اتباعه ، ولا أحب أن يعلم أحد بمحاورتى إياك »[(٣)].

ورده بهدية إلى النبى ﷺ اتفقوا على أن منها مارية القبطية أم إبراهيم وأختا لها ، وشيئا من خيرات مصر .

ويضيف بعضهم إلى ذلك : إن الجوارى كن ثلاث أو أربع[(٤)]، وإنه كان فى جملة الهدية غلام أسود خصى اسمه مابور ، وخفين ساذجين أسودين ، وبغلة بيضاء اسمها الدلدل[(٥)].

---

(١) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس (٢/٢٦٧).

(٢) راجع : البداية والنهاية ـ ابن كثير (٤/٢٧١) فتوح البلدان ، ابن عبد الحكم (٢/٢٣) ، تاريخ الرسل والملوك ، ابن جرير الطبرى (٤/٢٢٨) .

(٣) فتوح البلدان ـ ابن عبد الحكم (٢/٢٢) والطبقات الكبرى ـ ابن سعد (١/٢٦٠) .

(٤) انظر : البداية والنهاية ـ ابن كثير (٤/٢٧٢).

(٥) نفس المصدر السابق .

وكان من أثر استقبال المقوقس حاطب بن أبى بلتعة ، وهذه الهدايا التى كان من بينها مارية القبطية ، أن أثنى الرسول على أهل مصر من القبط ، وأصى بهم خيراً إذ يقول « إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا فإن لكم فيهم صهرا وذمة » .

صراع المسلمين مع الروم وحلفائها

اتجه النبى ﷺ لإظهار قوة المسلمين للروم وحلفائها بالشام والقبائل المتاخمة لحدودها فى شمالى الجزيرة العربية ، بهدف استطلاع قوة وكفاءة تلك الجماعات . وبجانب اختبار قوة وكفاءة الرومان كذلك ، فإنه قد آن الأوان لتطهير الجزيرة العربية من الأعداء المناهضين للإسلام ، بما يمكن للدعوة أن تسير سيرا سلسا نحو تحقيق أهدافها الكبرى ، بالانطلاق إلى خارج حدود الجزيرة العربية ، لتأمين حرية نشر الإسلام وتعاليمه السمحة بين العرب وغيرهم .

ومن المعلوم أن القتَال قد استمر بين المسلمين والمشركين منذ أن بدأ بعد الهجرة إلى المدينة ، وكان إذا توقف حينا عاد ثانية ليشب أعنف وأضرى مما كان .

ولقد استأنف النبى ﷺ بعد عودته من عمرة القضية إرسال السرايا المقاتلة ، فبعث عمر بن الخطاب إلى هوازن ، وأبا بكر إلى بنى كلاب ، وغالب بن عبد الله الليثى إلى بنى عواد ، وابن أبى العوجاء السلمى إلى بنى سليم ، وكعب بن عمير الغفارى إلى ذات إطلاح من أرض الشام ، فكانت تلك السرية الأخيرة أحدَ أسباب بدء الصراع مع الروم وحلفائها فى مؤتة .

• سرية مؤتة :

وهى سرية زيد بن حارثة فى نحو ثلاثة آلاف من المسلمين إلى أرض البلقاء من أطراف الشام[١] سنة ثمان .

وإنما كان سبب ذلك : أن النبى ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدى - ثم أحد بنى

---

(١) السيرة النبوية - ابن كثير (٣/٤٥٥) .

لهب[١]، بكتاب إلى ملك بصرى[٢]، أو ملك الروم[٣].

فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى ، عامل هرقل على بصرى فأوثقه رباطا ثم قدمه فضرب عنقه صبرا .

ولم يقتل لرسول الله ﷺ من الرسل غيره[٤] ، فاشتد ذلك عليه ﷺ حين بلغه الخبر عنه، وكان ذلك عدوانا يستحق التأديب .

ولأن هذا الأمير خاضع للروم ومتاخم لأرضهم ، فقد كان على النبى ﷺ أن يضع هذا فى حسابه وهو يبعث إلى شرحبيل من يؤدبه ويخضض شوكته وهو ما كان، ولأول مرة لم يعين الرسول ﷺ قائداً واحدا للجيش ، بل عين زيداً بن حارثة أميراً للجيش، وقال إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس[٥]، « وكان هذا إحساسا من الرسول ﷺ بصعوبة المعركة ، كما ترك هذا التصرف إحساسا لدى المسلمين بخطورة الأمر .

وعقد لهم النبى ﷺ لواء أبيض دفعه إلى زيد بن حارثة الكلبى ، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير ، وأن يدعو من هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم وقاتلوهم .

ثم آن أوان الرحيل، وأخذ الناس يودعون أمراء رسول الله ﷺ ويسلمون عليهم.

ثم خرج الجيش ، وخرج النبى ﷺ معه يشيعه ، حتى إذا بلغ ثنية الوداع[٦] ودعهم وانصرف .

ومضى الجيش إلى وجهته ، فلما فصلوا من المدينة ، سمع العدو بمسيرهم فجمعوا لهم .

وصلت قوات المسلمين مَعان فى طرف بادية الشام ، فبلغهم أن هرقل قد نزل

---

(١) المغازى للواقدى (٢/٧٥٥) .

(٢) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/١٢٨).

(٣) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس (ص ١٥٣).

(٤) المغازى للواقدى (٣/٤٥٥).

(٥) السيرة النبوية ـ ابن كثير (٣/٤٥٥).

(٦) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/١٢٨) .

مآرب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من لخْم وجُزام والقَين وبهراء وبلى مائة ألف[1].

فلما بلغ ذلك المسلمين ، وأيقنوا أن جموع المشركين تفوق جمعهم أضعافًا مضاعفة ، أقاموا على معان ليلين يتشاورون فى أمرهم ، وقالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره الخبر ، فإما أن يردنا ، وإما أن يزيدنا رجالا[2].

غير أن عبد الله بن رواحة شجع الناس ، وقال : يا قوم ، والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا بكثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور ، وإما شهادة .

فقال الناس : قد صدق والله ابن رواحة ؛ ومضى الجيش حتى إذا بلغ تخوم البلقاء لقيته جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء لها مشارف ، فانحاز المسلمون إلى قرية قال لها : مؤتة ، وهناك التقى الجمعان ، ودارت رحى المعركة حامية قاسية ، وراح الموت يعصف بالنفوس ، واقتتل الناس قتالا شديداً ، فقاتل زيد ابن حارثة براية الرسول ﷺ حتي مزقته رماح الأعداء ، فنزل جعفر عن فرس له شقراء كان يركبها فعقرها[3] ، فكان جعفر أول رجل من المسلمين عَقر فى الإسلام[4].

ثم أخذ اللواء وقاتل القوم حتى قتل وهو يقول :

يا حبذا الجنة واقترابها .·. طيبة وبارد شرابها

والروم روم قد دنا عذابها .·. أغرة بعيدة أنسابها

عليّ إن لقيتها ضرابها

ويقال : بأن جعفراً أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ،

---

(١) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس (ص ١٥٣).

(٢) المغازى للواقدى (٢/ ٧٦٠).

(٣) جوز العلماء قتل الحيوان خشية أن ينتفع به العدو ، وكان جعفر أول من عقر حيوانا فى الإسلام لهذا الغرض .

(٤) السيرة النبوية ـ ابن كثير (٣/ ٤٦١) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٢/ ٢٠).

فاحتضنه بعضديه حتى قُتل فأثابه الله بذلك جناحين فى الجنة يطير بهما حيث يشاء[1] وكان ابن ثلاث وثلاثين سنة عندئذ[2].

قيل : إن رجلا من الروم ضربه فقطعه نصفين وقع أحدهما فى كرْم عِنَب ، فوُجد فى بضعة وثلاثون جرحًا[3].

وقيل وجد فى جسده بضعا وتسعين ما بين ضربة ورمية[4]، وقيل : وُجد فيما قبيل يديه ـ فيما بين رُسْغيه اثنتان وسبعون ضربة بسيف أو طعنة برمح ، ووُجد به طعنة قد أنفذته[5].

فلما قتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية ، ثم تقدم بها وهو على فرسه يقول:

يا نفس إلا تُقتلى تموتى .·. هذا حِمَام الموت قد صُليت

وما تمنيت قد أُعطيت .·. إن تفعلى فعلهما هُديت[6]

ثم نزل عن فرسه وقاتل حتى قُتل .

وسقط اللواء ، فاختلط المسلمون والمشركون ، وانهزم المسلمون أسوأ هزيمة، ففروا، واتبعهم المشركون ، فجعل قطب بن عامر يصيح : يا قوم ! يُقتل الرجل مقبلا أحسن من أن يُقتل مدبرا ؛ فما يثوب إليه أحد .

ثم تراجعوا ، فأخذ اللواء ثابت بن أقرم ، وصاح : يا للأنصار ! فأتاه الناس من كل وجه ، وهم قليل ، وهو يقول : إلىّ أيها الناس .

فلما نظر إلى خالد بن الوليد قال : خذ اللواء يا أبا سليمان ؛ فقال لا آخذه ، أنت أحق به ، أنت رجل لك سن ، وقد شهدت بدراً .؛ فقال ثابت : خذه أيها الرجل، فوالله ما أخذه إلا لك .

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٤/٢١) .

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٤/٢٤٤).

(٣) إمتاع الأسماع ـ للمقريزى (١/٢٦١).

(٤) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٤/٢٤٦) نقلا عن رواية البخارى .

(٥) إمتاع الأسماع للمقريزى (١/٢٦١) .

(٦) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٤/٢٤٤).

فحمله خالد ساعة ، وجعل المشركون يحملون عليه ، فثبت حتى تكركر[1] المشركون ، وحمل بأصحابه ففض جمعا من جمعهم[2]، ثم دهمه منهم بشر كثير فانحاش[3] بالمسلمين ، فانكشفوا راجعين[4].

وتختلف الروايات فيما كان من أمر خالد رضى الله عنه : فقيل : إن ابن رواحة قُتل مساء ، فبات خالد ، فلما أصبح غدا وقد جعل مقدمته ساقته وساقته مقدمته وميمنه ميسرته ، فأنكر المشركون ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيأتهم ، فقالوا : قد جاءهم مدد ، ورُعِبوا فانكشفوا منهزمين ، فقتلوا منهم مقتلة لم يُقتلها قوم[5].

وعند ابن إسحاق[6]: إنه لما أقبل أصحاب مؤتة تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، ولقيهم الصبيان يشتدون ، ورسول الله ﷺ مقبل مع القوم على دابة ، فقال «خذوا الصبيان فاحملوهم واعطونى ابن جعفر » فأتى بعبد الله ، فأخذه فحمله بين يديه ، وجعل الناس يحثون على الجيش التراب، ويقولون : يا فرار، فررتم فى سبيل الله ! فيقول رسول الله ﷺ : « ليسو بالفرار ، ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى » .

ويروى ابن إسحاق أن النصر تم لخالد بتخلصه من أيدى الروم، ليس إلا ، دون قتال أو مناوشة ، وسُمِّى هذا نصراً وفتحا باعتبار ما كانوا فيه من إحاطة العدو بهم[7].

على أن من يسترجع أحداث مؤتة ، وما أثُر عن النبى ﷺ فيما رواه البخارى: « أن رسول الله ﷺ نعى زيدا وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبر، فقال، «أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرفان حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم »[8].

وما رواه البخارى كذلك : أن خالدا قال : اندقت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ، وما ثبت فى يدى إلا صفحة يمانية[9].

(١) تكركر : ارتد ورجع .
(٢) إمتاع الأسماع ـ المقريزى ١/ ٢٦١.
(٣) انحاش : جمعهم ثم انصرف بهم .
(٤) إمتاع الأسماع ـ للمقريزى (١/ ٢٦٢).
(٥) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٤/ ٢٤٤) إمتاع الأسماع ـ للمقريزى (١/ ٢٦٢) .
(٦) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٤/ ٢٤٥).
(٧) راجع : نفس المصدر السابق (٤/ ٢٥٠).
(٨) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٤/ ٢٤٥).
(٩) نفس المصدر السابق (٤/ ٢٤٦).

إن من يستعرض تلك الأدلة لا يسعه إلا القول بانتصار خالد وإنزاله الهزيمة بجموع العرب والروم فى مؤتة ، وترجيح الرأى القائل بأن من قاموا يحثون عليهم التراب وينعتونهم بالفرار ، إنما هم أولئك الذين فروا حين التقى الجمعان وتركوهم هنالك ، وأما بقيتهم فلم يفروا بل نُصروا وفتح الله عليهم ، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ .

وكما رأينا النبى ﷺ بعد هزيمة أحد يسرع فيسير إلى حمراء الأسد ، ليوهم قريشا بقوة المسلمين ، نجده بعد غزوة مؤتة يفعل نفس الشيء فيرسل بعثة إلى ذات السلاسل بأرض جزام ليؤكد هيبة المسلمين بتلك النواحى ، ويزرع الخوف فى نفوس القبائل التى اشتركت فى غزوة مؤتة .

غزوة ذات السلاسل[1]

لقد أدرك المسلون منذ غزوة مؤتة أن الجولة الحربية الحقيقية ستكون ضد الروم، وأخذوا يعدون العدة لها ليبدأوا بها فى الوقت المناسب .

ولا جدال فى أن غزوة مؤتة قد هونت على المسلمين قتال الروم وقتال العرب المنتصرة بهم ممن يخضعون لهم ويدورون فى فلك سياستهم .

ولا جدال كذلك فى أن القبائل المتاخمة لهم والضاربة بين المدينة وبينهم قد باتت تخشى المسلمين وتتوقع ظهور دولتهم وانتشار سلطانهم ، لذا قرر النبى ﷺ بعد عودة المسلمين من مؤتة أن يرسل عمرو بن العاص فى رجال من المهاجرين والأنصار إلى أرض بلى لاستنفار العرب إلى الإسلام وحث القبائل على الدخول فيه .

وإنما كان سببها : أن جمعا من بلىّ وقضاعة تجمعوا ليدنوا من أطراف المدينة[3]، فعقد رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص لواء أبيض وجعل معه راية

---

(١) ذات السلاسل : (ويقال لها السلسل) : ماء وراء وادى القرى من المدينة بينه وبين المدينة عشرة أيام. (الطبقات الكبرى - ابن سعد ٢/ ١٢١).

(٢) السيرة النبوية - ابن كثير (٣/ ١٧٥).

(٣) إمتاع الأسماع - للمقريزى (١/ ٢٦٤).

سوداء، وبعثه في جمادى الآخر سنة ثمان على ثلثمائة[1] من سراة[2] المهاجرين والأنصار، وأمره أن يستعين بمن مر به من بلاد بلى وعذرة وبلقين ، وذلك أن عمرا ذا رحم فيهم ، وكانت أم العاص بن وائل من بنى بلىّ[3] فأراد عليه السلام أن يتألفهم بعمرو .

فسار يكمن النهار ويسير الليل ، وكان معه ثلاثون فارسا ، وسار حتى دنا منهم ، فنزل على ماء بأرض جذام يقال لها : السلاسل ، والوقت شتاء ، فجمع أصحابه ليصطلوا ـ يوقدون الحطب للتدفئة ـ فمنعهم ، فشق عليهم ، حتى لامه بعض المهاجرين بغلظة ، فقال عمرو : قد أُمرت أن تسمع لى وطيع، قال : أفعل .

فلما كان على ماء السلاسل خاف كثرة عدوه ، فبعث رافع الجهنى إلى رسول الله ﷺ يخبره أن للقوم جمعا كثيراً ، ويستمده ، فندب رسول الله ﷺ المهاجرين الأولين ، فانتدب أبو بكر وعمر ، وأمر عليهم أبو عبيدة بن الجراح ، فلما قدموا على عمرو أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس ويتقدم عمرا[4]، لكن عمرا منعه وقال : أنا أميرهم ، وأنا أرسلت إلى رسول الله ﷺ استمده بكم ، فقال المهاجرون بل أنت أمير أصحابك وأبو عبيدة أمير المهاجرين، فقال عمرو : إنما أنت مدد مُددته.

فلما رأى ذلك أبو عبيدة ـ وكان رجلا لينا سهلا هينا عليه أمر الدنيا ـ قال له: تعلم يا عمرو أن آخر ما عهد إلىّ رسول الله ﷺ أن قال : « إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا[5] » وإنك إن عصيتنى لأطيعنك .

فامتثل أبو عبيدة للأمر ، وصلى عمرو بالناس ، وتولى أمر الجيش .

والحق أن عمرو بن العاص كان داهية من كبار الدهاة الذين قل أن يجود الزمان بمثلهم ، إذ وطئ عمرو بلاد بلىّ ودوّخها ، وكان كلما انتهى إلى موضع قيل له : إن به جمعا ، أتاه ، فلم يجد به داعيا ولا مجيبا .

---

(١) إمتاع الأسماع ـ للمقريزى (١/ ٢٦٤).

(٢) سراة القوم : أشرافهم وسادتهم .

(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٤/ ٢٧٣).

(٤) إمتاع الأسماع ـ للمقريزى (١/ ٢٦٤) .

(٥) البداية والنهاية (٤/ ٢٧٢).

ذلك أن الأعراب كانوا إذا سمعوا بمقدمه تفرقوا ، وظل على هذه الحالة حتى انتهى إلى أقصى بلاد بلى وعذرة وبلقين ، ولقى فى آخر ذلك جمعا فقاتلهم ساعة وهزمهم ، وأقام أياما يبث سراياه ، فلا يسمع لهم بجمع ، ولا مكان صاروا فيه وكان يبعث أصحابه الخيل فيأتون بالشاء والنعم ، فكانوا ينحرون ويذبحون ، ولم يكن أكثر من هذا ، ولم تكن هناك غنائم تقسم ، وبذلك شتت جموع قبائل الشام، وبث هيبة المسلمين فى نفوس القبائل الفاطميين هناك .

• إسلام عامل قيصر على مُعان[1] :

أثمر اتجاه المسلمين إلى دعوة العرب الدائرين فى فلك الروم إلى الإسلام، وتحرُّك جيش المسلمين للالتقاء بجموع العرب والروم فى مؤتة وذات السلاسل ، أن أقبل كثير من القبائل العربية الخاضعة لحكم الروم على اعتناق الإسلام .

ومن هؤلاء : فروة بن عمر الجذامى ، وكان عاملا للروم على من يليهم من أرض العرب ، وكان منزله مُعان وما حولها من أرض الشام[2].

وقد كان فروة قائد إحدى الفرق الرومانية التى قاتلت المسلمين فى غزوة مؤتة فأسلم فروة ، وكتب إلى رسول الله ﷺ بإسلامه ، وأهدى إليه ، وبعث من عنده رسولا من قومه يقال له : منصور بن سعد ، فقرأ رسول الله ﷺ كتابه ، وقبل هديته ، وكتب إليه جواب كتابه .

فلما بلغ ذلك الروم ـ من إسلامه ـ طلبوه حتى أخذوه بأمر من هرقل بتهمة الخيانة ، وكان هرقل يَعِدُه بالصفح عنه إن هو عاد إلى المسيحية ، ولكن فروة أصر على إسلامه فقُتل .

---

(١) معان : مدينة فى طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحى البلقاء (معجم البلدان ـ ياقوت الحموى ١٥٣/٥).

(٢) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٢٣٨/٤) .

إرسال النبى ﷺ إلى ملوك العرب من النصارى بالشام

كان النبى ﷺ يأمل أن تصل دعوته إلى الناس أجمعين ، وأن تتسع رقعة تلك الدعوة بحيث تنتظم الشام ومصر والمدائن وغيرها من البلاد المعروفة آنذاك ، ولم يفوّت أية فرصة ممكنة لتحقيق هذا الهدف ، فبعث ﷺ شجاع بن وهب الخزامى إلى الحرث بن أبى شمر الغسانى ملك تخوم الشام وصاحب دمشق [1] . وقيل هو جبلة بن الأيهم الغسانى .[2] فدفع شجاع إليه كتاب النبى ﷺ الذى جاء فيه : « سلام على من اتبع الهدى وآمن به ، وأدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى لك مُلكك »[3].

فقرأه شجاع بن وهب عليه ، فقال مكابراً : ومن ينتزع ملكى منى ؟ إنى سأسير إليه ولو كان باليمن جئته ، علىّ بالناس[4].

وأمر بالخيل أن تُنْعل ، وقال لشجاع : أخبر صاحبك بما ترى ؛ وكتب إلى قيصر يخبره ما عزم عليه ، فكتب إليه قيصر : لا تَسِرْ إليه ، والْهَ عنه ، ووافنى بايلياء .

فقدم شجاع على النبى ﷺ وأخبره بالخبر ، فقال النبى ﷺ : «باد ملكه»[5].

وقد مات الحارث بن أبى شمر عام الفتح[6].

---

(١) البداية والنهاية - ابن كثير (٢٦٧/٤)، المغازى للواقدى (٢٢٣/٣) ، الطبقات الكبرى - ابن سعد (٢٦١/١).

(٢) السيرة النبوية - ابن كثير (٢٦٧/٤).

(٣) البداية والنهاية - ابن كثير (٢٦٧/٤).

(٤) الطبقات الكبرى - ابن سعد (٢٦١/١).

(٥) عيون الأثر - ابن سيد الناس (٢٧١/٢) .

(٦) الطبقات الكبرى - ابن سعد (٢٦١/١).

غزوة تبوك[1]

(العسرة)[2]

كان طبيعيا بعد أن فتح المسلمون مكة ، واستتب لهم الأمر فيها ، ودخل البيت الحرام فى حوزتهم ، وطهروه من رجس الأوثان والأصنام ، أن يلى ذلك خطوة أساسية فى تحديد علاقة المشركين بهذا البيت ، فنزلت الآية الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[3].

قالت عندئذ قريش : إن المتاجر والأسواق سوف تنقطع عنهم أيام الحج ، وإنهم سيُحرمون من المغانم التى كانوا يصيبون منها .

ثم أنه نزل فى أعقاب ذلك الأمر بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾[4].

فتطلب التخطيط القرآنى الانتقال من جزيرة العرب إلى غيرها ، لذا اتجه النبى ﷺ إلى غزو الروم الذين أقض مضاجعهم ظهور المسلمين على قريش وهوزان وثقيف ، وجعلهم يفكرون فى القضاء على هذا الدين الجديد قبل أن ينالهم منه ما نال غيرهم، وأدرك الروم أن مسئوليتهم فى مصارعة المسلمين ضرورية ، وأنه لم يبق غيرهم يلتزم بمواجهة المسلمين ، إذ لم يعد هناك أمل أن يتولى العرب ذلك ، هذا من جهة .

---

(١) تبوك : موضع بين وادى القرى والشام ، وهو حصن به عين ونخل (معجم البلدان - ياقوت الحموى ٢/٣٦٥) .

(٢) إمتاع الأسماع - المقريزى (١/٣٢٥).

(٣) سورة التوبة ، الآية : ٢٨ .

(٤) سورة التوبة الآية : ٢٩ .

ومن ناحية أخرى رأى النبى ﷺ الخروج إلى الروم ـ تحديدا ـ لأنهم أقرب الناس إليه من أهل الكتاب ، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم من الإسلام وأهله ، تنفيذا للأمر القرآنى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾[١] .

وكان المسلمون بالمدينة على صلة بأخبار الشام ، لكثرة من يقدم من الأقباط[٢] بالدرمك[٣] والزيت ، فذكروا أن الروم قد جمعت جموعا كبيرة بالشام ، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة ، وأقبلت معه لخم وجذام وغسان وعامله ، وزحفوا ، وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها ، وتخلف هرقل بحمص[٤] .

وكان النبى ﷺ لا يغزو غزوة إلا ورّى بغيرها حتى يأخذ عدوه على غرة ، إلا ما كان من غزوة تبوك ، إذ غزاها فى حرّ شديد ، وكان وقت حصاد[٥] وقد طابت الثمار، وعمّت الظلال ، والناس يؤثرون المقام ، وكان يستقبل سفرا بعيدا ، وعدداً كثيراً . فجلى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبته ، وأخبرهم بالوجه الذى يريد . وبعث إلى القبائل وإلى مكة يستنفرهم إلى عدوهم .

ولما كان الوقت وقت عسرة وضيق ، فقد أمر النبى ﷺ بالصدقة ، فحُملت صدقات كثيرة ، فجاء أبو بكر الصديق بماله كله ، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله ، وحمل العباس بن عبد المطلب تسعين ألفا ، وعبد الرحمن بن عوف مائتى أوقية ، وعاصم بن عدى تسعين وسْقا[٦] تمرا ، وجهز عثمان بن عفان ثلث ذلك الجيش ، فكان من أكثرهم نفقة .

ورغّب عليه الصلاة والسلام أهل الغنى فى الخير والمعروف ، فتبادر المسلمون فى ذلك ، حتى أن الرجل ليأتى بالبعير إلى الرجل والرجلين ويقول هذا البعير بينكما تتعاقبانه ، ويأتى الرجل بالنفقة فيعطيها بعض من يخرج ، وأتت النساء

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٢٣ .

(٢) الأنباط : شعب سامى ، كانت له دولة فى شمالى شبه الجزيرة ، وعاصمتهم سلع وتعرف اليوم بالبتراء ، واستعمل الاسم أخيرا فى أخلاط الناس من غير العرب (المعجم الوسيط ٨٩٨/٢).

(٣) الدرمك : الدقيق الأبيض الجيد الخالص .

(٤) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (٣٢٥/١) .

(٥) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٣١٦/٢).

(٦) وسقا : الوسق مكيلة معلومة ، وهى ستون صاعا ، والصاع خمسة أرطال وثلث .

بما يقدرن عليه، فكن يلقين فى ثوب مبسوط بين يدى النبى ﷺ المُسُك ـ القلائد ـ والخلاخل والأقرطة ، والخواتيم[1] .

وأخذ النبى ﷺ الناس بالجد ، وعسكر بثنية الوداع ، وخلف على بن أبى طالب على أهله ، فقال المنافقون ما خلفه إلا استقلالا له . فأخذ سلاحه ولحق بالنبى ﷺ بالجرف ، وأخبره ما قالوه ، فقال النبى ﷺ « كذبوا ، إنما خلفتك لما ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبى بعدى » فرجع[2].

وتخلف نفر من المسلمين ، منهم الجد بن قيس الأنصارى الذى قال للنبى ﷺ : أو تأذن لى ولا تفتنّى ؟ وتعلل بشدة عجبه بالنساء ، وخوفه إن رأى نساء بنى الأصفر ألا يصبر عنهن . فقال له النبى ﷺ : « أذنت لك » ، فنزل قوله تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[3] .

وكان قوم من المنافقين[4] يقول بعضهم لبعض : لا تنفروا فى الحَرّ ، زهادة منهم فى الجهاد ، وشكًا فى الحق ، وارجافا بالرسول ﷺ فنزل فيهم قول الله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[5].

وجاء البكّاؤون ـ وهم سبعة من فقراء المسلمين ـ إلى النبى ﷺ ليحملهم معه ، فقال ﷺ « لا أجد ما أحملكم عليه »، فولّوا يبكون ، فلقى اثنان منهم أحد الصحابة فقال : ما يبكيكما ؟ قالا : جئنا نكره أن تفوتنا غزوة مع النبى ﷺ، فأعطاهما

---

(١) راجع : السيرة النبوية ـ ابن كثير (٥/٤) ، سيرة النبى ـ ابن إسحاق (٩٤٣/٤) ، إمتاع الأسماع للمقريزى (٣٢٦/١) وزاد المعاد ـ ابن القيم الجوزى (٢/ ٨٠) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٣١٧/٢).

(٢) إمتاع الأسماع ـ للمقريزى (١: ٣٢٩) .

(٣) سورة التوبة ، الآية : ٤٩ .

(٤) يقال : إن قائل ذلك هو نفسه الذى قال للنبى ﷺ : أو تأذن لى ولا تفتنى . (إمتاع الأسماع ـ للمقريزى ٣٢٧/١).

(٥) سورة التوبة ، الآية : ٨١ .

ناضحا له فارتحلاه ، وزوّد كل واحد صاعين من تمر ؛ وحمل العباس معه رجلين ، وحمل عثمان بن عفان منهم ثلاثة[١].

وكان جماعة من المنافقين يجتمعون فى بيت سُويلم اليهودى يثبطون الناس عن الخروج فى هذه الغزوة ، فأرسل إليهم النبى ﷺ طلحة بن عبيد الله فى نفر من أصحابه ، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ، فأحرقه عليهم .

وجاء رهط من المنافقين يستأذنون النبى ﷺ فى التخلف من غير علة ، فأذن لهم، وهم بضعة وثمانون رجلا[٢].

وكان رهط من المنافقين يسيرون ، فقال أحدهم - وهو ثعلبة بن حاطب - تحسبون جلاد بن الأصفر كقتال غيرهم ، والله لكأنى بكم غدا مقرنون فى الحبال . وقال آخر - وهو الجلاس بن سويد بن الصامت - والله لئن كان محمد صادقا لنحن شر من الحمير .

فلما بلغ قولهم مسامع النبى ﷺ جاءوا إليه يعتذرون ، وقال أحدهم - وهو وديعة بن ثابت - : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، فنزل قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾[٣].

وجاء جلاس بن سويد إلى النبى ﷺ فحلف ما قال من ذلك شيئا فأنزل الله فيه: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾[٤].

---

(١) إمتاع الأسماع - للمقريزى (١/٣٢٧).

(٢) الطبقات الكبرى - ابن سعد (٢/١٦٥).

(٣) سورة التوبة ، الآيتان : ٦٥ ، ٦٦ .

(٤) سورة التوبة ، الآية : ٧٤ .

ثم أن النبى ﷺ كان إذا جاءه أحد من المنافقين مستأذنا فى عدم الخروج معه أذن له حتى يتخفف منهم ، فلما جاءه نفر من الأعراب من بنى غفار ليأذن لهم فى التخلف وهم يعتذرون ، لم يعذرهم الله تعالى ، وأنزل فيهم ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] .

ومن الناس من تخلف من غير شك ولا ارتياب ، وكانوا نفر صدق ، لم يتهموا فى إسلامهم ، وإنما أبطأت بهم النية ، فكانوا يؤجلون خروجهم يوما بعد يوم حتى تأخروا ولم يعد لحاقهم بالجيش ممكنا ، وقد أمكن لأحدهم اللحاق بجيش المسلمين وتخلف الثلاثة الآخرون ، لكنهم ندموا ندما شديدا ، وتابوا إلى الله حتى تاب عليهم ، وقد خاصمهم النبى ﷺ والمسلمون بعد عودتهم ، حتى ضاقت عليهم الأرض، وهم الذين نزل فيهم قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[2].

ولما هم النبى ﷺ بالرحيل من ثنية الوداع عقد الألوية والرايات فدفع لواءه الأعظم إلى أبى بكر الصديق ، ورايته العظمى إلى الزبير بن العوام ، وراية الأوس إلى أسيد أبن الحضير ، ولواء الخزرج إلى أبى دجانة ، وأمر كل بطن من الأنصار والقبائل أن يتخذوا لواء أو راية .

وسار النبى ﷺ ومعه ثلاثون ألفا ، وعشرة آلاف فرس ، واثنا عشر - أو سبعون أو أربعون - ألف بعير[3].

وكان النبى ﷺ استخلف على العسكر أبا بكر الصديق، فلما أجمع على المسير استخلف على المدينة سباع بن عرفطة ، وقيل : محمد بن مسلمة الأنصارى[4].

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٩٠ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ١٨ .

(٣) إمتاع الأسماع - للمقريزى (٣٢٨/١).

(٤) تفس المصدر السابق .

وارتحل جيش النبى ﷺ من ثنية الوداع مارا بوادى القرى والحجر حتى أصبح بتبوك ، فطاف النبى ﷺ بناقته على الناس وخطبهم فوعظهم ونصح ودعا لهم ، ثم أقام أربعة عشر ليلة يتحدى الروم ومتنصرة العرب ، غير أن أيا منهم لم يجسر على مقابلته ، ولم يخف لمجابهته ومقاتلته ، وان الخبر الذى جاء إلى النبى ﷺ ، عن تعبئة هرقل أصحابه ودنوه إلى الشام باطلا ، إذ لم يُرد ذلك هرقل ولا هم به[1].

فأمر رسول الله ﷺ أصحابه فى التقدم ، ومجاوزة تبوك إلى ما هو أبعد منها من ديار الشام ، فقال عمر بن الخطاب إن كنتَ أُمرت بالمسير فسر ، فقال ﷺ : «لو أُمرت ما استشرتكم فيه » قالوا : يا رسول الله إن للروم جموعا كثيرة ، وليس بها أحد من أهل الإسلام ، وقد دنوت منهم حيث ترى ، وقد أفزعهم دنوك ، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى ، أو يحدث الله لك فى ذلك أمراً ؟[2].

وفى تلك المدة الوجيزة التى قضوها بتبوك بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد من تبوك فى أربعمائة وعشرين فارسا إلى أكيدر بن عبد الملك فى دومة الجندل[3]، وقال له النبى ﷺ : « ستلقاه يصيد الوحش » وسار خالد بخيله حتى أتى حصن أكيدر فوقف ينظر ، وجاءت بقرة وحشية فحكت قرونها بحصنه ، فنزل إليها أكيدر ليلا ليصيدها ، ومعه نفر من أهل بيته فيهم أخوه حسان ، وخيل خالد تنتظرهم ، فلما خرج من باب الحصن أخذته الخيل فأسر أكيدر ، وقاتل حسان حتى قُتل عند باب الحصن ، وهرب من كان معهما ، وأسلم حريث أخو أكيدر فسلم .

وعرض خالد على أكيدر أن يفدى نفسه من القتل وأن يفتح له حصن دومة الجندل ، فوافق أكيدر على أن يخلى سبيله ويصالحه على أهله ، فقبل خالد وصالحه على ألفى بعير ، وثمانمائة رأس ، وأربعمائة درع ، وأربعمائة رمح ، على أن ينطلق به وبأخيه إلى النبى ﷺ فيحكم فيهما حكمه[4] .

---

(١) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/٣٣٧) .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) دومة الجندل : قرى بين الشام والمدينة قرب جبلى طيئ ، وكانت به بنو كنانة من كلب ، عليها سور يتحصن به وفى داخل السور حصن منيع ، يقال له : مارد ، وهو حصن أكيدر الملك بن عبد الملك الكندى (معجم البلدان ـ ياقوت الحموى ٢/٤٨٧).

(٤) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/٣٣٨) معجم البلدان ـ ياقوت الحموى (٢/٤٧٨) .

ففتح أكدر الحصن ، ودخله خالد ، وأوثق مضادا أخاه ، وأخذ ما صالح عليه من الإبل والرقيق والسلاح .

ثم خرج خالد قافلا إلى المدينة أو تبوك[١] ، فصالحه النبى ﷺ على الجزية ، وخلى سبيله وسبيل أخيه ، وكتب له بذلك كتابا ، وعاد أكيدر إلى حصنه .

وقيل : إنه أسلم وارتد ، فقتله خالد فى الردة[٢] ، وقيل : لما منع فى خلافة أبى بكر ما كان يؤديه إلى النبى ﷺ أخرج من جزيرة العرب ، ولحق بجزيرة أقور بين دجلة والفرات ، وبنى بناء سماه دومة[٣] .

كذلك لما انتهى النبى ﷺ إلى تبوك خاف أهل إيلة[٤] وتيماء[٥] ، فقدم يوحنا ابن رؤب صاحب إيلة ، ومعه أهل جرباء[٦] وأذرح[٧] ، وعليه صليب من ذهب ، فلما رأى النبى ﷺ طأطأ رأسه فى خضوع وذلة ، فأومأ إلييه النبى ﷺ أن أرفع رأسك ، وكساه النبى ﷺ بُردا ، وأنزله عند بلال ، فصالحهم النبى ﷺ ، وقطع عليهم الجزية ، فوضع على أهل إيلة ثلثمائة دينار ، وكانوا ثلثمائة رجل[٨] ، كما كتب كتابا إلى أهل أذرح ، وكتابا إلى أهل جرباء ، أنهم آمنون ، وإن عليهم مائة دينار فى كل رجب[٩] .

كما قدم إلى النبى ﷺ وهو بتبوك عبيد بن ياسر بن نمير ، ورجل من جذام ،

---

(١) راجع الطبقات الكبرى - ابن سعدد (٢/١٦٦) إمتاع الأسماع - المقريزى (١/٣٣٨) عيون الأثر - ابن سيد الناس (ص ٢٢٢).

(٢) إمتاع الأسماع - المقريزى (١/٣٣٩) .

(٣) إمتاع الأسماع - للمقريزى (١/٣٣٩).

(٤) إيلة : مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام ، وقيل : هى آخر الحجاز وأول الشام (معجم البلدان - ياقوت الحموى ١/٢٩٢).

(٥) تيماء : بلد فى أطراف الشام بين الشام ووادى القرى على طريق حاج الشام ودمشق (معجم البلدان - ياقوت الحموى ٢/٦٦) .

(٦) حرباء : من بلاد الشام ، كان أهلها يهودا . (معجم البلدان - ياقوت الحموى ٢/١١٨)

(٧) أذرح : بلد فى أطراف الشام مجاورة لأرض الحجاز (١/١٢٩).

(٨) راجع السيرة النبوية ابن إسحاق (٤/٩٥٢) إمتاع الأسماع للمقريزى (١/ ٤٠) (١/٣٤١) .

(٩) نفس المصدر السابق .

عن أهل مقنا[١] ـ وكان بمقنا يهود ـ فأسلما .

وكتب النبى ﷺ كتابا لأهل مقنا أنهم آمنون بأمان الله ، وأمان محمد ، وأن عليهم رُبع عُزولهم ، وربع ثمارهم[٢] .

كما قدم على النبى ﷺ وهو بتبوك وفد بنى سعد بن هذيم ، فأسلموا وعادوا إلى قومهم ، فدانوا جميعا بالإسلام ، وكانوا مشركين[٣] .

وقد أقام رسول الله ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة ، ثم خرج من تبوك قاصدا إلى المدينة .

وفى الطريق مكر به أناس من المنافقين ، وأتمروا أن يطرحوه من عقبة[٤] ، فلما بلغ النبى ﷺ تلك العقبة ، وأرادوا أن يسلكوها معه ، أخبر خبرهم ، فلم يتراجع النبى ﷺ عن العقبة ، بل طلب من أصحابه أن يسلكوا بطن الوادى ، وأجاز العقبة وحده ليكشف أمرهم ، فجاءوا إليه فى الظلام ملثمين ، وقطعوا لجام راحلته ونخسوها لتطرحه أرضا ، فغضب النبى ﷺ ، وأمر حذيفة بن اليمان ـ وكان يسوق خلفه ـ أن يردهم، فرجع إليهم حذيفة ، وجعل يضرب وجوه رواحلهم بمحجن[٥] فى يده ، فارتدوا وانحطوا عن العقبة مسرعين حتى خالطوا الناس ، وما عرفوهم من أجل ظلمة الليل[٦] .

وأشار أسيد على النبى ﷺ بأن يأمر كل بطن أن يقتلوا الرجل الذى همّ بهذا ، أو يأمره بقتلهم ، فقال ﷺ : « يا أُسيد، إنى أكره أن يقول الناس : إن محمدا لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده فى قتل أصحابه » .

ولما قرب النبى ﷺ من المدينة نزل بذى أوان[٧] ، فجاءه أصحاب مسجد الضرار وسألوه أن يصلى فى مسجدهم ، وهو مسجد بناه خمسة[٨] ـ أو اثنا عشر

(١) مقنا : قرية قرب أيلة وكانوا يهودا .
(٢) إمتاع الاسماع ـ المقريزى (١/ ٣٤٠).
(٣) نفس المصدر السابق (١/ ٣٤٠) .
(٤) العقبة : الجبل الطويل يعرض للطريق فيأخذ فيه .
(٥) المحجن : كل معوج الرأس .
(٦) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/ ٣٤٥) .
(٧) ذى أوان : بلد بينه وبين المدينة ساعة واحدة ، وفيه نزل الوحى فى شأن مسجد الضرار .
(٨) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/ ٣٤٧).
(٩) السيرة النبوية ـ ابن كثير (٤/ ٣٤).

رجلا - (٩) من المنافقين ، وأرادوا من النبى ﷺ أن يصلى فيه وهو يتجهز لتبوك - وإنما كان ذلك حتى يُروّج لهم ما أرادوا من الكفر والفساد والعناد - فقال لهم النبى ﷺ : « إنى على جناح سفر ، وحال شُغل ، ولو قدمنا - إن شاء الله - أتيناكم وصلينا بكم فيه »[1].

فلما نزل النبى ﷺ بذى أوان أتاه خبر المسجد وخبر أهله من السماء : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

فأمر النبى ﷺ أصحابه أن يحرقوا المسجد ، فحرقوه بالنار وتفرق عنه أهله .

وهكذا ، حققت هذه الغزوة أهدافها ، وبلغت غاياتها ، فهى أنزلت الرعب فى نفوس الروم والقبائل المتنصرة بهم ، وجرأت المسلمين على هؤلاء وأولئك ، وأكدت بما لا يدع مجالا للشك قوة المدينة ، وقدرتها لا على رد ما يقع عليها من اعتداء فحسب ، ولكن على الزحف إليهم ، وقاتلهم فى عقر دارهم ، فنالوا رضاء الله تعالى ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾[3].

ثم هى قد كشفت عن حال المجتمع المسلم فى المدينة ، وقد نزلت سورة التوبة لتصور أحواله ، وتبرز أمراضه ، وتميط اللثام عن طوائفه وجماعاته ، ليميز الله الخبيث من الطيب .

---

(١) إمتاع الأسماع - المقريزى (١/٣٤٧) .

(٢) سورة التوبة ، الآيات : ١٠٧ : ١١١.

(٣) سورة التوبة ، الاية : ١١٧ .

ولا جدال فى أن هذه الغزوة كانت آخر غزوات النبى ﷺ ، لأنه لم يخرج بنفسه للقتال فى غيرها حتى توفى ، صلوات الله وسلامه عليه .

أما أن فكرة غزوة الشام قد ظلت تراوده ، فهو أمر مؤكد ، ذلك أنه أعد جيشا كبيرا بعد ذلك بإمرة أسامة بن زيد لغزو الشام ، كان على أهبة الخروج إليها عندما قُبض ، فأنفذه أبو بكر .

بعث أسامة بن زيد

عندما خرج النبى ﷺ فى غزوة تبوك إنما كان يريد الشام ، ولكنه عاد بدون قتال، ومن غير أن يتجاوز حدود جزيرة العرب إلى أرض الشام ، مكتفيا بمصالحة بعض الأمراء على الجزية ، وأجّل هذا الغزو إلى فرصة أخرى .

وقد عاد النبى ﷺ من حجة الوداع فى أواخر ذى الحجة من السنة العاشرة راضى النفس مرضيًّا ، فها هم عشرات الألوف من المسلمين صادقى الإسلام يصاحبونه إلى حج البيت الحرام ، كما نزل عليه وهو واقف بعرفة قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (١) وها هى قبائل العرب فى كل أنحاء الجزيرة قد طأطأت الرؤوس ودانت بدين الحق ، واستتب الأمر بعد أن جمع قلوبها الإسلام ، فأخذت تلتف من حوله وتدين بتعاليمه وتجاهد فى سبيل نصرته بمالها ودمها.

كان الإسلام عندئذ قد استقر فى جزيرة العرب استقرارا نهائيًا ، وإن تخلل هذا الاستقرار ارتداد قبيلة هنا ، أو عصيان قبيلة هنا، ذلك أن قوة الإسلام قد طغت وغلبت ولم يعد لأحد قبل بمعارضتها أو صد تيارها الجارف .

فأى شيء إذن يمنع جيوش الإسلام الآن أن تتجاوز حدود جزيرة العرب إلى أرض الشام ، إذ لم يعد من شيء فى واقع الأمر ليحول دون تنفيذه لأوامر ربه عملا بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٣ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ١٢٣.

بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [(١)] .

ولما عاد النبى ﷺ من حجة الوداع أقام بالمدينة بقية ذى الحجة والمحرم ، ومازال يذكر مقتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب ، وأصحابه الشهداء رضى الله عنهم ، ووجد عليهم وجدا شديداً[(٢)] .

لذا أمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لغزو الروم ، وأمر المسلمين بالجد ، ثم دعا أسامة بن زيد فى المحرم من السنة الحادية عشرة للهجرة[(٣)] ، أو لأربع ليال بقين من صفر[(٤)] وقال له : « يا أسامه ، سر على اسم الله وبركته حتى تنتهى إلى مقتل أبيك ، فأوطئهم الخيل ، فقد وُلّيت هذا الجيش ، فأغرْ صباحا على أهل أبني[(٥)] ، وحرق عليهم ، وأسرع السير تسبق الخبر ، فإن أظفرك الله فأقلل اللبث فيهم ، وخذ معك الأدلاء ، وقدم العيون أمامك والطلائع » .

فتجهز الناس لذلك ، وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون .

فبينما الناس على ذلك ، ابتدى رسول الله ﷺ شكواه التى قبضه الله عز وجل فيها ، فصُدع وحُمّ ، وعقد لأسامة لواء بيده ، وقال : « يا أسامه ، اغز بسم الله فى سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغدروا ، ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ، ولا تَمَنّوا لقاء العدو ، فإنكم لا تدرون لعلكم تُبتلون بهم ، ولكن قولوا اللهم اكفناهم واكفف بأسهم عنا ، فإن لقيتوهم أجلبوا وصيحوا فعليكم بالسكينة والصمت ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وقولوا : اللهم إنا عبدناك ، نواصينا ونواصيهم بيدك ، وإنما تغلبهم أنت ، واعلموا أن الجنة تحت البارقة »[(٧)] .

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٢٩ .

(٢) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/٣٨٣).

(٣) تاريخ الرسل والملوك ـ ابن جرير الطبرى (٤/١٧٦٣) .

(٤) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/١٨٩) والسيرة النبوية ـ ابن كثير (٤/٤٤٠) وإمتاع الأسماع ـ للمقريزى (١/٣٨٣) .

(٥) أبنى : أرض السراة ، ناحية البلقاء بالشام (الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/١٨٩).

(٦) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/٣٨٣).

(٧) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/ ١٩٠) وإمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/٣٨٤) والبارقة : السيوف .

فخرج أسامة بلوائه معقودا ، فدفعه إلى بريدة بن الحصيب الأسلمى ، وعسكر بالجرف ، فلم يبق أحد من المهاجرين والأنصار إلا انتدب فى تلك الغزوة ، كأبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص وسعيد ابن زيد وقتادة بن النعمان وسلمة بن اسلم بن جريش فى رجال آخرين[١].

وقيل : إن أبا بكر الصديق لم يكن ممن انتدب معه فى تلك الغزوة ، فإن رسول الله ﷺ اشتد به المرض وجيش أسامة بالجرف ، وقد أمر النبى ﷺ أبا بكر أن يصلى بالناس ، فكف يكون فى الجيش وهو إمام المسلمين[٢] ؟ وطعن بعض الناس فى إمارة أسامة ، وقال المنافقون فى ذلك ، فرد عليهم النبى ﷺ بقوله : «إنه لخليق لها ، وإن قلتم فيه لقد قلتم فى أبيه من قبل وإن كان خليقا لها »[٣].

أو قال ﷺ : « إن تطعنوا فى إمارته فقد كنتم تطعنون فى أمارة أبيه من قبل، وأيم الله إن كان لخليقا للإمارة ، وإن كان لمن أحب الناس إلىّ ، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ بعده »[٤].

فخرج أسامة ، فضرب معسكره بالجرف ، وانتظم الناس فى العسكر ، وتمهلوا. وثُقل رسول الله ﷺ ، فجعل يقول : « أنفذوا بعث أسامة »[٥] ولما اشتد به المرض خرج أسامة من معسكره ورسول الله ﷺ ثقيل مغمور[٦] ، وهو اليوم الذى لدوه فيه[٧] ، فدخل عليه أسامة وعيناه تهملان[٨] و عنده العباس ، وحوله النساء ، فطأطأ عليه أسامة فقبّله ، والنبى ﷺ لا يتكلم ، إلا أنه يرفع يديه إلى السماء ثم يصبها على أسامة ، كأنه يدعو له ، فرجع أسامة إلى معسكره ، وغدا منه يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول[٩] فأصبح رسول الله ﷺ مفيقا ، وجاءه

---

(١) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ٢/ ١٩٠ .

(٢) انظر السيرة النبوية ـ ابن كثير (٤/٤٤١) .

(٣) تاريخ الرسل والملوك ـ ابن جرير الطبرى (٤/١٧٩٥) .

(٤) السيرة النبوية ـ ابن كثير (٤/ ٤٤٠).

(٥) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢/ ١٩٠) .

(٦) مغمور : مغمى عليه .

(٧) لدّوه : أعطوه الدواء .

(٨) تهملان : تدمعان .

(٩) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/ ٣٨٥).

أسامة ، فقال له النبى ﷺ : « أغد على بركة الله » فودعه أسامة ، ورسول الله ﷺ مفيق ، وخرج إلى معسكره ، فأمر الناس بالرحيل .

فبينما هو يريد أن يركب من الجرف ، أتاه رسول أمه - أم أيمن - يخبره أن رسول الله ﷺ يموت .

فأقبل أسامة ، وأقبل معه عمر وأبو عبيدة ، فانتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو يموت، فتوفى الله عز وجل نبيه ﷺ حين زاغت الشمس يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول فى العام الحادى عشر للهجرة ، وقيل : لا يصح أن تكون وفاته يوم الاثنين إلا فى ثانى الشهر ، أو ثالث عشر ، أو رابع عشرة أو خامس عشرة[١] ، وقيل : إنه توفى فى الثانى من ربيع الأول[٢] .

ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة ، ودخل بريدة بن الحصين بلواء أسامة معقودا حتى أتى باب رسول الله ﷺ ، فغرزه عنده .

فلما بويع لأبى بكر أمر بزيدة بن الحصيب أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة ليمضى لوجهه ، فمضى بهم إلى معسكرهم الأول ، فلما ارتدت العرب كُلم أبو بكر فى حبس أسامة فأبى ، وكَلم أبو بكر أسامة فى عمر أن يأذن له فى التخلف ، ففعل[٣] .

فلما كان هلال شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة خرج أسامة ، فسار إلى أهل أبنى عشرين ليلة ، فشن عليهم الغارة ، فقتل من أشرف له ، وسبى من قدر عليه وحرق فى طوائفها بالنار ، وحرق منازلهم وحروشهم ونخلهم ، فصارت أعاصير من الدخان ، وأجال فى عرصاتهم[٤] ، وأقاموا يومهم ذلك فى تعبئة ما أصابوا من الغنائم وما أصيب من المسلمين أحد[٥] .

فلما أمسى أمر الناس بالرحيل، وسار إلى المدينة وبعث بشيرا إليها يخبر بسلامتهم .

---

(١) إمتاع الأسماع - المقريزى (١/ ٣٨٥).

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) انظر تاريخ الرسل والملوك - ابن جرير الطبرى (٤/ ١٧٩٧) .

(٤) عرصاتهم : العرصة هى البقعة الواسعة بين الدور لا بناء فيها .

(٥) الطبقات الكبرى - لابن سعد (٢/ ١٩١) عيون الأثر - ابن سيد الناس (٢/ ٢٨٢).

وبلغ هرقل وهو بحمص ما صنع أسامة ، فبعث رابطة يكونون بالبلقاء ، فلم تزل هناك حتى قدمت البعوث إلى الشام فى خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

والآن ، وبعد أن سلطنا الأضواء على العلاقة التى كانت بين النبى ﷺ والروم، فقد آن لنا أن نسلطها على فارس .

المسلمون والفرس

أولا : العرب والفرس قبل الإسلام :

بلغ من اهتمام القرشيين بالتجارة أنهم كانوا يرحلون رحلتين فى العام : رحلة الشتاء إلى اليمن والعراق والحبشة ، ورحلة الصيف إلى الشام[1] .

وكان بنو عبد مناف الأربعة يتوجهون إلى البلاد المختلفة للتجارة ، فكان هاشم يتوجه إلى الشام ، وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس[2] ، وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه البلاد فى ذمة هؤلاء الأخوة الأربعة لا يتعرض لهم أحد بسوء .

وبما أن التجارة تقتضى علمًا بالسياسة العامة والعلاقات التجارية ، فقد عنى القرشيون بالوقوف على العلاَقات بين فارس والروم ، وبين الحبشة واليمن ، وهل هناك ما يعترض تجارتها ؟ وبذلك كانت تجارة قريش مدرسة لتكوين أفراد لهم دراية بالحساب التجارى والمكاييل والموازين إلى غير ذلك مما له علاقة بالناحية التجارية.

وقد أفادت قريش من وراء ذلك فوائد معنوية وأدبية جنوا ثمارها بمخالطتهم أقواما مختلفين كالفرس والروم من ذوى المدنيات القديمة ، فتعرفوا على أحوالهم السياسية والاجتماعية والأدبية، مما كان له أثر كبير فى تثقيف عقولهم ومداركهم.

وكان للفرس صلات قوية ببلاد العرب ، ومصالح جمة ، دفعتهم إلى إقامة عدة دويلات على الحدود بين بلادهم وبين بلاد العرب ، إذ كانت مملكة الفرس

---

(١) رحلتا الشتاء والصيف اللتين أشار إليهما القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ سورة قريش الآيتان : ١، ٢ .

(٢) تاريخ الإسلام السياسى - حسن إبراهيم حسن (١٢/١).

معرضة لهجمات بعض القبائل البدوية التى كانت تسكن شمالى الجزيرة العربية ، وكانت هجمات هذه القبائل سريعة يختطفون خلالها ما يستطيعون الحصول عليه ثم يفرون عائدين ، فيتوغلون فى قلب الجزيرة حيث لا تستطيع جيوش الفرس أن تتبعهم خوفا من وعورة الطريق وقلة المياه .

ولهذا عمد الفرس أن يقيموا حاجزا بينهم وبين العرب ، وكان ذلك الحاجز عبارة عن بعض القبائل العربية ألفها الفرس وأسكنوها فى شمال الجزيرة ، وأمد الفرس هذه القبائل بعون من السلاح والمال ، وكانت هذه القبائل تعرف مسالك الجزيرة وتستطيع الوقوف فى وجه هجمات العرب ، وبهذا تكونت مملكة الحيرة ، تحمى الفرس ويحميها الفرس[١] .

وهناك سبب آخر استدعى قيام مملكة الحيرة ، هو : أن الفرس أرادوا أن يستعينوا بالعرب فى حروبهم ضد الروم ومن يدور فى فلكهم كالغساسنة ، فقربوا بعض القبائل العربية إليهم ، واستعملوها على حدودهم ليقف العرب فى وجه العرب ، وليكونوا عونا لحلفائهم ضد أعدائهم .

كما أن قيام مملكة الحيرة على وجه الخصوص له ظروف تتصل بالحالة ببلاد فارس عند قيام هذه المملكة ، ذلك أن الإسكندر المقدونى ـ عملا بنصيحة أستاذه أرسطو ـ قسم بلاد الفرس إلى دويلات ، وجعل على كل منها ملك له جيش ووزراء، ليمكن للإسكندر بذلك تفريق الكلمة وضعف القوة ، وكان للإسكندر ما أراد ، ويسمى هذا العهد بعهد ملوك الطوائف ، وقد استمر من سنة ٣٣٢ ق. م إلى سنة ٢٣٠م[٢] .

وخلال هذا العهد حدثت هجرة عرب الجنوب بسبب سيل العرم ، وقد استطاعوا بسبب ضعف ملوك الطوائف أن يكونوا لهم مُلْكا فى الحيرة ، لم يكن قويا ولكنه لم يكن أضعف من ممالك الطوائف .

ثم ظهر سنة ٢٣٠م أرادشير بن بابك ، واستطاع أن يعيد للبلاد وحدتها ، وأن يخضع هذه الممالك لسلطانه ، ويزيل هؤلاء الملوك ويكون الدولة الساسانية .

---

(١) انظر : أيام العرب فى الجاهلية ـ محمد أحمد جاد المولى (ص ١٣).

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامى ـ أحمد شلبى (١/ ١٨٠).

ولم يجد أردشير بدا من إخضاع مملك الحيرة كما أخضع سواها من ممالك الطوائف ، ولكن نظرا للاعتبارات الخاصة بالعرب ـ والتى سبق إيرادها ـ أبقى على مملكة الحيرة ، واكتفى بخضوع ملوكها إليه ، وبأن يتولى هو عند اللزوم تعيين هؤلاء الملوك ، ومن أشهر ملوك الحيرة : عمرو بن عدى ، والمنذر بن ماء السماء ، والنعمان أبن المنذر ، وقد غضب كسرى على النعمان هذا لأنه أنف أن يزوج بناته وإخوته من كسرى وأولاده ، فتوعده كسرى وطلبه ، ولكن النعمان هرب ، ثم سلم نفسه ، فألقاه كسرى فى السجن حتى مات[1].

وبعد النعمان عيّن كسرى إياس بن قبيصة على الحيرة ، ولم يفرده بالحكم وإنما أشرك معه رجلا فارسيا اسمه النخيرجان ، وفى هذا العهد قدم خالد بن الوليد إلى الحيرة يقود جيش المسلمين ، فصالحه إياس على الجزية ، وكان ذلك سنة ١٢هـ[2] ثم دخل الناس بعد ذلك فى الإسلام .

وإلى جانب الحيرة ، فقد بسط الفرس نفوذهم على قبائل شيبان ، وعبد قيس، وبكر بن وائل ، وتميم ، وبنى حنيفة ، والبحرين ، وهجر ، وعُمان ، وبقية البلاد الجنوبية العربية ـ وإن كان نفوذ الفرس على عُمان والبلاد الجنوبية العربية قد انتهى عند ظهور الإسلام[3].

وقد جنى الفرس فوائد عظيمة من وراء أتباعهم من العرب ، من ذلك أن هؤلاء العرب سهلوا فتح مصر سنة ٥٢٥ق. م[4]، ولو كانوا حربا عليهم لفاتهم انتصارات وفتوح ومصالح حققوها ونعموا بها .

كما استولى الفرس على اليمن سنة ٥٧٥م ، إذ كانت فارس تنقم على الأحباش والروم استعمار اليمن ، وحانت الفرصة لتدخل فارس ، فإن أحد أولاد حمير واسمه سيف بن ذى يزن فر إلى الفرس يطلب النجدة والعون لإخراج الأحباش من بلاده ، واستجابت فارس ، وأرسلت جيشا إلى اليمن بقيادة وهرز ، وانتصر

---

(١) أيام العرب فى الجاهلية ـ محمد أحمد جاد المولى (ص ٦ ـ ٣٩).

(٢) تاريخ الرسل والملوك ـ ابن جرير الطبرى (٢/٥٥١).

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام ـ جواد على (١/ ٣٧٠).

(٤) نفس المصدر السابق .

وهرز هذا وتعاون هو وسيف فى القضاء على الأحباش ، ولما تم انتصار الفرس أمر كسرى أن يتتوج سيف أبن ذى يزن ملكا على اليمن ، وأن يعود وهرز إلى فارس[1] ، ولكن هذا الملك قُتل بعد قليل ، ويقال : إن من قتله كانوا ممن استبقاهم عبيدا له من الأحباش ، وإنه قتل بتدبير الفرس[2] .

فلما بلغ ذلك كسرى ، بعث وهرز إلى بلاد اليمن فى أربعة آلاف من الفرس، وأمره ألا يترك أسود ولا ولد عربية من أسود صغيراً أو كبيرا إلا قتله ، فلما دخل وهرز بلاد اليمن لم يرك بها حبشيا إلا قتله ، ثم ركب إلى كسرى بذلك ، فأمّره عليها حتى مات .

فخلفه عليها ابنه المرزبان ، فلما مات خلفه خرخرة بن البينجان بن المرزبان ابن وهرز، وقد غضب عليه كسرى ، فحلف ليأتين به أهل اليمن يحملونه على أعناقهم.

فلما قدم على كسرى تلقاه رجل من عظماء فارس ، فألقى عليه سيفا لأبى كسرى ، فأجاره كسرى بذلك ، ونجاه من القتل ، وولى باذان على اليمن وهو آخر ولاة هذه البلاد من قبل كسرى فارس ، وعاش إلى عهد النبى ﷺ هو وقومه فى السنة العاشرة من الهجرة[3] .

ثانيا : الدولة الإسلامية والفرس :

كانت بلاد فارس قبل الإسلام أمة مستقلة ، متجانسة فى جنسيتها ولغتها ودينها ، بينما لم تكن هناك أمة عربية ، وإنما كانت هناك قبائل عربية متحاربة متنافرة ، ولذلك لم يكن الفرس يقيمون حسابا للعرب ، إذ كان العرب داخل جزيرتهم يصطرعون صراعا يكاد يكون متصلا .

وعلى هذا غض الفرس بصرهم عن الجزيرة العربية ، لأنها لم تكن وحدة يمكن أن تصبح خطرا على دولتهم المجاورة لهم .

فلما جاء الإسلام آمن به بعض العرب وكفر به آخرون ، وقام نزاع عنيف بين

---

(١) راجع تاريخ الرسل والملوك ـ ابن جرير الطبرى (٢/١١٧).

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامى ـ أحمد شلبى (١/١١٢).

(٣) تاريخ الرسل والملوك ـ ابن جرير الطبرى (٢/١٢١) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/٣٨٣).

المسلمين والمشركين واليهود ، وفى هذه المرحلة لم يهتم الفرس بهذا الدين الجديد وقالوا إنها حركة قام بها عربى وسيقتلها العرب واليهود ، وظنوا أنها نوع من الصراع بين القبائل العربية لا يلبث أن يموت .

ولكن سرعان ما بدأ الإسلام ينتصر على أعدائه وينتشر بين العرب ، وسرعان ما تكونت فى الجزيرة العربية دولة قوية متحدة ، وبالإضافة إلى قوتها واتحادها كانت لها مبادئ الدين الجديد الذى اجتمع العرب حوله والذى استلزم الدعوة له .

وفى العام السادس للهجرة افزع كسرى كتاب النبى ﷺ إليه يدعوه إلى الإسلام ، واعتقد أن محمدا لم يقنع بأسيس دولة عربية ، وإنما أخذ يطمع فى مد سلطانه إلى أرضه ، فأدرك أن الجزيرة العربية أصبحت منافسا خطيراً ، وقويا متحدا ، وأصبحت دولة لها دين تعمل على نشره واكتساب الأنصار إليه ، ومن أجل هذا رأى ضرورة القضاء على الدولة الإسلامية الجديدة ، والقضاء على الوحدة التى تكونت بين العرب .

وبدأ الفرس يتحرشون بالمسلمين ، إذ كانت القبائل الموالية للفرس توالى الإغارة على أرض المسلمين ، ولم تكن حرب المسلمين مع الفرس إلا امتدادا للدفاع الذى قام به المسلمون ليحموا أنفسهم وذويهم من هؤلاء المغيرين .

ولما عقد النبى ﷺ صلح الحديبية ، وأمن كيد قرش إلى حين ، وفرغ للتبشير بالإسلام خارج شبه الجزيرة العربية ، وأوفد دعاته إلى الملوك والأمراء والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام ، كان من بينهم رسائله إلى كسرى ومن يدور فى فلك الفرس من العرب .

فبعث النبى ﷺ شجاع بن وهب[1] ، أو عبد الله بن حذافة[2] إلى كسرى ابن هرمز ملك فارس وكتب معه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ،

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٢٦٨/٤) ، سيرة النبى ـ ابن إسحاق (١٠٢٥/٤).

(٢) نفس المصدر السابق ، المغازى للواقدى (/٢٢٥) ، الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (٢٦٠/١) ، إمتاع الأسماع ـ المقريزى (٢٣٥/١).

سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وأدعوك بدعاء الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، فإن تُسلم تَسلم، وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك »[١] . ويقال[٢] : إن رسول الله ﷺ قد أمر حامله أن يدفعه إلى عظيم البحرين ، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى . فأمر كسرى بإيوانه ـ مجلس عرشه ـ أن يزين ، ثم أذن لعظماء فارس ، ثم أذن لشجاع ـ أو عبد الله ـ فلما أن دخل عليه أمر كسرى بكتاب رسول الله ﷺ أن يُقبض منه ، فقال شجاع : لا ، حتى أدفعه أنا إليك ، كما أمرنى رسول الله ﷺ ؛ فقال كسرى : ادنه ، فدنا فناوله الكتاب ثم دعا كاتبا له من أهل الحيرة فقرأه ، فإذا فيه : « من محمد بن عبد الله ورسوله إلى كسرى عظيم فارس » .

فاغضبه حين بدأ رسول الله ﷺ بنفسه ، وصاح وغضب ، ومزق الكتاب قبل أن يعلم ما فيه ، وأمر بشجاع ـ أو عبد الله ـ فأُخرج .

فلما رأى شجاع ذلك قعد على راحلته ، ثم سار إلى المدينة ، وقال : والله ما أبالى على أى الطريقين أكون ، إذ أديت كتاب رسول الله ﷺ[٣] .

ولما ذهب عن كسرى سورة غضبه بعث إلى شجاع ليدخل عليه ، فالتُمس فلم يوجد ، فطلب إلى الحيرة فسبق .

فلما قدم شجاع على النبى ﷺ ، أخبره بما كان من أمر كسرى وتمزيقه كتاب رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « مزق كسرى ملكه »[٤] .

ويقول الرواة[٥] : إن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن حذافة بن قيس القرشى السهمى بكتابه إلى كسرى ، فلما قرأه شقه وقال : يكتب إلى بهذا وهو عبدى؟ ثم كتب كسرى إلى باذان ـ وهو نائبه على اليمن ـ أن ابعث إلى هذا الرجل الذى

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٢٦٨/٤) .

(٢) نفس المصدر السابق ، نقلا عن رواية البخارى .

(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٢٦٨/٤) .

(٤) نفس المصدر السابق .

(٥) المغازى للواقدى (٢٢٥/٣) ، الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (١/ ٢٦٠) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس (٢٦٣/٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٦٨/٤) نقلا عن رواية البخارى .

بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به ؛ فبعث باذام قهرمانه أبا وذيه - وكان كاتبا حاسبا - بكتاب فارس ، وبعث معه رجلا من الفرس - يقال له : خرخرة - وكتب معهما إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ، وقال لقهرمانه ايت بلاد هذا الرجل وكلمه وائتنى ، بخبره فخرجا حتى قدما الطائف، فوجدا رجلا من قريش فى أرض الطائف ، فسألوه عنه ، فقال : هو بالمدينة . واستبشر أهل الطائف وقريش بهما وفرحوا ، وقال بعضهم لبعض : أبشروا ، فقد نصب له كسرى ملك الملوك ، كُفيتم الرجل .

فخرج مبعوثا باذان حتى قدما على رسول الله ﷺ ، فكلمه أبا وذيه فقال : شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك لتنطلق معى ، فإن فعلت كتب إلى ملك الملوك يكفه عنك ، وإن أبيت فهو من قد علمت، فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك .

فقال لهما رسول الله ﷺ : « ارجعا حتى تأتيانى غدا » .

وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بأن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه، فقتله فى شهر كذا وكذا ، وفى ليلة كذا وكذا .

فدعاهما رسول الله ﷺ ، فأخبرهما ، فقالا : هل تدرى ما تقول ؟ ! إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا ، افنكتب بهذا الخبر ونخبر الملك باذان ؟ قال ﷺ: « نعم، أخبراه ذلك عنى ، وقولا له : إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ كسرى، وينتهى إلى الخف والحافر ، وقولا له : إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك، وملّكتك على قومك من الأبناء » ثم أعطى خرخرة منطقة[1] فيها ذهب كان قد أهداها له بعض الملوك .

فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فاخبراه الخبر ، فقال : والله ما هذا بكلام ملك ، وإنى لأرى الرجل نبيا كما يقول ، وليكونن ما قد قال ، فإن كان هذا حقا فهو نبى مرسل ، وإن لم يكن فسنرى فيه رأيا .

فلم ينشب[2] باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه : أما بعد ، فإنى قد قتلت

---

(١) المنطقة : ما يشد به الوسط (الحزام) .

(٢) ينشب : يلبث .

كسرى ولم أقتله إلا غضبا لفارس ، لما كان استحل من قتل أشرافهم ونحرهم فى ثغورهم ، فإذا جاءك كتابى هذا فخذ لى الطاعة ممن قبلك ، وانطلق إلى الرجل الذى كان كسرى قد كتب فيه فلا تُهِجْه[1] حتى يأتيك أمرى فيه .

فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان أسلم ، وأسلمت الأبناء من فارس ممن كان منهم باليمن .

وكان قتل كسرى على يدى ابنه شيراويه ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الآخرة من سنة سبع من الهجرة[2].

وفى شعر بعضهم ما يرشد أن قتله كان فى شهر حرام ، وهو قول بعض الشعراء :

قتلوا كسرى بليل محرما .·. فتولى لم يمتع بكفن

ولقد تمزق ملك كسرى فى عدة سنين بعد ذلك .

• ثالثًا : كتب النبى ﷺ إلى اتباع كسرى من العرب :

وكما أرسل النبى ﷺ كتابه إلى كسرى ، نراه قد أعد مبعوثين من أصحابه يرسلهم إلى اتباع كسرى من العرب يدعوهم إلى الإسلام ، ويخبرهم أنه نبى مرسل، أرسله الله ليبلغ دعوة الحق إلى الناس كافة .

غير أن كتاب السيرة يختلفون فى تحديد الفترة التى أرسل فها مبعوثيه فمنهم من يقول بأنه أرسلهم دفعة واحدة فى أواخر سنة ست من الهجرة ، ومنهم من يقول بأنه أرسلهم الواحد إثر الآخر منذ ذلك التاريخ ، وعلى فترات متقطعة حتى وفاته، وهو الأرجح ، وكان النبى ﷺ يولى على كل قوم قبلوا الإسلام كبيرهم .

ـ فأرسل النبى ﷺ العلاء بن الحضرمى فى السنة السادسة ـ أو الثامنة ـ[4] للهجرة إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين ، بكتاب يدعوه فيه للإسلام ، جاء فيه :

---

(١) تُهِجْه : تغضبه .

(٢) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (١/ ٢٦٠).

(٣) المغازى ـ الواقدى (٣/٢٢٦) .

(٤) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/ ٢٣٤) .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أحمد الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا ، فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول ، من أحب ذلك من المجوس فإنه آمن ، ومن أبى فإن عليه الجزية[1] » .

فلما قرأ المنذر بن ساوى كتاب النبى ﷺ إليه أسلم ، وأسلم أهل البحرين[2] ، وكتب فى جوابه إلى النبى ﷺ :

« أما بعد : يا رسول الله ، فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود ، فأحدث إلى فى ذلك أمرك .

فكتب إليه رسول الله ﷺ يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد : فإنى أذكرك الله عز وجل، فإنه من ينصح لنفسه وأنه من يُطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وأن رسلى قد أثنوا عليك خيرا وإنى شفعتك فى قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلن نغيرك عن عملك ، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية » .

- وبعث عمرو بن العاص إلى جفر وعبد - أو عمرو - ابنى الجلندى ، ملكى عمان فى السنة الثامنة - أو السابعة [3] - للهجرة بكتاب جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى جفر وعمرو ابنى الجلندى ؛ سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما فإن ملككما زائل ، وخيل تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما »[4] .

---

(١) عيون الأثر - ابن سيد الناس (٢/ ٢٦٤) .

(٢) إمتاع الأسماع - المقريزى (١/ ٢٣٥).

(٣) إمتاع الأسماع - المقريزى (١/ ٣١٧) .

(٤) عيون الأثر - ابن سيد الناس (٢/ ٢٦٣).

فسأل عبد بن الجلندى عمرو بن العاص عما يأمر به محمد وعما ينهى عنه ، فقال : يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم وينهى عن الظلم والعدوان وشرب الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب ، فقال عبد : ما أحسن هذا الذى تدعو إليه ، ولو كان أخى يتابعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ، ولكن أخى ضن بملكه من أن يتركه يصير تابعا .

قال عمرو إن أسلم أخوك ملّكه رسول الله ﷺ على قومه ، فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم ؛ فقال عبد : إن هذا لخُلُقُ حسن ، وما الصدقة ؟ فأخبره عمرو بما فرض الله عليه من الصدقات فى الأموال .

ولما ذكر عمرو المواشى ، قال : يا عمرو ، يؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى فى الشجر وتَرِد المياه ؟ قال : نعم . قال عبد : والله ما أرى قومى على بُعْد دارهم وكثرة عددهم يرون بهذا ؛ ثم قام عبد فأوصل عمرا لأخيه جيفر ، فتكلم معه عمرو كلاما ألان قلبه، حتى أسلم هو وعبد .

- كذلك بعث النبى ﷺ سليط بن عمرو العامرى ، بكتاب إلى هوذة بن على الحنفى ، وإلى ثمام بن أثال ، وهما رئيسا اليمامة [1]، وجاء فى الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي ، سلام على من اتبع الهدي، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر ، فأسلم تسلم ، واجعل لى ما تحت يديك » .

فلما قرأ الكتاب ، جاء فى رده : ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله ، وأنا شاعر قومى وخطيبهم ، والعرب تهاب مكانى ، فاجعل لى بعض الأمر اتبعك .

وقيل : إن هوذة بن على بعث وفداً بأن يجعل له رسول الله ﷺ الأمر بعده حتى يسلم ، وإلا قصده وحاربه ؛ فقال النبى ﷺ « اللهم أكفنيه » فمات بعد قليل[2].

وهكذا خرج النبى ﷺ بدعوته إلى العالم الفسيح ، ونبه العرب خارج الجزيرة العربية إلى الإسلام ، ودعى هؤلاء وأولئك إلى التفكير فيه ، ومهد السبيل أمام المسلمين لنشر دينهم فى تلك الأراضى التى ترفرف عليها ألوية هؤلاء الملوك والحكام .

---

(١) إمتاع الأسماع - المقريزى (١/ ٢٣٤).

(٢) المغازى للواقدى (٣/ ٣٣٠).

المسلمون والأحباش

أولا : العرب والأحباش :

ترجع علاقة العرب بالأحباش إلى عهد ملوك حمْير ، إذ كان يوسف ذو نواس - أحد أشهر ملوك حمير - يحكم بلاد نجران التى كانت تدين بالمسيحية ، غير أنه اعتنق اليهودية فى أواخر أيامه ، واضطهد المسيحيين وأحرقهم بالنار فى سنة ٥٣٤م[١].

فطلب جستنيان إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية من نجاشى الحبشة غزو هذه البلاد وانقاذ المسيحيين ، وكان يرمى من وراء ذلك إلى غرضين : أحدهما سياسى وهو اتخاذ بلاد اليمن طريقا لتجارته إلى الشرق ، إذا وقعت فى يد حلفائه الأحباش ليقضى بذلك على تجارة منافسيه الفرس ، والآخر دينى وهو جعل السيادة للدين المسيحى هناك[٢].

فتغلب أرياط الحبشى على بلاد اليمن وحكمها من قبل النجاشى ، إلا أن المنافسة قامت بين أرياط وأبرهة أحد قواد الحبشة ، وتحاربا ، فقُتل أرياط ، وخلفه أبرهة على اليمن بعد أن أرضى النجاشي[٣].

وقد جُرح أبرهة فى هذه المعركة ، وشُجّت شفته ، فلقب بالأشرم ، وأبرهة هذا هو صاحب الفيل الذى غزا مكة ، وذكره القرآن الكريم فى سورة الفيل : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ .

على أننا لا ندرى متى بدأت العلاقة بين مكة والحبشة ؟ وهل كان ذلك بعد المعاهدة التى أخذها عبد شمس بن عبد مناف من النجاشى لقريش عندما نشطت تجارة مكة الخارجية فى عهد بنى عبد مناف ؟ أم أنها تضرب فى الماضى إلى ما

---

(١) وهم الذى ذكرهم القرآن الكريم فى قوله تعالى : { قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ } سورة البروج ، الآيتان : ٤ ، ٥ .

(٢) تاريخ الإسلام السياسى - حسن إبراهيم (٢٩/١).

(٣) النجاشى : اسم لكل من ملك الحبشة ، كما يقال : قيصر لمن ملك الروم ، وكسرى لمن ملك فارس، وفرعون لمن ملك مصر ، وهكذا (البداية والنهاية - ابن كثير ٧٥/٤).

هو أبعد من هذا بقليل أو كثير ؟ وسواء صح هذا أو ذاك ، فإن الحبشة كانت أحد أسواق قريش التجارية منذ هذه المعاهدة ، وأن العلاقة كانت طيبة بينها وبين مكة حين ظهر فيها الإسلام ، عندما اختارها النبى ﷺ مهاجرا للمستضعفين والمضطهدين من أصحابه .

على أن هذه العلاقة قد مرت بفترة بالغة الحرج ، وذلك عندما اعتزم أبرهة وضع يده على الطريق التجارى بين مكة والشام ، وتخريب مكة من أجل ذلك ، وهدم البيت الذى حج إليه العرب فيها .

ويبدو أن هذا الإجراء الذى اتخذه أبرهة لم يكن من تدبيره وحده ، وإنما كان أمرا اتفق عليه النجاشي وقيصر ، ليصبح هذا الطريق الحيوى تحت سيطرة البيزنطيين والأحباش اللذين كانا فى ذلك الوقت حليفين ضد الدولة الفارسية .

وعلى أية حال فقد كتب أبرهة إلى قيصر الروم فى ذلك الوقت أنه يريد بناء كنيسة بصنعاء ، وسأله العون، فأرسل إليه الصناع ، وأمده بالفسيفساء والرخام، فلما تم بناؤها ، كتب أبرهة إلى النجاشى أنه يريد أن يصرف إليها حجاج العرب ويثرى تجارة قريش إلى صنعاء ، فأثار ذلك حفيظة العرب ، فخرج رجل من بنى مالك أبن كنانة حتى قدم اليمن ، ودخل الكنيسة ، وعبث بأثاثها ، وانتهك حرمتها بأن بال فيها ، فغضب أبرهة واقسم ليهدمن الكعبة .

وجرد جيشا عظيما من الأحباش ، سير أمامه الفيلة ، ويمم شطر الكعبة ، وعسكر بقرب مكة فى مكان يقال له المغمس - فى طريق الطائف - حيث دارت المناوشات بين مكة والأحباش .

روى الطبري[1]: أن أبرهة لما نزل المغمس بعث رجلا من الحبشة يقال له : الأسود بن مقصود ، على خيل له ، حتى انتهى إلى مكة ، فساق إليه أموال أهلها من قريش وغيرهم ، وأصاب مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، فهمّت قريش وكنانة وهذيل ، ومن كان بالحرم من سائر الناس، بقتاله ، ورأوا أن لا طاقة لهم به .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك - ابن جرير الطبرى (١١١/٢) .

وبعث أبرهة حناطة الحيرى إلى مكة ، وقال له : سل عن سيد هذا البلد ، ثم قال له : إن الملك يقول لكم : إنى لم آت لحربكم ، إنما جئت لهدم البيت ، فإن لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم ، فإن لم يرد حربى فأتنى به ؛ فلما دخل أرناط مكة سأل عن سيد قريش وشريفها ، فقيل له : عبد المطلب ، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة .

فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله وبيت خليله إبراهيم ؛ فقال له حناطة : انطلق إلى الملك ، فإنه قد أمر أن آتيه بك .

فانطلق معه عبد المطلب ، وانطلق معه بعض بنيه حتى أتى العسكر ، فلما تقابل معه أبرهة قال لترجمانه : حاجتى إلى الملك أن يرد على مائتى بعير أصابها لى .

فلما قال له ذلك ، قال أبرهة لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتنى ، أتُكلمنى فى مائتى بعير قد أصبتها لك ، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه ؟!! لا تكلمنى فيه ؟!

قال له عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربا سيمنعه ، ثم عرض على أبرهة ثلث أموال تهامة ، على أن يرجع عن مكة ولا يهدم البيت ، فأبى ، فخرج عبد المطلب حانقًا ، وجاء إلى الكعبة ومعه جماعة من قريش وقال :

يا رب لا أرجو سواكا .·. يارب فامنع منهموا حماكا

إن عدو البيت من عاداكا .·. امنعهم أن يخربوا قراكا

صمم أبرهة على دخول مكة وهدم الكعبة ، فأرسل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر فى منقاره ، وحجران في رجليه ، أمثال الحمص والعدس ،لا تصيب أحداً منهم إلا هلك ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ (١) .

ولما ذاع نبأ أصحاب الفيل بين العرب زاد احترامهم للحرم ، وقالوا : أهل الله قاتل عنهم ، وكفاهم كيد عدوهم .

ولم تكن هذه الحرب سوى سحابة عكرت صفو العلاقة بين مكة والحبشة حينًا ، ثم ما لبثت أن انقشعت وعاد الأمر بينهما لما كان عليه من المودة والاحترام المتبادل.

---

(١) سورة الفيل ، الآية : ٥ .

ثانيا : الدولة الإسلامية والأحباش :

ولما اشتد أذى قريش للمسلمين بمكة فى السنة الخامسة من الهجرة النبوية ، أشار عليهم النبى ﷺ بالهجرة ، بعدما رأى ما يصيبهم من البلاء وأنه ليس بمستطيع أن يمنعهم مما هم فيه ، فقال لهم :« إن بأرض الحبشة ملكا لا يظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا ، مما أنتم فيه »[١]، فكان أن خرج المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة ، مخافة الفتنة ، وفرارا إلى الله عز وجل بدينهم ، فكانت أول هجرة فى الإسلام .

وكان أول من خرج من المسلمين : عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله ﷺ [٢]، وتبعه الناس فخرج أحد عشر رجلا وأربع نسوة متسللين حتى جاءوا إلى الشعيبة[٣]، منهم الراكب ومنهم الماشى ، فوقفت لهم ساعة جاءوا سفينتان للتجارة ركبوا فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار ، وخرجت قريش فى آثارهما حتى البحر حيث ركبوا ، فلم يدركوا منهم أحدا .

ثم خرج جعفر بن أبى طالب ومعه امرأته أسماء بنت عميس فى زمرة ثانية من المهاجرين ، وتتابع المهاجرون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة .

ويقال : إن أول من خرج أبو طالب بن عمرو بن عبد شمس[٤]، وأن عدد الذين خرجوا كان عشرة[٥] ـ وقال آخرون : بل كانوا اثنين وثمانين أو ثلاثة وثمانين[٦] ـ وسواء صح هذا العدد أو ذاك ، فهو ليس بالقليل ، حتى ولو كانوا ثلاثة من الرجال، إذا قيس ذلك بعدد المسلمين فى ذلك الوقت ، والذين لم يكونوا يتعدون المائة.

ثم إن تحريض الرسول ﷺ أصحابه على الهجرة إلى الحبشة، كان ـ فيما يبدو ـ حركة بارعة أراد بها النبى ﷺ استدرار العاطفة العربية الجياشة إزاء الأهل

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٣/ ٧٠) .

(٢) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/ ٤٥) ، البداية والنهاية ـ ابن كثير (٣/ ٦٤) .

(٣) الشعيبة : مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز وكان مرفأ مكة وسفنها قبل جدة . (معجم البلدان ـ ياقوت الحموى ٣/ ٣٥١).

(٤) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (١/ ٤٥) ، البداية والنهاية ـ ابن كثير (٣/ ٦٤).

(٥) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٣/ ٦٥).

(٦) نفس المصدر السابق (٣/ ٦٤).

والأقرباء أحسن استغلال ، فتراود قريش نفسها فى أمر أهاليهم الذين تركوا ديارهم وهاجروا ، فربما يمتنعون عن إيذائهم ، فإنه وإن لم يكن ذلك قد تحقق فعلا، إلا أن تلك الهجرة كان لها أثر كبير فى قلوب القرشيين ، إذ خشيت قريش أن يفسد هؤلاء المسلمون ما بينهم وبين النجاشى ، فيحرم عليهم الاتجار فى بلاده ، وأن يبشروا بالإسلام ، ويجدوا من الحبشة الأرض التى تحميهم والجند الذى يعينهم على فتح مكة ، إذا هم شاءوا ذلك وتمهد لهم السبيل إليه تماما ، كما فعل الأحباش مع مسيحيي اليمن ضد مضطهديهم من يهود حمير وملكهم يوسف ذى نواس ، مما أدى إلى استيلاء الحبشة على بلاد اليمن سنة ٥٣٤م[١].

وقد عاش المهاجرون فى أرض الحبشة من رجب سنة خمس من البعثة النبوية الشريفة إلى شوال من نفس السنة ، ثم عادوا إلى مكة ، لما بلغهم إسلام أهلها بسبب أن النبى ﷺ جلس يوما مع المشركين وأنزل الله عليه : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾[٢]، يقرأها عليهم حتى ختمها وسجد ، فسجد من هناك من المسلمين والمشركين[٣]، وإنما كان لذلك سبب ذكره كثير من المفسرين عد قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[٤]. وذكروا قصة الغرانيق[٥].

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى - حسن إبراهيم (١/٢٩).

(٢) سورة النجم ، الآيتان : ١ ، ٢ .

(٣) البداية والنهاية - ابن كثير (٣/٨٨).

(٤) سورة الحج ، الآية : ٥٢ .

(٥) قصة الغرانيق : هى تلك القصة التى أولع بذكرها بعض المفسرين ، فهى باطلة مردودة ، وهى : أن رسول الله ﷺ قرأ سورة : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ بمحضر من المشركين والمسلمين ، فلما بلغ : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ ألقى الشيطان على لسانه : « تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهم لترتجي» ففرح بذلك المشركون ، ولما انتهى من السورة سجد وسجد معه المشركون ... إلخ.
قال ابن العربى : إن جميع ما ورد فى هذه القصة باطل لا أصل له . وقال ابن إسحاق : هى من وضع الزنادقة . وقال البيهقى : رواتها مطعون فيهم . وقال ابن كثير : ذكر كثير من المفسرين قصة الغرانيق، وهى روايات مرسلات ومنقطعات لا تصح . =

والمقصود أن ناقل الخبر لمهاجرى الحبشة لما رأى المشركين قد سجدوا متابعة لرسول الله ﷺ ، اعتقد أنهم قد أسلموا واصطلحوا معه ولم يبق نزاع بينهم ، فطار الخبر بذلك وانتشر حتى بلغ مهاجرة الحبشة بها ، فظنوا صحة ذلك ، فأقبل منهم طائفة كان عددهم ثلاثة وثلاثين[١] مع بعضهم نساؤهم ، ولم يدخل أحد منهم مكة إلا بجوار أو مستخفيا[٢] ، لكنهم ما أن وصلوها حتى تبين لهم أن حدة العداء بين المسلمين والمشركين تهدأ ، وأن قريشا على ما هى عليه من عنت وتعسف ، فسمح لهم النبى ﷺ بالخروج ثانية ، فعاد بعضهم إلى الحبشة ، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلا ، وإحدى عشرة امرأة قرشية ، وسبعا غير قرشيات ، ونزلوا جميعا فى جوار النجاشى ، وأمنوا على دينهم ، وعبدوا الله لا يؤذيهم أحد ولا يسمعون ما يكرهون .

وقد أحست قريش عقب هجرة المسلمين إلى الحبشة أن اختيار المسلمين للحبشة سببه استعداد النجاشى لإكرامهم ، وآمنهم على نفوسهم ودينهم فى مغتربهم ، فقررت أن تكيد للمغتربين لتحرمهم هذا الملجأ ، فائتمروا فيما بينهم على أن يبعثوا إلى النجاشى رجلين من رجالهم الأشداء ذوى الرأى ، وأن يهدوا له هدايا ثمينة مما يُستطرف من متاع مكة ، وكانت الجلود من أحسن بضاعتها ، فجمعوا له مجموعة من أفخر الجلود ، ولم يتركوا بِطْرِيقًا من بطارقته إلا أعدوا له هدية .

ثم بعثوا بذلك عبدد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص[٣] ، وقيل : بعثوا عمرو وعمارة أبن الوليد[٤] ، وقيل : إن بعثتهم عمرو بن العاص مرتين ، مرة مع

= وقال القاضى عياض : هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه أحد بسند متصل سليم، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل سليم وسقيم .

ومما يدل على بطلان هذه القصة قوله تعالى فى نفس السورة : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ﴾ فكيف نطق المعصوم بمثل هذا الذى يزعمونه ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم ، وانظر الرد القاطع فى تفسير الفخر الرازى .

(صفوة التفاسير ـ الصابونى ـ تفسير الآية ٥٢ من سورة الحج) .

(١) السيرة النبوية ـ ابن كثير (٨٩/٣).

(٢) السيرة النبوية ـ ابن هشام (٢٢٩/١).

(٣) إمتاع الأسماع ـ المقريزى (٤٦/١).

(٤) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٦٩/٣).

عمارة أبن الوليد ، ومرة مع عبد الله بن أبى ربيعة[١].

وفى بلاط الملك راح عمرو وصاحبه يرمون المسلمين بالسفاهة والمروق عن دين قومهم ، فأشار عليه بطارقته أن يردهم إليهم ، فقال : لا والله حتى اسمع كلامهم، واعلم أى شىء هم عليه ؟

فلما دخلوا عليه قام جعفر بن أبى طالب فحدث النجاشى عن الإسلام ، وذكر له ما لقيه هو ورفاقه من أذى قريش واضطهادها ، وقرأ عليه صدرا من سورة مريم ، فبكى النجاشى حتى اخضلت لحيته[٢]، وبكت أساقفته ، ثم قال : إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التى جاء بها موسى ، انطلقوا راشدين ، لا والله لا أردهم عليكم ولا أنعمكم عينا .

فغاظ ذلك عمرو صاحبه ، فلما كان الغد دخلوا على النجاشى ، فقال عمرو : أيها الملك ، إنهم يقولون فى عيسى قولا عظيما ، فأرسل إليهم فسلهم عنه .

فبعث إليهم النجاشى ، فدخلوا عليه وعنده بطارقته ، فقال : ما تقولون فى عيسى ابن مريم ؟ فقال له جعفر : (نقول هو عبد الله ورسوله ، وروحه ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول)، فدلى النجاشى إلى الأرض ، فأخذ عودا بين أصبعيه ، فقال : ماعدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العويد ، ثم قال لهم : اذهبوا فأنتم آمنون .

ورد على عمرو وصاحبه هداياهما ، وقال : فوالله ، ما أخذ الله منى الرشوة حين رد علىّ ملكى ، ولا أطاع الناس فىّ فأطيع الناس فيه[٣]، رُدّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها ، واخرجا من بلادى .

---

(١) إمتاع الأسماع - المقريزى (٤٦/١).

(٢) اخضلت : ابتلت بالدمع .

(٣) قول النجاشى : فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى فآخذ الرشوة فيه ، ولا أطاع الناس فى فأطيع الناس فيه ، له قصة ذكرها ابن كثير : أن أبا النجاشى كان ملك قومه ، وكان له أخ ، له من صلبه اثنا عشر رجلا ، ولم يكن لأب النجاشى ولد غير النجاشى ، فادارت الحبشة رأيها بينها ، فقالوا : لو أنا قتلنا أبا النجاشى وملكنا أخاه ، فإن له اثنا عشر رجلا من صلبه يتوارثون الملك ، لبقيت الحبشة عليهم دهرا طويلا لا يكون بينهم اختلاف ، فعدوا عليه فقتلوه وملكوا أخاه ، فدخل النجاشى بعمه حتى غلب عليه فلا يدبر أمره غيره ، وكان لبيبا حازما من الرجال ، فلما رأت الحبشة مكانه من عمه قالوا : قد غلب هذا الغلام على أمر عمه ، فما نأمن من أن يملكه علينا ، وقد عرف أنا قتلنا أباه ، فلئن =

فخرجا ولم يدركا ما طلبا من أصحاب رسول الله ﷺ ، وردهم النجاشى بما يكرهون .

وهز موقف النجاشى هذا أركان قريش ، ونهنه من كبريائهم، وراحت الأحداث تجرى لصالح محمد ﷺ ، فقد أخذ المسلمون يزيدون ويقوى ساعدهم ، وأسلم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب ، فزادهم قوة إلى قوتهم ، وجعلهم يخرجون إلى الكعبة ويصلون فيها مجاهرين أمام أندية قريش وعلى مرأى ومسمع من طغاتها وكبرائها(١).

ـ وفى سنة ست من الهجرة بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى وكتب إليه كتابين ، يدعوه فى إحدهما إلى الله عز وجل ويؤيده بشأن جعفر وأصحابه(٢)، وجاء فى كتاب النبى ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاش الأصحم ملك

= فعل لم يدع منا شريفا إلا قتله فكلموه فيه فليقتله أو ليخرجنه من بلادنا ؛ فمشوا إلى عمه فقالوا : قد رأينا مكان هذا الفتى منك وقد عرفت أنا قتلنا أباه وجعلناك مكانه ، وإنا لا نأمن أن يملك علينا فيقتلنا ، فإما أن تقتله وإما أن تخرجه من بلادنا ؛ قال : ويحكم ! قتلتم أباه بالأمس وأقتله اليوم ؟ بل أخرجه من بلادكم ؛ فخرجوا به فوقفوه فى السوق ، وباعوه لتاجر من التجار ، قذفه فى سفينة بستمائة درهم أو سبعمائة ، فانطلق به ، فلما كان العشى هاجت سحابة من سحائب الخريف ، فخرج عمه يتمطر تحتها ، فأصابته صاعقة فقتلته ، ففزعوا إلى ولده ، فإذا هم محرقون ـ قليلوا العقل ـ ليس فى أحد مهم خير ، فمرج على الحبشة أمرهم ، فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله إن ملككم الذى لا يصلح أمركم غيره للذى بعتم الغداة ، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه ، قبل أن يذهب ؛ فخرجوا فى طلبه فأدركوه فردوه ، فعقدوا عليه تاجه ، وأجلسوه على سريره ، وملكوه ؛ فقال التاجر : ردوا علىّ مالى كما أخذتم منى غلامى ، فقالوا : لا نعطيك ، فقال : إذا والله لأكلمنه ، فمشى إليه فكلمه ، فقال : أيها الملك ، إنى ابتعت غلاما فقبض منى الذى باعوه ثمنه ، ثم غدوا على غلامى فنزعوه من يدى ، ولم يردوا على مالى ، فكان أول ما خبر به من صلابة حكمه وعدله أن قال : لتردن عليه ماله ، أو لتجعلن يد غلامه فى يده فليذهبن به حيث شاء ؛ فقالوا : بل نعطيه ماله ، فأعطوه إياه فلذلك يقول النجاشى : ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى ، وما أطاع الناس فى فأطيع الناس فيه .(البداية والنهاية ـ ابن كثير ٣/٧٣).

(١) انظر البداية والنهاية ـ ابن كثير (٣/٧٦) ، تاريخ الكامل ـ ابن الأثير (٣/٨٣٣) ، السيرة النبوية ـ ابن هشام (١/٣٦٤).

(٢) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (١٠/ ٢٥٨).

الحبشة : سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسي، فخلقة من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ونفخه . وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وإن تتبعنى فتؤمن بى وبالذى جاءنى فإنى رسول الله ، وقد بعثت إليك ابن عمى جعفرا ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاءوك فاقْرِهمْ ، ودع التجبُّر ، فإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت فَاَقبلوا نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى »[١] . وفى الكتاب الآخر : يأمره النبى ﷺ أن يزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب ، وكانت قد هاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش الأسدى فتنصر هناك ومات[٢].

وأمره رسول الله ﷺ فى الكتاب بأن يبعث إليه بمن قبله من أصحابه فأخذ النجاشى كتاب رسول الله ﷺ فوضعه على عينيه ، ونزل من سريره فجلس على الأرض تواضعا ، ثم أسلم وشهد شهادة الحق ، وقال : لو كنت استطيع أن آتيه لأتيته[٣].

وكتب إلى رسول الله ﷺ بإجابته وتصديقه وإسلامه ، وجاء فى رده : « بسم الله الرحمن الرحيم . إلى محمد رسول الله من النجاشى الأصحم بن أبجر : سلام عليك يا نبى الله من الله ورحمة الله وبركاته ، لا إله إلا هو الذى هدانى إلى الإسلام ، فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض ، إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا وقربنا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله صادقا ومصدقا ، وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين ، وقد بعثت إليك يا نبى الله بأريحا بن الأصحم بن أبجر ، فإنى لا أملك إلا نفسى ، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله ، فإنى أشهد أن ما تقول حق »[٤].

وقام النجاشى فجهز سفينتين[٥] ، وحمل فيهما جعفر وأصحابه من أهل مكة

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٣/٨١).

(٢) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (١/٢٥٩).

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٣/٨١).

(٥) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس (٢/٢٦٥).

ممن تأخروا فى الحبشة ، وكانوا ستة عشر رجلا معهم نساؤهم[١]، وبصحبتهم نساء من نساء من هلك من المسلمين[٢].

كما قدم معهم أهل السفينة اليمنية أصحاب أبى موسى الأشعرى وقومه من الأشعريين ، وكانوا باليمن فخرجوا مهاجرين إلى النبى ﷺ ، فألقتهم سفينتهم إلى النجاشى بالحبشة ، فأقاموا مع جعفر وأصحابه حتى قدموا جميعا ، وقال : إنه بعث ابنه فى ستين من الحبشة فى سفينة ، فغرقت بهم[٣].

فلما قدم جعفر بن أبى طالب من أرض الحبشة ، تلقاه رسول الله ﷺ ، فلما نظر إليه حجل[٤] إعظاما لرسول الله ﷺ ، فقبل رسول الله ﷺ عينيه والتزامه ، وقال : «والله ما أدرى بأيهما أفرح ، بفتح خيبر ، أم بقدوم جعفر »[٥]؟

وتوفى النجاشى فى رجب سنة تسع بالحبشة[٦]، فنعاه النبى ﷺ فى اليوم الذى مات فيه ، وخرج بالمسلمين إلى المصلى فصف بهم وكبر أربع تكبيرات[٧].

وقال بعض العلماء : إن النبى ﷺ إنما صلى عليه لأنه كان يكتم إيمانه من قومه، فلم يكن عنده يوم مات من يصلى عليه ، فالغائب إن كان قد صُلّى عليه ببلده لا تشرع الصلاة عليه ببلد أخرى .

وأود القول : بأنه على الرغم من تأكيد الروايات العربية أن النجاشيي قد أسلم ، ورغم مظاهر حسن الصلة التى نشأت ودامت بينه وبين محمد ﷺ طوال حياته ، ورواية البخارى : أن النبى ﷺ قال حين مات النجاشى : « مات اليوم رجل صالح ، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة »[٨].

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٢٠٧/٤).

(٢) نفس المصدر السابق (٢٠٦/٤).

(٣) المغازى للواقدى (٢٢٤/٣).

(٤) حجل : مشى على رجل واحدة .

(٥) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٢٠٧/٤).

(٦) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس (٢٦٥/٢).

(٧) البداية والنهاية ـ ابن كثير (٧٥/٣).

(٨) نفس المصدر السابق .

أقول : على الرغم من كل ذلك ، فقد روى ابن جرير الطبري[1] وابن الأثير[2] : أن الحبشة كانت قد أغارت على طرف من بلاد المسلمين ، وذلك فى زمن عمر ابن الخطاب ، فبعث إليهم علقمة بن مجزز المدلجى فى نفر من المسلمين فأصيبوا ، فجعل عمر على نفسه ألا يحمل فى البحر أحدا للغزو. كما روى ابن سعد كذلك تلك الحادثة ، وقال إنها كانت فى عهد النبى ﷺ ، فى ربيع الآخر سنة تسع من الهجرة[3].

وسواء كانت تلك الحادثة فى عهد النبى ﷺ أو كانت فى عهد عمر ابن الخطاب، فإن لها ـ فى رأيى ـ دلالتين :

أولاهما : احتمال أن يكون من فعل ذلك ليس هو النجاشى صاحب جعفر، بل كان نجاشيا آخر ، على اعتبار ان اسم النجاشى إنما هو لقب لكل من ملك الحبشة ، ولس بالضرورة أن يكون هو النجاشى المسلم صاحب جعفر .

أخراهما : احتمال عدم إسلام النجاشى ، إن صحت تلك الحادثة .

تلك هى هجرة المسلمين المبكرة إلى أرض الحبشة فرارا بدينهم إلى الله عز وجل وقد يكون من المناسب أن نشير إلى عدة أوجه للمقارنة بين هجرة المسلمين إلى الحبشة، والهجرة الأم إلى يثرب كنوع من الربط بينهما ، حيث أن هناك أكثر من وجه للمقارنة بين الهجرتين :

فهجرة الحبشة كان الدافع إليها مخافة الفتنة والفرار إلى الله بدينهم ، ولم يكن الدافع هو القيام بنشر الدعوة المحمدية ، لأن بلاد الحبشة كانت فى ذلك الوقت تدين بالمسيحية ، ولن تقبل المسيحية هناك أن يزاحمها الدين الجديد ، حتى ولو كان على رأس الحبشة ملك لا يُظلم عنده أحد .

وهذا الذى دفع المسلمين إلى الهجرة الحبشية لم يقصد به التحدى لقريش بل ربما قرت أعين قريش بهذه الهجرة مادامت تُنقص من عدد المؤمنين بمكة ، وإن

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ـ ابن جرير الطبرى (١/ ٢٣١).

(٢) تاريخ الكامل ـ ابن الأثير (٢/ ٢٤٠).

(٣) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد (١١٧/٢).

كانت قد تظاهرت بعد ذلك بعدم رضاها عن هذه الهجرة وإعلان سخطها عليها ، حتى بعثت وفدا مندوبا عنها لمفاوضة ملك الحبشة فى تسليم أولئك الفارين ـ على حد زعمهم ـ وفشل الوفد فى مهمته .

والحقيقة أن قريشا لم تكن تهمها الهجرة إلى الحبشة ، لأن الحبشة تبعد كثيرا عن مكة ، وقد عرفت قريش أن المهاجرين من المسلمين سوف تنقطع أخبارهم ويفنون هناك الواحد تلو الآخر ، دون أن يتركوا للدعوة الإسلامية أثراً يمكن أن يكون خطرا على قريش فى المستقبل .

والهجرة إلى الحبشة حققت جزءا من التحول والانطلاق للدعوة الإسلامية ، لأن النتيجة التى كان يرجوها المسلمون المهاجرون من هجرتهم إلى الحبشة هى أن يفروا بدينهم إلى أرض يطمئنون عليها ويستقرون بها ، ولا يتعرضون لبطش ولا لأذى ، حتى إذا قُدّر لإخوانهم فى مكة أن يفنوا عن آخرهم حملوا هم بعدهم لواء الدعوة ، أما الهجرة الكبرى إلى يثرب ، فقد كان الفرار بالدين أحد الأسباب ، لكن ليس الدافع الأساسى ، فالدافع الأساسى هو التحول والانطلاق ، حيث يتيسر للمهاجرين أن يؤسسوا فى مهجرهم وطنا لهم ، فقد كان الإسلام طوال ثلاثة عشر عاما دينا بلا وطن، والمسلمون شعبا بلا دولة .

والذين هاجروا إلى الحبشة على الرغم من أنهم لم يهاجروا من وطنهم إليها إلا مُكرهين ، إلا أن إحساسهم بالأسى على ترك وطنهم لم يفتر أبدا حتى وهم مستقرون فى مهجرهم آمنين .

* * *



خاتمــة

إن أول آية نزلت من القرآن الكريم إنما هى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾(١)، ولقد كانت هذه الآية الكريمة بوصفها ومفهومها وجوّها شعاراً عاما ، وتوجها شاملا ، فما كانت تعنى بروحها القراءة فحسب وإنما كانت تعنى أنه - منذ هذه اللحظة - يجب أن يكون كل أمر باسم الله، فعلاً كان هذا الأمر أو تركا .

واستجاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه استجابة كاملة للتوجيه الإلهى ، وجعل من كل أعمال الحياة عبادة ، إذ كان يعملها باسم الله : لقد جعل صلاته ونسكه ، وحياته كلها ، بل ومماته أيضا ، لله رب العالمين .

ولقد جعل كلامه لله سبحانه وتعالي ، وإذا ما استحالت الأقوال والأفعال إلى عبادة ، فقد استحالت إلى قوة ، ولقد تحدث النبى ﷺ عن هذه الاستجابة إذ يقول: « والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأُقتل ، ثم أغزو فأُقتل ، ثم أغزو فأُقتل » .

وهو القائل : « من مات ولم يغز ، ولم يُحدّث نفسه بالغزو ، مات على شعبة من النفاق » .

إن النبى العابد هو نبى الجهاد ، وما كان الجهاد قط فى الإسلام إلا فى سبيل الله ، وليس من شأننا أن نعيد الحديث عن الغزوات سردا وترتيبا وتفصيلا ، وإنما نذكر منها عِبَراً :

لقد قاد الرسول ﷺ ثمانٍ وعشرين غزوة خلال سبع سنين بعد هجرته إلى المدينة، فقد خرج إلى غزوة « ودان » وهى أول غزوة قادها الرسول ﷺ بنفسه الكريمة فى صفر من السنة الثانية للهجرة ، وكانت غزوة تبوك آخر غزواته فى رجب من السنة الثامنة ، وقد غزا النبى ﷺ بنفسه فى تسع من تلك الغزوات ،

(١) سورة العلق ، الآية ١ .

هى: بدر ، وأحد ، والخندق ، وقريظة ، والمصطلق ، وخيبر ، وفتح مكة ، وحُنين ، والطائف .

بينما فر المشركون فى تسع غزوات منها بدون قتال .

ولم يتراجع النبى ﷺ فى غزوة قط ، إذ كان الأبطال والصناديد من المهاجرين والأنصار يفرون أحيانا ، ولكنه صلوات الله وسلامه عليه كان يثبت ثبات الجبال الراسيات ، لا يتراجع عن موقفه ، ولم يتزحزح عن مكانه فى غزوة أحد التى غُلب فيها المسلمون ، وكان المشركون فيها يودون ـ بكل ما استطاعوا ـ أن يقضوا عليه، صلوات الله وسلامه عليه .

ووقف ثابتا فى غزوة حنين وقد فر المسلمون على كثرتهم إذ ذاك ، وكيف يمكن لأكمل رجل فى الوجود أن يفر وأن يتراجع وهو أوثق الناس بالله وبرسالته .

لقد كان واضحا من صفاته صلوات الله وسلامه عليه ما قاله على بن أبى طالب ـ وهو من هو بطولة وفروسية ـ : « كنا إذا حمى الوطيس اتقينا برسول الله ﷺ ، فيكون أقربنا إلى العدو » .

وكان صلوات الله وسلامه عليه ، مع التجائه إلى الله تعالى ، يدعوه ويستغيث به، ويستنجزه وعده بالنصر بعد أن يحكم الأمر إحكاما ، بحيث لا يدع فيه ثغرة، وهكذا كان أمره فى جميع أموره ، لقد نظم الجيش فى غزوة بدر تنظيما محكما ، ثم اتجه إلى الله يدعوه ، وكان دائما متفائلا ، حتى ولو كان العدو عشرة أمثال المسلمين ، لقد كان العدو فى غزوة بدر ثلاثة أمثال المسلمين ، فهزمهم المسلمون بإذن الله .

وكان انهزام المسلمين فى غزوة أحد شذوذا عن القاعدة ، وما حدث ذلك إلا لأنهم خالفوا ـ متأولين ـ أوامر رسول الله ﷺ ، غير أن تفاؤله صلوات الله وسلامه عليه لم يفارقه لحظة ، إذ أنه بعد أن انهزم المسلمون فى غزوة أحد ، أمرهم صلوات الله وسلامه عليه بلم شعثهم ، وتضميد جراحهم ، والاستعداد فورا لخوض المعركة من جديد ، واتجه بهم مباشرة إلى حمراء الأسد، ولم تكن جراحهم قد اندملت بعد .

ومن ذلك كذلك : أنه فى غزوة الأحزاب ، وقد تجمع الشرك من جميع أنحاء

الجزيرة ، يسانده اليهود والغادرون ، ليقضوا على الإسلام فى المدينة ، ليقضوا عليه دينا ، وليقضوا عليه دولة ، وليقضوا عليه عقيدة ، وليقضوا عليه رجالا ، وقام المسلمون يعملون فى الخندق حماية لأنفسهم ، ومنعا من وصول العدو إليهم، فى هذه اللحظة الحرجة ، نجد أنه قد أشاع النبى ﷺ روح التفاؤل والثقة والاطمئنان فى نفوس المسلمين حتى جاءهم نصر الله ، رغم سخرية المنافقين والوثنيين الذين قالوا : إن محمداً يعدهم ويمنيهم بينما هم لا يأمنون على أنفسهم .

هذا التفاؤل ، وهذه الثقة فى الله، لم تفارق الرسول ﷺ قط ، من بعثته إلى نهاية حياته الشريفة .

وقد ارتبطت أحداث الفتح الأعظم (فتح مكة) بآيات مباركات ، نزلت على النبى ﷺ فى أثناء عودته إلى المدينة بعد صلح الحديبية ، تسلية للمسلمين ، إذ حزنوا لصدهم عن دخول مكة حاجين ومعتمرين ، مع أنهم كانوا على أبوابها ، فنزلت تلك الآيات تشير إلى فتح مكة وتبشر به ، قد أوحاها الله إلى رسوله ليلا، فلما أصبح صلوات الله وسلامه عليه قال : «لقد نزلت على الليلة سورة هى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس» ثم قرأ قوله تعالي: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[١].

هذه الآيات الكريمة لا تكاد تبين عن فتح مادى حربى ، وإنما تشير إلى الآفاق العليا من الرضوان الإلهى ، فهى وثيقة تسجل الثقة المطلقة التى شملت الماضى والحاضر والمستقبل ، فقد سَمَتْ بالرسول ﷺ إلى مستوى الرضا عن كل ما يأتى وما يدع .

إذ صمم رسول الله ﷺ فى عزم لا يلين على أن يمحو الشرك وآثاره من مكة معقله الحصين ، وأن يطهر البيت من جديد للطائفين والعاكفين والركع السجود .

وفى هذا اليوم تملكت أريحية العفو رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ،

---

(١) سورة الفتح ، الآيات : ١ ـ ٣ .

فإنه حينما اجتمعت قريش إليه بعد الفتح ، نظر بعضهم إلى بعض ، فإذا برسول الله ﷺ يخاطبهم : « يا معشر قريش ، ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ » قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، فقال وهو يبكى : «اذهبوا فأنتم الطلقاء ، أقول لكم ما قاله أخى يوسف لإخوته : ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ »(١).

لقد كانت مبادئ الإسلام واضحة ، فى أن أى قتال إنما هو لردع العدوان ، ويوجه القرآن الكريم بأن على المسلمين أن يلجأوا للسلم إذا لجأ إليه أعداؤهم ، قال تعالى : ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾(٢) وقال : ﴿ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾(٣).

وقد سار النبى ﷺ على هدى هذه الآيات الكريمة ، فنراه يخرج لملاقاة الروم عندما بلغه أن جموعهم تجمعت على أطراف الجزيرة ، وأنها تريد الهجوم والعدوان ، ولما وصل إلى تبوك ووجد أن جيوش الروم تراجعت ، لم يفكر فى مهاجمتهم ، وإنما عاد أدراجه إلى المدينة .

كما أنه لا توجد آية واحدة فى القرآن الكريم أو حادثة واحدة فى تاريخ صدر الإسلام تشير إلى أن القتال فى الإسلام إنما يكون لحمل الناس على اعتناقه ، وإنما ينحصر سبب القتال فى رد العدوان ، وحماية الدعوة وحرية الدين ، بينما كانت قريش تحارب من دخل فى الإسلام ، قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾(٤).

وكذلك فإن المقصود بالكفار فى قوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ إنما هم المعتدون منهم ، بدءا بمشركى الجزيرة العربية ، ثم الانتقال عنهم

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ٩٢ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٦١ .

(٣) سورة النساء ، الآية : ٩٠ .

(٤) سورة البقرة الآية : ١٩٣.

إلى غيرهم ، الأقرب فالأقرب ، حتى يصلوا إلى الأبعد فالأبعد .

ومثله كلمة « الناس » فى الحديث الشريف : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله » .

وهذا ما حدث فى عصر النبوة فى أعوام المدينة العشرة ، فقد كانت سائر غزواته وسراياه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ دفاعا عن العقيدة الإسلامية ودولتها الناشئة ، تأمينا لهما ضد طغيان الشر التى لم يهدأ لحظة واحدة للانقضاض على العقيدة والدولة معا ، والإحاطة بهما .

إن قريشا التى أعلنت على الدعوة واتباعها خلال ثلاثة عشر عاما بمكة حربا شعواء لا هوادة فيها ، لم ترفع راية الاستسلام عندما كتب الله النصر للمسلمين بالهجرة من مكة إلى المدينة ، بل حتى لم تفكر فى أن تقف من الدعوة وأتباعها موقف الحياد والمهادنة ، فضلا عن التعايش السلمى معهما ، لكنها أخذت تستعدى القبائل العربية كلها لتقف إلى جانبها فى الانقضاض على الدعوة الجديدة ودولتها الناشئة .

ثم إن الدعوة الإسلامية التى تحمل منهجا إصلاحيا شاملا ، أليس من حقها أن تتحرك لتنشر مبادئها فى كل مكان ، وإذا تصدى لها من يصر على إعاقة مسارها ، أفليس من حقها أن تتصدى له حتى يفسح لها الطريق ؟ .

وهل تُلام الدعوة الإسلامية إذا هى سيرت قواتها إلى دولتى الفرس والرومان المتخامتين لدولتها فتضع حدا للأوضاع الجائرة هناك ، والمظالم التى قصمت ظهور شعبيهما ، والفساد الذى استشرى حتى عصف بسائر القيم الإنسانية ؟ أنسينا أن للدعوة الإسلامية رسالة ليست خاصة باتباعها وحدهم ، بل هى رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيرا ونذيرا ؟ .

* أما عن مكانة الناحية الاقتصادية فى القتال والفتح ؟ فنقرر : بأن الرغبة فى الحصول على المال لم تكن أبدا ذا مكانة لدى المسلمين فى جهادهم بأى حال من الأحوال، ولم يقل مُنصف أن المسلمين الأولين كانوا يحاربون طمعا فى مال أو ثراء،

إذ لم يتحقق لهم ذلك طوال سنوات جهادهم ، ولا حتى فى مكة والدعوة فى مهدها الأول، يوم دفعت قريشا أبا طالب ليعرض على محمد ﷺ المال والمُلْك والجاه ليكف عن دعوته، فصاح : « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته » .

وعلى العكس من ذلك ، فقد كان النبى ﷺ وأصحابه يفقدون أموالهم ، وينزلون من صفوف الأغنياء إلى صفوف الفقراء .

وكان العهد بالحاكم أن يجمع الأموال ويزيد فى ثروته ، بينما محمد ﷺ - وكان بعض العرب يسمونه ملك الملوك ، ويسميه اليهود ملك العرب - كان يرقّع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويبيت على الطّوى ، وكان له مال وغنى بعد أن تزوج خديجة : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾[1]، لكنه لم يضف شيئا إلى هذا المال ، ولم يحتفظ به ، بل فقده كله ، ولما مات كان مَدينًا ، قالت عائشة رضى الله عنها : « ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين ، حتى قُبض رسول الله ﷺ » .

وقالت : « كنا آل محمد نمكث شهرا ما نستوقد بنار ، إن هو إلا التمر والماء » .

وقالت : « تُوفى رسول الله ﷺ وليس عندى شيء يأكله ذو كبد ، إلا شطر شعير فى رفّ لى، وتوفى ودرعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعا من شعير».

وكان أبو بكر غنيا قبل الإسلام ، ثم أنفق ماله فى سبيل الله ، ولما وُلّى الخلافة حمل تجارته على كتفه ، واتجه للسوق ، يريد أن يربح رزقه ورزق أولاده .

وكان عمر وتحت سلطانه فارس وسوريا ومصر ، يعيش فى بيت صغير ، وينام فى المسجد ، ويرتدى لباس الفقراء .

وفقد عثمان ، رضى الله عنه ، ماله كله مع أنه كان من أغنى التجار العرب .

---

(١) سورة الضحى ، الآيات : ٦ - ٨ .

وكان عليّ يقدم ما عنده من الطعام إلى المحتاجين ، مع أنه يكون فى حاجة إليه. وكذا بقية أصحاب النبى ﷺ ، حتى استحقوا أن تنزل فيهم الآية الكريمة : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (١).

وهكذا ، نقل الإسلام الفرد من الوثنية إلى التوحيد ، ومن السيف إلى المسالمة، ومن القوة إلى القانون ، ومن الثأر إلى القصاص ، ومن الإباحية إلى الطهر ، ومن النهب إلى الأمانة ، ومن الحياة القبلية إلى المسئولية الشخصية ، ومن امتهان المرأة إلى إجلالها ، ومن الطبقية إلى المساواة .

وانتقل المجتمع بدوره إلى المؤاخاة بين المسلمين ، وتنظيم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين ، بما فى ذلك تقرير نظم الإسلام فى أمور السياسة والحكم ، وكافة النواحى الاقتصادية والاجتماعية ، وغيرها .

فحقق الإسلام معجزة كبرى فى المجتمع العربى ، ونقله من نمط إلى نمط وشمل تأثيره الأخلاق والنظم التى تهم شئون الدين وأمور الدنيا ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٢) صدق الله العظيم .

* * *

والحمد لله رب العالمين ، حمداً طيباً مباركاً فيه ، كما يحب ربنا ويرضى ، وكما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله ، ملء سمواته ، وملء أرضه ، وملء ما بينهما، وملء ما شاء من شيء بعد ، مدداً لا ينقطع ولا يبيد ولا يفنى ، عدد ما حمده الحامدون وعدد ما غفل عن ذكره الغافلون .

وصلى الله على سيدنا ومولانا خاتم أنبيائه ورسله ، وخيرته من

(١) سورة الحشر ، الآية : ٩٠ .

(٢) سورة النور ، الآية : ٥٥ .

بريتـه ، وأمـينـه علـى وحـيــه ، وسـفـيــره بينـه وبين عـبـاده ، فـاتح أبواب الهدى، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، الذى بعثه للإيمان مناديا ، وإلى الصراط المستقيم هاديا ، وإلى جنات النعيم داعيا ، وبكل المعروف آمرا ، وعن كل منكر ناهيا، فأحيا به القلوب بعد مماتها ، وأنارها بعد ظلمتها ، وألف بينها بعد شتاتها ، فدعا إلى الله عـز وجل على بصيـرة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وسارت دعوته سيرة الشمس فى الأقطار، وبلغ دينه الذى ارتضاه لعباده ما بلغ الليل والنهار، وصلى الله عز وجل وملائكته وجميع خلقه عليه ، وسلم تسليما كثيراً .

* *
*

فهرس المصادر والمراجع

• القرآن الكريم وعلومه :

١ ـ المصحف الشريف .

٢ ـ تفسير ابن كثير ـ الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء ابن كثير ـ مطبعة المنار بمصر ـ ١٣٤٧ هـ.

٣ ـ تفسير الإمامين الجلالين ـ دار مروان ـ بيروت ـ ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م .

٤ ـ صفوة التفاسير ـ محمد على الصابونى ـ مكتبة الغزالى ـ دمشق .

• الحديث الشريف وعلومه :

٥ ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى ـ ابن حجر العسقلانى ـ مطبعة بولاق ـ القاهرة ١٣٠١هـ.

٦ ـ صحيح مسلم ـ دار الطباعة العامرة ـ القاهرة ١٣٣١هـ.

٧ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل ـ المطبعة الميمنية بمصر ـ ١٣١٣هـ .

٨ ـ المنتقى من أخبار المصطفى ـ الإمام بن تيمية ـ مطبعة حجازى بمصر ـ ١٣٥٢هـ.

• السيرة النبوية الشريفة :

٩ سيرة النبى ﷺ ـ عبد الله بن محمد بن إسحاق ـ مطبعة المدنى بالقاهرة .

١٠ ـ سيرة النبى ﷺ ـ ابن هشام ـ مطبعة حجازى بمصر ـ ١٣٥٦هـ .

١١ ـ المغازى للواقدى ـ محمد بن عمر بن واقد ـ تحقيق د. مارسدن جونس مطبعة جامعة إكسفورد ١٩٦٥م .

١٢ ـ الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ـ دار صادر ـ بيروت ١٩٨٦م.

١٣ ـ الروض الأنف ـ أبو القاسم عبد الرحمن السهيلى ـ مطبعة الجمالية ـ القاهرة ١٩١٤م.

١٤ ـ إمتاع الأسماع بما للنبى ﷺ من الأنباء والأموال والحفدة والأتباع ـ تقى الدين أحمد بن على المقريزى ـ دار الأنصار ـ القاهرة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٥ ـ أسد الغابة فى معرفة الصحابة ـ أحمد بن على الكنانى العسقلانى ـ مطبعة دار السعادة بمصر ـ ١٣٢٣هـ.
١٦ ـ سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ـ محمد بن يوسف الصالحى ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة ١٩٧٩م.
١٧ ـ جوامع السيرة ـ ابن حزم ـ مطبعة دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٤.
١٨ ـ السيرة النبوية ـ أبو الفدا ابن كثيير ـ مطبعة عيسى البابى الحلبى ـ القاهرة ١٩٦٥م.
١٩ ـ زاد المعاد فى سيرة خير العباد ـ ابن القيم الجوزى ـ المطبعة المصرية ١٩٢٨م.
٢٠ ـ الإصابة فى تمييز الصحابة ـ أحمد بن على الكنانى العسقلانى ـ مطبعة دار السعادة بمصر ـ ١٣٢٣هـ.
٢١ ـ عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير ـ ابن سيد الناس ـ مكتبة القدسى ـ بيروت ١٣٥٦هـ.
٢٢ ـ السيرة التحليلية ـ د. عبد العزيز غنيم عبد القادر ـ مطبعة الحسين الإسلامية ـ القاهرة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
٢٣ ـ محمد بين الحرب والسلام ـ د. عبد العزيز غنيم عبد القادر ـ مركز السيرة والسنة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
٢٤ ـ الرسول القائد ـ محمود شيت خطاب ـ دار القلم بمصر ـ ١٩٦٤ م.
٢٥ ـ الهجرة ـ محمد عبد الله السمان ـ مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧٣م.
٢٦ ـ محمد رسول الله ـ محمد حسين هيكل ـ المطبعة الأميرية ١٩٦٢م.
٢٧ ـ محمد رسول الله ـ محمد رضا ـ دار إحياء الكتب العربية ـ الطبعة الرابعة ـ بيروت ١٩٦١م.

• التاريخ :

٢٨ ـ تاريخ الرسل والملوك ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ـ مكتبة خياط بيروت ١٩٦٩م.
٢٩ ـ تاريخ الكامل ـ عز الدين أبى الحسن على بن الأثير ـ دار صادر بيروت ١٩٧٩م .

٣٠ ـ فتوح البلدان ـ أبو الحسن البلاذرى ـ مطبعة السعادة بمصر ـ ١٩٥٩.
٣١ ـ البداية والنهاية ـ الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفدا ابن كثير ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
٣٢ ـ تاريخ ابن خلدون ـ عبد الرحمن بن خلدون ـ مطبعة النهضة ـ القاهرة ١٩٣٦م.
٣٣ ـ تاريخ مروج الذهب ـ المسعودى ـ طبع بهامش الكامل لابن الأثير ـ مطبعة دار التحرير بمصر ـ ١٣٠٣هـ.
٣٤ ـ الأصنام ـ أبو المنذر هشام بن السائب الكلبى ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م.
٣٥ ـ نسب قريش ـ أبو عبد الله المصعب الزبيرى ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٣ .
٣٦ ـ صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ـ محمد بن عبد الله القلقشندى ـ طباعة القاهرة ١٩١٨م.
٣٧ ـ الزرقانى على المواهب ـ محمد بن عبد الباقى الزرقانى ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٨٩م.
٣٨ ـ التاريخ الكبير ـ شمس الدين الذهبى ـ المطبعة المصرية ١٩٧٣م.
٣٩ ـ أنساب الأشراف ـ أبو الحسن البلاذرى ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.
٤٠ ـ بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ـ السيد محمود شكرى الألوسى ـ المكتبة الأهلية بمصر ١٩٢٤م.
٤١ ـ عصر النبى وبيئته قبل البعثة ـ محمد عزة دروزة ـ دار اليقظة العربية بيروت ١٩٦٤م.
٤٢ ـ موسوعة التاريخ الإسلامى ـ د. أحمد شلبى ـ دار الهضة القاهرة ١٩٨٧م.
٤٣ ـ تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ـ د. حسن إبراهيم حسن ـ دار النهضة بالقاهرة ١٩٨٧م.

• الجغرافيا :

٤٤ ـ معجم البلدان ـ ياقوت الحموى ـ دار صادر بيروت ١٩٨٦م.

٤٥ ـ أطلس التاريخ الإسلامى ـ هارى هازر ـ مطبعة مصر .
٤٦ ـ المسالك والممالك ـ للإصطخرى ـ دار القلم بمصر ـ ١٩٨١م.

• الفقه وعلوم الدين :

٤٧ ـ الخراج ـ أبو يوسف ـ المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٣٤٦هـ.
٤٨ ـ المحلى ـ ابن حزم ـ المطبعة المنيرية بمصر ١٣٤٨هـ .

الرسائل العلمية :

٤٩ ـ الدبلوماسية الإسلامية حتى نهاية العصر العباسى الثانى ـ أحمد محمود الأحمد ـ دكتوراه ـ كلية اللغة العربية ـ القاهرة .
٥٠ ـ العلاقات العربية اليهودية حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين ـ صالح موسى إبراهيم ـ دكتوراه ـ كلية اللغة العربية بالقاهرة .
٥١ ـ جيش النبى ﷺ ـ سيد بلاط ـ ماجستير ـ كلية اللغة العربية بالقاهرة .



فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة



فهرس الخرائط والمخططات

الخرائط والمخططات نقلاً عن :

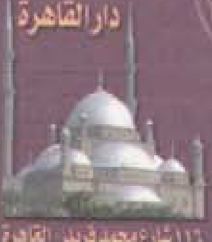
١ ـ د. حسن إبراهيم حسن ـ تاريخ الإسلام السياسى .

٢ ـ محمود شيت خطاب ـ الرسول القائد .



العلاقات الخارجية لدولة الإسلام بالحجاز في عهد النبي ﷺ

كلاسيك



١١٦ شارع محمد فريد القاهرة
ت: ٣٩٣٩١٩٢